الرجل الذي باع العالم

ألبير چانيجوز

ترجمة: فاطمة أحمد

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة
Telegram Network

الرجل الذي باع العالم

«مكتبة ♔ النخبة»

تأليف: ألبير چانيجوز

ترجمة: فاطمة أحمد

تحرير: هدى فضل

مُراجعة لغوية: عبدالرحمن علي

الطبعة الأولى: 2019

رقم الإيداع: 2019/15336

الترقيم الدولي: 9789773195076

تصميم الغلاف: عصام أمين

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع قصر العيني 11451 - - القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Originally published in the Turkish language under the title: Kan ve Gül - .Bir Kara Dejavu Copyright ©2017, Alper Caniguz

No part of this book may be reproduced, in any form without written .permission from the publisher

Published by arrangement Al Arabi Publishing and Distributing via .AnatoliaLit Agency

ألبير چانيجوز

الرجل الذي باع العالم

رواية من تركيا

ترجمتها عن التركية: فاطمة أحمد

بطاقة فهرسة

چانيجوز، ألبير

الرجل الذي باع العالم: رواية من الأدب التركي/ تأليف: ألبير چانيجوز؛ ترجمة: فاطمة أحمد.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773195076

1- القصص التركية

أ- أحمد، فاطمة (مترجم) ب- العنوان 894.353

"خُذ حُبي الأولَ مِن 'بشكطاش' واجلبهُ لِي..

فَإنني متعطشٌ مِن جَديدٍ لِعيشِ شَبابِي".

الشاعر التركي

جاهد صدقي طارانجي

*أسماء فصول الرواية، مقتبسة من أسماء أغاني فرقة "نيرفانا" الأمريكية

مقدمة

عندما بدأنا العمل على هذه الرواية تواصلنا مع المؤلف "ألبير چانيجوز"، لنعرف سبب اختياره لأغاني فرقة "نيرفانا" واستخدام أسماء أغانيهم عناوينًا لفصول روايته، فجاء رده بأن "نيرفانا" وأغانيها عبرت عن جيل كامل اعتاد الاستماع إليها وإلى العديد من الفرق الأخرى. كما أن "كيرت كوبين" المغني الرئيسي بـ"نيرفانا"، وحادثة انتحاره في 1994، كان لهما تأثيرًا كبيرًا للغاية على أجيال التسعينيات.

هذه الرواية هي قصة صراع ومواجهة، صراع مع الحياة والظروف الصعبة والغريبة، ومواجهة للذات والمجتمع الغريب الذي ينشأ فيه هذا البطل هو وأصدقاؤه من الجيل نفسه. جيل التسعينيات: الجيل "إكس". الذي شهد معظم التحولات والتغيرات التي نقلته من الماضي إلى حاضر يستعد لمواجهة مستقبل مليء بالتطورات والتحولات الاجتماعية والسياسية الغريبة.

عنوان كل فصل في الرواية هو أغنية من أغنيات "نيرفانا" وهي تعبِّر تمامًا عن حالة البطل وما يحدث له في كل فصل. حرصنا كذلك على وضع الترجمة العربية للأغاني مع العنوان الإنجليزي الأصلي لها. أمَّا الصور الموجودة تحت كل عنوان، فمعظمها أغلفة ألبومات أشهر أغاني "نيرفانا".

كانت "نيرفانا" فرقة روك أمريكية أسسها المغني "كيرت كوبين" وعازف الجيتار "ألبيس كريست نوفوسيليتش" عام 1987، وانتهت مسيرتها الفنية

بعد انتحار "كوبين" عام 1994، وقد شكل صدمة هائلة على كل من استمعوا له وأحبوه من جيل التسعينيات.

ننصحكم بسماع الأغاني المذكورة في بداية كل فصل، كما نتمنى لكم قراءة ممتعة!

الناشر

الرجل الذي باع العالم

The Man Who Sold the World

المستقبل - كما يراه البعض - عبارة عن ذكرى بعيدة حقًا، فالوجود - من وجهة نظر هؤلاء - خرج عن كونه طريقًا يمتدُ من الحاضر إلى المستقبل، وتحوَّل إلى سجن يحبسهم بين الماضي والمستقبل. إنه وضع مأساوي، لكن في هذه الحالة لا يقع على عاتقنا محاكمة أحد، وإنما يجب علينا قص حكاية مصير حزين لإنسان حُكم عليه أن يكون عبدًا، وأيُّ عبدٍ! إنه متمرد عاصٍ أصيل، لذا أسرعوا إليَّ! فسأقص عليكم حكايتي من منتصفها، بصفتي أحد المنتسبين

لهذا النوع من الناس الذين لم يُكتب لهم النجاح، والذي أخبرتكم عنه منذ قليل.

كان تاريخ زواجي يتوافق مع تاريخ طلاقي، وهي مزحة عجيبة اشترك فيها المأذون والمحامي في مكتب عقد القِران. وُلِد زواجي في ١٧ يناير عام ١٩٩٥، ومات في ١٧ يناير عام ٢٠٠٤. تسع سنوات، ولو أضفنا الفترة التي تواعدنا فيها لتلك الحسبة، لصار عمر علاقتنا ست عشرة سنة.

وإذا تساءلتم عن الفترة اللازمة للتخلص من آثار تلك العلاقة؟ سيجيب عليكم أصدقائي أنها تُقدَّر بنصف المدة التي يقضيها الزوجان معًا.

في ذلك الوقت لم أكن أتوقع أن تلك السنوات التسع ستمر دون أن أقتل نفسي، أو أن أفقد عقلي على الأقل، كما أنني بدأت أشك في أن صديقي ذلك ربما اختلق تلك النظرية لكي يواسيني. لأنه رأى أن الشتاء يمر يتلوه الربيع فالصيف والعمر كله على يمر على هذا العشق، وجرح قلبي لا يطيب وليس له أن يندمل. بالطبع، لم تكن علاقتنا - أنا و"نرجس" - وردية دائمًا. فمن حين لآخر كان يدخل الشيطان بيننا. لهذا السبب - وخاصة قبل زواجنا بعدة أعوام - كنت أتهرب منها وأقضي الوقت مع فتاة كانت صديقتي من الثانوية. ذلك الحادث كاد يتسبب في القضاء على علاقتنا، ناهيك عن ما فعلته "نرجس" من تشوهاتٍ في جسدي النحيل.

مع ذلك، وبعد ما عايشناه من آلامٍ بقدرٍ لا بأس به، ودموع منهمرة وغضب، وندم في وقت لا ينفع فيه الندم، فإن نرجس قد سامحتني، ونجحنا في تجاوز تلك المسألة بطريقة ما. وعلى الرغم من أننا عبرنا المحيطات

وتجاوزناها في أعصف أيام شبابنا، فإننا وبعد سنين كدنا ننهزم أمام عاصفة ونغرق في نهر صغير. بالتأكيد سيصبح أمرًا صعبًا علينا، لكن مستقبلي بدون "نرجس" كان سيجعل حياتي مظلمة تمامًا.

لكنني في النهاية لم أحاول الانتحار، كما أنني نجحت في المحافظة على جزء من عقلي سليمًا - أو بالأحرى، يحلو لي تصور الأمر هكذا - لست على يقين من ذلك. كان أهم سبب وراء هذا الأمر ابنتَنا "زينب"، فلم تكن تتذكر الكثير فيما يتعلق بزواجنا، لكنها كانت أحيانًا تتذكر أشياءً متقطعة عن تلك الأيام. أرى أن كل ما تتذكره هو مجرد تهيؤات ليس إلا؛ ففي أثناء فترة الطلاق - وحتى لو تعاملت أنا و"نرجس" بطريقة فظةٍ غليظة مع بعضنا البعض - كان كلانا يعامل الآخر بتحضر عندما تصبح طفلتنا هي موضوع النقاش.

اشتركنا في تحمل مسؤولية ابنتنا معًا، كانت "زينب" تقضي عندي يومين أو ثلاثة في الأسبوع. في البداية واجهنا بعض الصعوبات، ولكن بعد فترة بدأت الأمور تتحسن إلى حدٍ ما، حينما انتقلت زوجتي السابقة لتستقر في منزل مجاور لي في منطقة "بشكطاش Beşiktaş"، وهي إحدى احياء مدينة إسطنبول.

كانت "زينب" طفلة اجتماعية وعاقلة، والأهم من هذا كله، كانت سعيدة، وهي الشخص الوحيد الذي شعرت نحوه بالمسؤولية الكاملة، وكان أهم شيء في حياتي هو أن أصبح أبًا صالحًا لها، كل ذلك كان سببًا في عدم شعورها بالحزن بعد الطلاق.

بصراحةٍ، لم تكن علاقاتي مع النساء تسير بشكل جيد؛ فبعد سلسلة من العلاقات السطحية التي لا معنًى لها، كانت تدخل حياتي امرأة مختلفة عن السابقين، وتقنعني بأنني أستطيع بدء كل شيء من الصفر واستئناف حياتي، لكن وبعد مرور فترة وجيزة وبينما تبدو الأمور على ما يرام، فإذا بشيء ما يحدث فجأة. كانت "نرجس" تغزو أحلامي: وفيها تسامحني ونتلاقى مجددًا، نلهو ونلعب، نضحك وتتعالى ضحكاتنا مع أصدقائنا القدامى وما شابه... المرعب في الأمر هو أنني كنت أحكي لها في الحلم أنني رأيت كابوسًا مفجعًا، وهو أننا قد افترقنا، وأنني أُجبرت على العيش دونها لسنوات، وأضعت حياتي سدىً، وأصبحت كالميت الحي.

انظر كيف تفتحت الأزهار سريعًا داخل قلبي، عندما أدركت أن كل شيء ليس سوى حلمٍ لا أكثر ولا أقل.

طلع الصبح وفتحت عينَيَّ على دنيا بلا لون ولا بهجة ولا سعادة، وهكذا وبين لحظة وأخرى، كنت أنهي علاقتي الحالية. بالطبع، كنت أشعر بالحزن وتأنيب الضمير بسبب ما اقترفته، لكنني اعتدت مواساة نفسي بفكرة أن أولئك النسوة سينسيْنني في النهاية وسيتابعن حياتهن، تمامًا كما فعلت "نرجس"، أمَّا أنا فسأبقى وحيدًا ومنفردًا بلعنتي الأبدية؛ فأنا سجين قَدَرٍ تعيس.

من ناحية أخرى، ظللت أقنع نفسي باستحالة العودة إلى "نرجس" مرةً أخرى، فلن يحدث أي شيء بيننا بأي حال من الأحوال. أشعر وكأنني أسيرٌ لحوادث الدهر وتقلباته؛ فقد أصبحت قاتلًا متسلسلًا لمجموعة من العلاقات، فما لدي من رسائل الفراق المليئة بالإهانة والسباب واللعنات والذلة والقسوة تكفي لافتتاح معرض صغير.

يومها واجهت حقيقة واحدة: لا بد أن أعيش بقلبٍ متحجرٍ، لذلك قررت أن أرمي كل ما يتعلق بالحب وراء ظهري.

كان يومًا مطيرًا، وكان هناك زوجان عاشقان في ريعان الشباب يسيران متعانقين، وجسداهما الرقيقان ملتصقان ببعضهما، كي لا يبردا في هذا الجو الممطر، عندما رأيتهما صُدمت ودمعت عيناي. لأختصر الأمر كله: أنا الآن في مواجهة عدو ولا بد لي من أن أصبح قاتلًا.

كان الشيء الوحيد الذي يتغيَّر فعلًا في هذه الحلقة اللعينة المفرغة هو ابنتي "زينب"، حيث كانت تكبر أمام عينَيَّ وتفهم بالتدريج الكثير من الأشياء والأمور من حولها، كنت على يقين من أنها لا تظهر لي كل ما تفهمه. بالأمس فقط كانت طفلة رضيعة! وها أنا ذاهب غدًا لمشاهدة عرض راقص ستشارك فيه، وزد على ذلك، سيُقدَم ذلك الاستعراض على مسرح جامعة "البوسفور"، حيث تعرفت على والدتها لأول مرة.

في سنوات الجامعة، اشتغلت أنا أيضًا بالتمثيل المسرحي، لكنني لم أجرؤ على أخذ مثل تلك الخطوة وأقوم بالتمثيل في مسرح عظيم كهذا؛ حيث كانت فرقة مسرح الجامعة نمطية للغاية في تعاملاتها الداخلية، وكانت قد تجاهلتني تمامًا على الرغم من تقديمي لمسرحيات حققت نجاحًا كبيرً، بل وشجعت رهبةَ المسرح داخلي بعض الشيء؛ ولذلك قررت مواصلة حياتي الفنية مع فرقة مسرح أخرى تُدعى "طلائع الشباب"، والتي كانت تمارس نشاطها في دار سينما يشبه الكوخ في حي "أورطه كوي (Ortaköy)" التابع لمنطقة "بشكطاش".

مثلت العديد من المسرحيات مع "طلائع الشباب"، لكننا ومع الأسف لم نتمكن من التمثيل أمام الجماهير إلا في عروض سيئة مدتها ثلاث دقائق فقط، وأستطيع القول إنها كانت عبارة عن أناشيد وموشحات دينية وليست عروضًا مسرحية.

ثم وفي يوم من الأيام - ولسبب ما - شمَّعت الشرطة المسرح بالشمع الأحمر، ومن بعدها انتهت مغامراتي مع التمثيل، ولذلك شعرت بسعادة غامرة وفخر كبير بابنتي، وهي لا تزال في الثالثة عشر من عمرها، لصعودها على خشبة المسرح لتقدم استعراضًا رائعًا.

قبل يوم من تلك الحفل، كنت جالسًا على الكمبيوتر في غرفة مكتبي مساءً، أعمل على رواية "القلب المخطوف"، وهي الرواية رقم ١٠٣ التي ترجمتها لدار "باراديسا" للنشر، وبينما أنا منشغل بإجراء التعديلات الأخيرة على ترجمتي، رنَّ تليفوني: - آلو!

- أبي؟

- نعم؟

- لم تنسَ موعدنا غدًا، أليس كذلك؟

- وكيف لي أن أنساه!

لم أكتفِ بإخبارها بالتاريخ فقط، بل وسحبت نتيجة المكتب التي تحوي معلومات مهمة حدثت في مثل ذلك اليوم، ووضعتها أمامي، ثم ألقيت نظرة

على ظهر صفحة يوم الغد، وقلت: - إنها الذكرى السنوية لحصول "هتلر" على الجنسية الألمانية.

ردت بلهجة باردة:

- مضحك للغاية!

أعتقد أن "زينب" وجدتها مزحة مضحكة بالفعل، لكنني لم أعلق على ردها، لعلمي أن السخرية من مزحة الوالديْن هي إحدى المائة والاثنين والسبعين ذنبًا الذي من المسموح أن يقترفه المراهقون في مثل سنها، لذلك فضلتُ الصمت.

- سيبدأ العرض في الساعة السابعة، إياك أن تتأخر!

- لن أتأخر، لا تقلقي.

- هناك شيء آخر.. سيكون من الأفضل أن ترتدي ملابس أنيقة.

- ألا يعجبك ذوقي في الملابس؟

أخذتُ على خاطري ممَّا تفوهتْ به.

- لا أقصد ذلك، وإنما غدًا يوم مختلف.

- حسنًا سأرتدي المعطف.

قالت بلهجة قلقة:

- إياكِّ!

في الواقع، لم أكن شخصًا مجنونًا غريب الأطوار، لكن في تلك اللحظة انتابني شك في أنه من الممكن أن أكون هكذا في مخيلة ابنتي، هذا الشك نال إعجابي كثيرًا وجعلني أحس نفسي أبًا مثيرًا للعجب، ومصدر فخر أيضًا.

- ارتدِ البذلة!

- حضرت مجالس آباء لا حصر لها، ولا أذكر أنني صادفت حتى أبًا واحدًا يرتدي بذلة.

- هذا ليس مجلس آباء، إنه حفل رقص، فضلًا عن أن والد صديقتي "شبنم دميرتشيفي" سيرتدي بذلة.

- سيحشر والد "شبنم دميرتشيفي" أنفه في هذا الأمر أيضًا؟

- أبي! إنه أمر مهم للغاية بالنسبة لي، فإذا سمحت ارتدِ جاكيت بدلة على الأقل.

- حسنًا سأفعل، لا تقلقي من ناحيتي! غدًا سيكون يومًا رائعًا.

وبينما كنا نتحدث اهتزَّ التليفون، فنظرت إلى الشاشة، هناك مكالمة أخرى قيد الانتظار، إنها من رئيسي في العمل السيد "أسعد" مدير النشر العام بدار "بارادیسا" التي أعمل بها، قلت: - ابنتي! جاءني اتصال من العمل، علي أن أغلق الآن.

- حسنًا.

- أحبكِ كثيرًا.

- حسنًا.

بدأت المكالمة بطلعة مرحة بالنسبة لمكالمة عمل رسمية تجرى في الثامنة مساءً، وقلت: - أهلًا بك يا سيد "أسعد"!

- كيف حالك يا "عزيز"؟

ثم قال لي بلطف غير مألوف بالنسبة لرئيس تحرير لم يتسلم النص الذي من المفترض أن يُرسل في اليوم التالي إلى المطبعة: - لم أتسلم الكتاب حتى الآن.

- سيكون عندك خلال ساعة يا سيد "أسعد"، هناك بعض التعديلات...

- انتهِ منها على الفور لو سمحت، سأكون في انتظارك.

ثم أنهى ولي نعمتي المكالمة.

كانت علاقتي بدار "باراديسا" مثلها مثل علاقتي بـ"نرجس" و"طلائع الشباب"، فجميعهم يعودون لسنوات الجامعة، لكن علاقتي مع دار النشر كانت مستمرة إلى وقتنا هذا بغض النظر عن بعض الاختلافات البسيطة التي طرأت عليها. وباعتباري مترجمًا مثاليًا لا يملك في جيبه قرشًا، فإنني كنت أكسب مصروف جيبي من ترجمة الكتب ذات الموضوعات القيمة لدور النشر الجيدة ذات السمعة الحسنة.

كنت متمسكًا بحلمي وهو أن أترجم إلى الإنجليزية أعمال أشهر الروائيين الأتراك، وهو الكاتب الروائي "سعيد فائق".

إلى أن جاء اليوم الذي تهورت فيه واشتريت رواية من إصدارات دار "باراديسا" من بائع الجرائد الذي يقف أمام كافيتريا الجامعة، أخذتها وتصفحتها، كانت جميعها روايات رومانسية أسوأ من بعضها، ومن ناحية أخرى، كانت جودة الأوراق سيئة، وتصميمات الأغلفة وترقيم الصفحات وتخطيطها بلا ذوق وبلا جودة. ومع ذلك، فقد بدا على دار النشر أنها لا تواجه أية أزمات مالية، وعندما أخذت موعدًا بالتليفون وذهبت لإجراء مقابلة معهم، اختبروني في الترجمة، وبعدها مباشرة بدأت العمل معهم.

وهكذا ودعت موضوعاتٍ كعلم الرموز (السيموطيقا)، والتحليل النفسي، والتطور الوراثي، ودخلت عالم الحب والجنس، وشبابٍ ذوي عيون رمادية في لون الفولاذ، وفتيات في ريعان شبابهن كالزهور التي لم تتفتح أوراقها بعد. كنت عندما أنتهي من ترجمة رواية ما، أبدأ في غيرها على الفور، فكتب "باراديسا" كانت تُباع بكثرة كما يُباع الخبز والجبن. احترفت هذه المهنة مع مرور الوقت لدرجة أنني كنت أتمكن من إنهاء ترجمة كتابين في شهر واحد.

كان لدي ملصق عليه صورة الكاتب المسرحي "شكسبير" معلقة على حائط غرفة مكتبي، وكلما نظرت إليه قرأت في نظراته المنتقدة والمشمئزة أسئلة مثل: "هل تلقيت التعليم طيلة تلك السنوات من أجل هذه المهنة الوضيعة؟"، حتى ولو كان صدري يضيق بمثل تلك الأسئلة، وضميري يؤنبني من حين لآخر، إلا أن كل ذلك العذاب كان ينتهي بمجرد أن أحصل على شيك المرتب، والذي اعتدت صرفه من "سيتي بنك"، وكان الفرع الوحيد له في تركيا حينها

يقع في الطابق الأرضي من المبنى الذي توجد به دار "باراديسا"، بحصولي على ذلك الشيك كان كل شيء ينتهي.

كنت أصبِّر نفسي بفكرة أن ذلك عملًا مؤقتًا سأستمر فيه حتى الانتهاء من الدراسة الجامعية، إلا أنني لم أستطع بشتى الطرق أن أجد وظيفة أخرى أفضل من تلك، كما أنني تقبلت حقيقتين: الأولى، أنني سأظل أترجم روايات قذرة من ذلك النوع حتى أبلغ سن التقاعد، وسيساعدني فيما بعد مبلغ التأمين الذي ضمنه لي السيد "أسعد"، والذي كان محررًا بسيطًا في بداية تعارفنا، أمَّا الآن فهو ليس مدير النشر العام فقط، بل وشريكًا في الشركة أيضًا، والثانية فهي أن ترجمتي لمجموعة أعمال الروائي "سعيد فائق" إلى اللغة الإنجليزية سيستغرق وقتًا طويلًا، أليس هذا نضجًا، أن أتقبل الحياة كما هي بأوجاعها؟

بعدما انتهيت من تعديل ترجمة رواية "القلب المخطوف" ومراجعتها، أرسلت الملف عبر الإيميل إلى دار النشر، ثم ذهبت إلى الدولاب لكي أختار الطاقم الذي سأرتديه في حفل "زينب" حتى لا أكسر بخاطرها. كان أجدد ما أمتلك هو ثلاثة جاكيتات اشتريتها قبل عشر سنوات، فاخترت الرياضي من بينها، ومع أن الجاكيت لم يكن ضيقًا علي بالقدر الذي كنت أخشاه، إلا أنه كان عليه الكثير من الغبار على خلاف ما توقعت. ارتديته وأخذت أنفض الغبار عن كتفَي، وبعد نفضة والثانية علمت أن علاج مشكلتي في يد تكنولوجيا الغسيل الجاف، فهل يا تُرى سأجد مغسلة مفتوحة في هذا الوقت المتأخر؟ لنفرض أنني وجدتها، فهل سيستطيعون تنظيفه قبل مساء الغد؟ وهل هناك

قوة أعظم من ابنتي، كانت ستخرجني لأجول الشوارع في تلك الساعة كي أعثر على أجوبة لتلك الأسئلة؟

حملت الشماعة بالجاكيت على ظهري وخرجت، وقفت أعلى منحدر "يلديز (Yıldız) " بـ"بشكطاش"، وأخذت أنظر ناحية حي "إهلامور" ((Ihlamur"، ثم ناحية حي "تشارشيÇarşı))"، وبعدها قررت متابعة السير نحو الأخير، حيث صخب الحياة كان لا يزال مستمرًا وبه دكاكين أكثر، ولم تهدأ القدم فيه بعد. أخذت جولة سريعة في الحي بأكمله في عشر دقائق، ووجدت ثلاث محلات للتنظيف الجاف، لكن مع الأسف كان جميعها قد أغلق أبوابه، وسرعان ما تحولتُ في تلك اللحظة من أب لديه خطط وأحلام إلى رجل بلا هدف. وقفت أتأمل الناس حولي، بدا لي وكأن الجميع لديهم أماكن يذهبون إليها الليلة عداي أنا، لم أستطع التخلص من ذلك الشعور. خطرت "نرجس" على بالي حينها، تخيلتها في المنزل مع ابنتنا وربما في صحبة أحبابها الآخرين، تخيلتهم وهم سعداء آمنين مطمئنين، ويشعرون بالأنس والحب، رأيتهم في خيالي وهم يأكلون سلطة الزبادي.

إنه لأمر عجيب! ولكن أكثر شيء أصابني بالاستياء هو ذلك الأخير، لأنني كنت أعلم أن والدة زوجتي السابقة أتت لزيارتهم في إجازة الأسبوع الماضي، وكانت في الطبيعي تقوم بإعداد أكلة الزبادي مع الفلفل، وتتركها لنا. يوجد سر عجيب في هذه الأكلة، فبينما تأكلونها تشعرون أن هناك أحدًا يفكر بكم، يرعاكم ويهتم بكم، وستحسون بدفء العائلة حتى وإن لم يكن أحد بجانبكم. كنت قد فقدت هذا الشعور أيضًا بذهاب "نرجس"؛ أي أنني كثيرًا ما أعد

الزبادي بالفلفل لنفسي، وألتهم منه كما أريد، لكنَّ هذا لم يكن يغير قط حقيقة أنني وحيد في هذه الحياة.

وبينما كنت في أعلى درجات الاستمتاع بجلسة الشفقة على النفس هذه، إذ سمعت صوتًا يناديني، استدرت ونظرت نحو جهة الصوت، فرأيت امرأة سمراء تجلس أمام أحد الحانات المصطفة على جنب الطريق، لوحت بيدها لي، لكنني لم أكن أعرفها، ابتسمت ولوحت لها بيدي تمامًا مثلما فعلت، ثم تابعت السير في طريقي.

لكنني توقفت، عندما رأيتها قد نهضت من كرسيها وجاءت نحوي، وقالت وكأنها سعيدة حقًا لرؤيتي: - "عزيز"!

عصفتُ ذاكرتي عصفًا، لكن النتيجة صفر؛ لم أتذكر.

- أنا "فوليه".

- "فوليه"؟

لم تُضئ أيٌّ إشارة في ذهني بعدُ.

- "فوليه" من فرقة مسرح "طلائع الشباب"... ألا تتذكر أصحاب "بولنت" وما شابه؟... كنا معًا في مركز "أورطه كوي" للفنون.

"فوليه"؟ هذه المرأة الفاتنة الجذابة التي تقف أمامي الآن، هل كانت تلك البنت الهزيلة السمراء؟

- يا إلهي! حسنًا لم أستطع تذكركِ في البداية.

- لا عليك، شيء طبيعي، فقد مر عشرون سنة منذ ذلك الحين، نشيخ بطبيعة الحال.

بما أن المرأة هي التي تذكرتني، فهذا يعني أن تعليقها بأننا نشيخ هذا تقصد به وظائف عقلي المتأخرة، أو ربما كانت تنتظر مني أن أعترف بأنني تغيرت بالفعل.

قلت:

- لكنك تبدين مختلفةً تمامًا.

طبطبت على كرشي التي انتفخ بزيادة في السنوات الأخير، وقالت ضاحكة: - وأنت أيضًا تبدو مختلفًا تمامًا.

- لكِ أن تتخيلي! إنه بسبب العمل فأنا جالس على المكتب دائمًا.

كنت قد تضايقت قليلًا، فقلت لنفسي لألاطفها وأجاملها بكلمتين، لعلي أسمع في المقابل أني فقدت الوزن! قلت لها: - إن لم يكن لديك عمل، تعاليْ نجلس ونشرب شيئًا ونتسامر.

تريد الجلوس وشرب شيء معي، سعدت لسماع ذلك.

- أنا متاحة حتى الساعة العاشرة.

بدا أنها لا ترغب في الإطالة، فحزنت.

- سأذهب بعدها إلى المسرح، فهناك مسرحية غاية في الروعة ستعرض في مركز "بشكطاش" الثقافي. لا بد أن تشاهدها، لا يجب أن تفوتك.

إنها تدعوني للمجيء للمسرح بطريقة غير مباشرة، فسعدت مجددًا، وأكملتْ:
- لكنَّ قطع التذكرة صعب للغاية، فعليك الحجز قبلها بشهر على الأقل.

لا، إنها لم تكن تدعُني للمسرح أو ما شابه، فحزنت مجددًا.

- على أية حال، أمامنا ساعة نستطيع الاستمتاع فيها معًا.

حقًا كانت بين أيدينا ساعة سنقضيها على انفراد، فسعدت.

- زوجي "أوركون" سيخرج متأخرًا من العمل هذا المساء، ومن المحتمل أنه سيذهب مباشرة إلى المسرح.

تقول زوجي؟ هذا يعني أن زوجها صاحب عمل، فحزنت مرة أخرى!

نظرتُ إلى تلك المرأة التي أصابتني باختلال، وعدم اتزان في الشخصية من جملتين قالتهما لي، ثم تأوهتُ قائلًا: - لا أعلم...

سحبتني من ذراعي باتجاه الطاولة التي كانت تجلس عليها قائلة: - على أي حال، ماذا تشرب؟

عشرون سنة! كم تبدو مدة طويلة بالنسبة للإنسان، لكني عندما وصلت إلى نصف كأس البيرة الثاني، كنا قد مررنا سريعًا على أهم الموضوعات والأحداث التي عشناها في تلك الآونة، كشخصين لم يريا بعضهما منذ زمن بعيد. حكايتي كانت واضحة للغاية، "نرجس" و"زينب" والطلاق ودار

"باراديسا"، أما عن "فوليه" فكانت قد تركت المسرح منذ وقت طويل، وبعدما أنهت دراسة الجامعة، تجولت في بلاد الهند، وفلسطين، وأفغانستان، وإيران، وهولندا على مدار عام، ووقعت في حب رجل هولندي وتزوجته، ثم طُلقت منه عندما أدركت أنه مريض نفسي.

عملت لمدة عام مديرةً في شركة مستلزمات المكاتب، وتعرفت على زوجها "أوركون" في هذه الشركة، وكانت سعيدة، لكن لم يكن لديهما بيت مستقل، ولم ينجبا الأطفال، ولم تكن تفكر في الإنجاب... كلاهما لم يفكر في ذلك.

نظرت "فوليه" في ساعتها وتليفونها نظرة خاطفة، ثم طلبت كأس بيرة آخر. في الحقيقة لو نظرنا إلى أنه قد تبق خمس عشرة دقيقة فقط على بدء المسرحية، فسنرى أنها لم تتخذ قرارًا صائبًا بالمرة، لكنه كان كل ما أتمنى حدوثه.

أخذتْ رشفة واحدة من الكأس الذي طلبته مجددًا، ثم نظرت إلى وجهي، وقالت: - كنت موهوبًا للغاية.

- عفوًا؟

- أقصد على خشبة المسرح... كنت ممثلًا مسرحيًا رائعًا في رأيي.

- يا إلهي! تقولين هكذا وكأننا مثلنا مسرحية ذات جودة ويُتحاكى بها؟! لكن أشكرك على أي حال.

- لا لا، كانت موهبتك واضحة حتى من مسرحياتك الارتجالية.

- لكنَّ الآخرين لم يكونوا يفكرون هكذا في الغالب، فبعدما أغلقت دار السينما لم يتصلوا بي قط.

- هذا ليس له أية علاقة بتمثيلك في رأيي، أظن أنهم كانوا لا يجدونك.. بالقدر الكافي لهم.

- ثوريًا؟

ضحكت "فوليه" بصوت عالٍ، وقالت:

- كنت قارئًا للكاتب والمخرج المسرحي الشهير "ستانسلافسكي".

- تمثيل درامي! يا لها من إهانة كبيرة لـ"برتولد بريخت".

قرعتْ كأسها بكأسي وقالت:

- أجل، يبدو أنك تستحق ما أصابك. في صحتك!

سألتها:

- ماذا فعلتم بعدما انفصلت عنكم؟

في الحقيقة، كنت متشوقًا فعلًا لأعرف مصير فرقة المسرح. عضت "فوليه" على شفتيها، وقالت: - بعدما ذهبت أنت جاء "عبدُل".

- "عبدُل"؟

أجابتني "فوليه" بحركات مبهمة وغير مفهومة برأسها، وكانت ابتسامتها قد تجمدت على وجهها، وغامت النظرات في عينيها.

- إنه ممثل من أنقرة، كان شخصًا غريبًا محيرًا، ومن نماذج الشخصيات التي تعترض على كل شيء، وجذابًا بعض الشيء.

- اممم... حسنًا ماذا فعل "عبدُل" هذا؟

- أنهى المسرح ودمره، وكان يتدخل في كل شيء كما حكيت لك؛ لا، لن تمثل هذه المسرحية ستمثل الأخرى، لا، الديكور لا يجب أن يصمم هكذا بل كذلك، الضوء لن يسلط من هذه الجهة بل من تلك... وكل ما يخطر على بالك.

- وهل تشاجر مع "بولنت" أو حدث خلاف بينهما؟

- نعم، خلافٌ وأي خلافٍ! فقد كانت هناك مسرحية كتبها "بولنت" بنفسه، وكان يود كثيرًا أن نمثلها معًا، وهي عبارة عن نموذج لشخص رأسمالي يصفي حسابه على فراش الموت وما شابه... أتعلم ماذا كان المقترح المضاد الذي طرحه "عبدُل"؟ "الترميناتور - المدمر (The Terminator)"!

- ماذا؟

- "الترميناتور".

- أليست هذه قصة فيلم الخيال العلمي الأمريكي الذي جسد دوره "آرنولد شوارزنيجر"؟

- نعم، هو بعينه.

ابتسمتُ ابتسامة عريضة على غير إرادة مني قائلًا:

- في الحقيقة لم أكن أتوقع شيئًا كهذا على الإطلاق.

- "الترميناتور – المدمر" كانت قصة تنتقد مجتمعات ما بعد الرأسمالية.

- كان عليه أن يقبلها لأنها ذات اتجاه ثوري على ما أتذكر.

- كان عليك أن ترى كيف كان يدافع عنها، مكتوب في النص البديل للحكاية أنها تتناول قضية التغريب الذي ظهر نتيجة دخول الماكينات، واستعمالها استعمالًا مفرطًا... وغيره الكثير والكثير. والغريب في الأمر أن عديم الشرف هذا نجح في إقناع قطاع كبير من الناس.

من كلامها، كنت قد ارتحت قليلًا للشخص المدعو "عبدُل" هذا.

- إنني متخوف من أن أسألك: أي مسرحية وقع القرار عليها في النهاية؟

- مسرحية "الفزيائيون" للكاتب السويسري "فريدريش دورنمات"، والتي تتناول الحرب العالمية الثانية، والتطورات الحديثة في العلوم والتكنولوجيا النووية، ومسائل أخلاقية أيضًا.

- ماذا تقولين؟! وكيف حدث ذلك؟

- عندما لم يتنازل أحدهما عن مسرحيته للآخر، وردنا اقتراح ثالث بديل على جدول المسرحيات، ووقع الأمر علينا نحن السيدات، حيث كانت في

المسرحية دور امرأة واحدة، وبالطبع ذهب هذا الدور إلى "تولاي" كالمعتاد.

- "تولاي" كانت زوجة "بولنت"، أليس كذلك؟

قالت "فوليه" وهي تتفقد ساعتها:

- نعم، إنها كذلك... علي الذهاب الآن.

لوحتُ للنادل بإشارة طلب الحساب التي يفعلها العالم كله، وكأنه يوقع إمضاءه على الهواء، ثم التفتُّ إلى "فوليه" مرة أخرى.

- لعلها كانت مسرحية جميلة؟

- لم نستطع تمثيلها من الأساس، فقد مات "عبدُل".

- ماذا!

- في الخامس من أبريل عام 1994، أتذكر هذا التاريخ جيدًا لأنه كان يوم انتحار الموسيقار الأمريكي وأهم مغني الروك في العالم "كيرت كوبين" مؤسس فرقة "نيرفانا"، كما سمعت أنهم قد عثروا على جثة "عبدُل" مطعونًا بسكين في قلبه في شقته.

- ماذا تقولين يا "فوليه"؟ يا لها من حكاية! ومن قتله؟

هزت "فوليه" كتفيها، وقالت:

- لم يتمكنوا إطلاقًا من القبض على قاتله.

- أرى أنه من الممكن أن يكون أي أحد قد ارتكب تلك الجريمة؛ مثلًا فرد من فرقة المسرح كـ"بولنت أو "تولاي"، أو أي أحد آخر تعرف عليه بمكان ما وأزعجه... حتى من الممكن أن تكون "كورتيني لوف" نفسها زوجة المغني "كيرت كوبين" الذي مات منتحرًا، لكنهم يشكُّون في أن زوجته قتلته.

كانت "فوليه" تصر بشدة على دفع الحساب، وقدره خمس وأربعين ليرة تركية، لكني لم أبالِ لإصرارها، وأخرجت ورقة بقيمة خمسين ليرة من جيبي ووضعتها على الطاولة، ثم قمنا من أماكننا.

- هيا لنذهب.

وما إن سرت عدة خطوات نحو الطريق، حتى نادتني "فوليه"، وكانت قد وضعت إصبعها داخل شماعة الجاكيت، وأخذت تهزه قائلة: - مهلًا انتظر! لقد نسيت هذا - شكرتها وأخذته من يدها - لماذا تحمل هذا معك؟

بدأنا في السير باتجاه المسرح معًا، وكنت أشعر بالضيق كثيرًا لمجرد التفكير أنه يتحتم علينا أن نفترق خلال دقائق معدودة.

قلت:

- هناك حفل رقص استعراضي ستشارك فيه ابنتي مساء الغد، لذلك خرجت بالجاكيت لعلي أجد مغسلة، لكنَّ جميعها كانت مغلقة.

- هل ذهبت إلى مغسلة "قان وجول - دماء وورود"؟

- أين؟

- مغسلة "إسكندر دوغان"، اسمها "دماء وورود"، إنها مفتوحة جميع أيام الأسبوع وعلى مدار الأربعة والعشرين ساعة.

كنت أتذكر جيدًا الفنان المغني "إسكندر دوغان"، الذي نال شهرة واسعة بأغنيته "دماء وورود Kan ve Gül))"، وذلك في السبعينيات، لكن أن يقوم بنفسه بتشغيل محل للغسيل والكي الجاف، بدا لي أمرًا غريبًا.

- هل أنت جادة؟

- نعم، وأنا أيضًا اندهشت عندما رأيته، فهو يقف بنفسه في المحل، صادفته في إحدى المرات وتحدثنا قليلًا.

- أحقًا ذلك؟ وكيف يبدو إذًا؟

- رجل نبيل وكريم، غايةً في الاحترام، وذو وجه ضحوك، واجتماعي، من نوع الرجال الذين يصعب رؤيتهم في هذا الزمان. عند بداية افتتاح محله كان الناس يأتون من كل مكان لطلب توقيعه.

كنت أنا أيضًا ضحوك الوجه واجتماعيًا، لكن كانت هناك حقيقة لا تقبل الشك، وهي أنني لن أصبح أبدًا ذلك الشخص الذي يصعب رؤيته كالقماش الهندي النادر. ولعل هذا النبل وكرم الأخلاق الذي تقصده، هو أن لا يكون المرء صاحب ميول واتجاهات سلبية أكثر مما يكون صاحب خصال إيجابية، فمثلًا: عندما تقف امرأة أمامك وتتفوه بكلمات تجرحك وتحقر منك، ساعتها لا تنجرف نحو غضبك وتطيل لسانك عليها بالمثل أي لا ترد الإساءة بالإساءة.

- أظن أنه لم يبق لديه معجبون كالسابق.

قالت "فوليه" ردًا على تعليقي الثقيل هذا:

- لم يشتكِ أو يعترضْ على حاله الآن، فهو ليس جشعًا ومولعًا بالشهرة كنجوم ومشاهير اليوم.

وبينما كانت صديقة المسرح القديمة تُلْزِمُنِي حدي بأدب، كنا قد وصلنا أمام مركز "بشكطاش" الثقافي. يا تُرى، هل كان علينا أخذ أرقام بعضنا، أو شيء أكثر من ذلك؟

ابتلعت ريقي وقلت متحسرًا:

- إذًا، أتمنى لك مشاهدة ممتعة. صدفة سعيدة.

قالت "فوليه" بجدية:

- الشيء السعيد لا يمكن أن يكون جميلًا.

ثم عقبتْ ضاحكة:

- أمزح معك!

حينها أصبحت متأكدًا أن حلمي أن أصبح نبيلًا مثل "إسكندر دوغان" هذا صعب التحقيق، على الأقل في نظر "فوليه"، وسريعًا تراجعت عن طلب رقم تليفونها، وسألتها: - كيف أذهب إلى مغسلة السيد "إسكندر"؟

- اذهب إلى مركز حي "تشارشي" وامشِ حتى نهايته، وقبل أن تحيد إلى حي "يلديز" ستجده عند البلوكات المصطفة على اليمين.

- حسنًا، أشكركِ.

- قبلاتي لابنتك.

- وأنت أيضًا إلى "أوركون".

أطلقت "فوليه" ضحكاتها العالية ببهجة، ثم مالت نحوي ولامست شفتيها الرقيقتين خدي، وهمست في أذني قائلًا: - أتعلم أني كنت أحبك في الماضي؟

ثم رحلت.

ظللت أراقب دخولها مبنى المسرح ومشهد اختفائها كخيالٍ حلوٍ، وأصابعي على المكان الذي لامسته شفتاها. رجعت مسرعًا لأذهب إلى مغسلة السيد "إسكندر"، فوجدت نفسي أُهَمْهِمُ بيني وبين نفسي: دماء وورود.. دماء وورود!

2

اعتذاراتي

All Apologies

كان المطر قد بدأ في النزول رذاذًا، عندما لمحت لافتة مغسلة "دماء وورود"، والتي كان يضيئها مصباح الفلورسنت الأحمر. وصلت إلى المحل مسرعًا كي لا يبتل الجاكيت، وفتحت الباب. كانت في استقبالي الجاكيتات والسترات والمعاطف والسراويل والقمصان والبلوزات، وشتى أنواع الأزياء تحيط المكان من جميع أرجائه، متدلية من السقف كأفراد ملفوفة رقابهم بحبل المشنقة استعدادًا للإعدام. مررت من بينها حتى وصلت إلى الكونتر الذي بوسط المحل، أدرت رأسي نحوه فوجدت رجلًا طويل القامة، يجلس في الزاوية اليمني خلف هذا الكونتر، ويمد رجليه على منضدة صغيرة يوجد فوقها الكاشير، وبيده كتاب يقرأه. أخذ يحدق فيَّ بنظارة القراءة التي

يرتديها، وقبل أن أشرع في التحدث نهض مسرعًا كالرمح، وابتسم لي ابتسامة خفيفة، ثم قال:

- مرحبًا! كيف لي أن أساعدك؟

كان هذا السيد المحترم هو المغني "إسكندر دوغان"، إذا رأيتموه تستطيعون أن تعطوه خمسًا وأربعين سنة على أكثر تقدير، في حين أنه يبلغ من العمر ستين سنةً بالحساب التقريبي. أما عن الكتاب الذي بيده، فقد وضعه مقلوبًا على المنضدة التي أمامه بوضعية تكون فيها الصفحة التي يقرأها مفتوحة، أمَّا الغلاف فيظهر في الأعلى أمامك، وكأنه كان يريد أن يجعل كل شيء مثيرًا. كانت رواية "آلة الزمن" لـ"إتش. چي. ويلز".

بادرت بالحديث كي يفهم أنني أعرفه، وقلت:

- مساء الخير يا سيد "إسكندر"، أريد أن أترك جاكيتي لديكم للغسيل والْكَيِّ.

أخذ الشماعة من يدي قائلًا:

- تفضل، بكل سرور!

وبعدها أخرج من جيبه قلمًا جافًا أنيقًا، وبدأ يملأ ايصال التسليم.

- اليوم الإثنين.. يوم الأربعاء سيكون جاكيتك جاهزًا، هل يناسبك هذا الموعد؟

رددت على الفور:

- كلّا، ليس مناسبًا.

عندما لاحظت أن "إسكندر دوغان" قد رفع حاجبه، عقبت مسرعًا:

- هناك حفل رقص استعراضي ستشارك فيه ابنتي مساء الغد، وبكل أسفٍ هذا هو الجاكيت الوحيد الذي يمكن أن أرتديه.

التفت السيد "إسكندر" نحوي، ونظر لي نظرات كلها عطف وود، ثم سألني:

- هل ابنتك راقصة؟

- إنها تذهب للتدريب على الرقص الحديث منذ عام، لا تزال بعدُ في الثالثة عشر من عمرها، فلا أعلم ما إن كانت ترغب في الاستمرار من عدمه، فهي متقلبة المزاج قليلًا، لكن ما أستطيع قوله هو أنها تهتم بالفن عن قرب، وخاصةً الموسيقى، وصوتها عذب وجميل.

كنت سأستمر في الحديث أكثر، لكنني أغلقت فمي لأنني لا أريد أن يأخذ السيد "إسكندر" عني فكرةً، أنني واحد من هؤلاء الآباء الذين يأخذون في تعديد مواهب أبناءهم بمجرد أن يروا فنانًا مشهورًا بارعًا، في الواقع كنت هكذا، لكنَّ هذا ليس موضوعنا الآن.

من جانب آخر، كان السيد "إسكندر" قد أصابني بالدهشة عندما استقبل كلامي بصدر رحب واهتمام، حيث إنه لم يكتفِ بالسؤال عن اسم ابنتي ومدرستها فقط، بل سأل أيضًا عمّا إن كانت دروسها تسير على ما يرام أم لا، وبما أنها موهوبة ومولعة بالموسيقى فهل تفكر في الذهاب إلى معهد الموسيقى من عدمه. وعندما قلت له إن "زينب" تحب الغناء أكثر من غيره،

أخبرني بأن أنسب سن للبدء في دروس تعلم الغناء والموسيقى هو سن الرابعة عشر. لا أستطيع أن أصف مدى سعادتي عندما وجدته إنسانًا طبيعيًا مثلي ومثلك، فعلى الرغم من شهرته الجليلة، كان فنانًا وشخصًا متواضعًا في آن واحد، وليس كمشاهير هذه الأيام على الإطلاق، مع أنه لم يسبق لي وأن تعرفت على أحد من مشاهير اليوم، لكنه بدا هكذا في نظري.

قال السيد "إسكندر" وهو يعطيني الإيصال:

- بإمكانك أن تتسلم جاكيتك غدًا بعد الظهر، وتمنياتي بالنجاح لـ"زينب" الصغيرة!

قدمت له جزيل الشكر، ثم اتجهت في طريقي للخروج من المحل، ويا ليتني خرجت! فإن الشيطان همز لي مع الأسف، ورجعت من طريقي مرة أخرى.

نحنحت صوتي، ثم قلت:

- سيد "إسكندر"، لا تؤاخذني! فإني أود أن أسألك عن شيء.

كنت أقرأ من ملامح وجهه أن صفوه تعكر قليلًا، لكن السهم كان قد خرج من قوسه وقُضِيَ الأمر، وكان عليَّ متابعة حديثي الذي بدأته.

- إن حياتك الفنية استغرقت فترةً قصيرة للغاية، فأغنيتك "دماء وورود" كانت مذهلة، لكنك لم تقدم أي شيء بعدها على حد علمي؛ أي أنه: لا يوجد عمل آخر لسيادتكم حقق نجاحًا وشهرةً في هذا المجال؟ بالطبع، من الممكن أن يكون سبب سؤالي نابع من جهلي بالأمر.

رد السيد "إسكندر" قائلًا:

- في الحقيقة، كنت قد عملت بمجال الموسيقى بشكل مكثف لفترة ما بعدما أصدرت أغنية "دماء وورود"، لكنني تركت المجال كليةً بعد تلك الفترة.

- يا للهول! هل لي أن أسألك عن السبب؟

أجابني شاردًا، وعلى وجهه تعابيير فرح وارتياح:

- لم أرَ أن الأمر سيجدي نفعًا.

- أخشى أنني لم أفهمك؟

فقابل "إسكندر دوغان" سؤالي بسؤال آخر قائلًا:

- وأنت، ماذا تعمل؟

- أنا أعمل مترجمًا، أبذل قصارى جهدي في ترجمة أعمال الروائي "سعيد فائق" من التركية إلى الإنجليزية.

لا تُعَدُّ كذبة، ففي النهاية كان هذا أسمى أمانيَّ التي أسعى وراءها، كما أنني لم أكن أرغب في أن يعتقد "إسكندر دوغان" أنني أعمل في ترجمة أشياء كالمعلومات الإرشادية، لاستعمال المنتجات والكتيبات والمنشورات وما شابه.

قال مبتسمًا بعطف وحب:

- إذًا ستفهمني، فأنت كذلك تعد فنانًا.

- كلًا، ليس إلى ذلك الحد.

- انظر! ألم يحدث وأن عانيت أثناء ترجمتك أحيانًا من أجل إيجاد أفضل صيغة وأسلوب للسرد وأبلغ كلمة تناسب السياق؟

نعم، كثيرًا ما كنت أُجري تعديلات على المشاهد الجنسية العنيفة الواردة في النص الأصلي، بطريقة لا تخدش حياء القارئ في بلادنا، لكنها في الوقت ذاته لا تقتل قدرته على الخيال، أو أن أحاول جاهدًا عدم تكرار العشرين صفة نفسها الموجودة باللغة الإنجليزية والتي تحمل المعنى نفسه تقريبًا، أو أن أتردد في وصف مشهد تعري الشخص بسبب خسارته في لعبة البوكر، مفترضًا أنه بذلك لن يستطع الجمهور المستهدف من القراءة أن يتعرف على تلك اللعبة.

إن "إسكندر" لم يكن مقصده تلك الأشياء التي قلتها، لكن هذا هو المحتوى الذي أتعامل معه أثناء ترجمتي، ماذا عساي أن أفعل؟

أكدتُ على ما تفضل به قائلًا:

- بكل تأكيد.

- دعني أوضح لك الأمر أكثر، إن أعظم عمل يمكن أن يقدمه المرء هو حياته، فمجال العمل بالنسبة للفنان: الموسيقى، الرقص، الرسم، الأدب... أيًا ما كان، فهو جناح واحد فقط من أجنحة هذا العمل، فانظر إلى حالك كيف تعاني، وتَنْحَتَ روحك كما تَنْحَتَ الصخر، واصلًا الليل بالنهار حتى تهتدي إلى لحن أو نغمة يرق لها الفؤاد، وبيت شعر ذي كلمات قوية، وجملة أكثر عمقًا، وفي

ذلك الحين يصبح الشيء الذي تظن أنك صانعه، في الحقيقة هو الذي صنعك. لكن مع الأسف سرعان ما تنسى هذه الحقيقة عندما تحصل في النهاية على ما كنت تسعى وراءه، فالفنان بطبيعته مجازف، متطاول، متعجرف، متكبر، ولذلك فإن الاحتراف في معظم المجالات، وسلامة النفس والروح لا يسيران معًا على وتيرة واحدة.

لم أجد للكلام الذي تفضل به "إسكندر دوغان" علاقة وثيقة بالموضوع، على الرغم من أنه قَيِّمٌ ومثير للاهتمام، فقلت له بطريقة شخص ذي تفكير سطحي:

- يعني.. أنك رأيت أن كتابتَك أغنية ناجحة أخرى بعد "دماء وورود" أمرًا ليس ضروريًا ولا طائل منه، لأن...

- انظر! من حسن حظي - أو سوئه - أنني كتبت كلماتِ أفضلِ أغنية وأنا في العشرين من عمري، هذه الرغبة في الكتابة كانت تحمل في طياتها إشباع الشعور بالمثالية والكمال والفردية والشهرة، لهذا السبب كان يستلزم عليَّ - بعدما وصلت لمبتغاي - أن أعيش حياة تليق بتلك الأغنية، لأنني فضلت أن أصبح الفن نفسه، وليس الفنان.

هل يجب لأي شخص عاقل أن يضِيف تعقيبًا على هذا الكلام؟! لكن لم يكن للعبد الفقير - أنا - من ملكات الثقافة والتفكير أن يصل إلى ذلك الحد، فعقبت كعادتي قائلًا:

- قياسًا على كلامك هذا، فهل "شكسبير" ارتكب خطئًا بتقديمه العديد من الأعمال الرائعة؟ فبعدما ألف مسرحيته "هاملِت"، هل كان من الأفضل أن

يتوقف ليرى ما إن كان شخصه يليق بهذا العمل أم لا، ومن ثم يترك تأليف المسرحيات؟

تنهَّد "إسكندر" ثم ابتسم ابتسامة رقيقة قائلًا:

- المسألة كلها هي أن تكون "شكسبير"، أو لا تكون.

نظرت إلى إيصال التسليم الذي لا يزال بيدي، وقلت مهمهًا بصوت منخفض:

- "دماء وورود!" ما أعجب هذا الاسم بالنسبة لمغسلة. الدم، نعم تزول بقعته بصعوبة من الملابس، إذًا فله علاقة بالمغسلة. حسنًا، يا ترى ما علاقة الورود؟

فنان يؤلف أغنية غاية في الروعة، ثم يطلق اسمها على محل تجاري! في حقيقة الأمر، كنت شغوفًا بمعرفة ما إن كان ذلك يليق بمكانة العمل الفني من عدمه، لم يبدُ السيد "إسكندر" متأثرًا كثيرًا بسؤالي، فقال وهو يعلق جاكيتي في إحدى الشماعات الخلفية من ستاند الملابس:

- إن الدماء والورود لا تختلف كثيرًا عن بعضها، فلا تنسَ أن الدماء هي التي تصبغ الورود بلونها!

الكوابيس لديها من الذوق أن لا تأتيَ لزيارتك أكثر من مرة في الليلة الواحدة في غالب الأمر، فمن إحدى الأحلام المرعبة التي تطاردني مرارًا وتكرارًا في منامي وتتسلط علي كالشياطين، هي أنني أراني أُطرد من المدرسة التي كنت أتلقى فيها تعليمًا مجانيًا في المرحلة الإعدادية (المتوسطة) والثانوية، وثانيها: أنني بسبب خطأ رسمي فادح اسْتُدْعِيتُ مجددًا لأداء الخدمة العسكرية المجيدة، التي نجحتُ في الهروب منها لسنوات، وثالثها: أنني

توترت أثناء أدائي مشهدًا في إحدى المسرحيات، ونسيت الجمل التي كنت سألقيها أمام مئات المتفرجين.

كانت ليلة تعارفي العجيب على السيد "إسكندر" حالة غير معتادة، حيث شعرت في عقلي الباطن وكأن هناك أطيافًا تتكتل فوقي وتضغط عليَّ كأشباح الليل، تلك الحالة اللاشعورية التي كانت تأتيني متكررة على فترات بعيدة، لكن بفضل ذكائي التحليلي المتطور، شخصت الكابوس الأول بضيق في النفس، والثاني بالتهاب في المعدة، والثالث بأرق عادي.

وهكذا اكتشفت ما يجب علي فعله عند ظهور تلك الحالات، فعندما استيقظت مضطربًا في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، استنشقت البخاخ كعلاج مضاد للطرد من المدرسة، وبلعت قرص مضاد للحموضة للهروب من الخدمة العسكرية، وكذلك عقار "الزانكس (Xanax)" - وهو علاج قصير المفعول للأرق والاكتئاب، من أجل نسيان ذلك الدور المسرحي، ولأنني لستُ جاهلًا بالدرجة التي أتناول فيها دواءً وأنا في حالة اللاوعي، أخذت العلاج وانتظرت عشر دقائق وبعدها تجرعت كأس وسكي، هذا يعني أنني لست أبدًا كما تقول "نرجس": إنسان من أعظم مواهبه "تجاهل المشكلات وغض الطرف عنها"؛ فها أنا شخص يسعى دائمًا لإيجاد حل لمشكلاته.

وبفضل مفعول الكحول مع "البنزوديا زيبين (Benzodiazepine)"، تلك التركيبات الكيميائية التي تعالج القلق، كنت قد نمت مستلقيًا مثل لوح الخشب حتى ظهر اليوم التالي. وبعد حمام دافئ، وفطور خفيف، وسيجارة في أول اليوم، ونوبة كحة كادت تُخرج جزءًا من رئتيَّ وتبصقه في حوض الحمام، أصبحت بعدها إنسانًا معاصرًا أُدرَجُ من جديد على قائمة الآدمية،

شخصًا متسامحًا لكنه منتقد، فضوليًا لكنه محترم، متفتحُ الفكر ضعيفُ القلب، بشوشٌ يائسٌ.

لا تزال هناك ساعات على بدء حفل "زينب" الاستعراضي، فكرت في استثمار وقت الفراغ هذا في شيء نافع مفيد، فسحبت من مكتبتي كتابًا للروائي "سعيد فائق" واسمه "مقهى الحي"، وجلست أمام الكمبيوتر. فتحت من الكتاب قصة "لا أعلم لماذا أفعل هكذا"، وهي أحب القصص إلى قلبي، ثم غرقت في التفكير: يا تُرى، هل كان يجب علي أن أترجم هذا الكتاب ترجمة معنويةً فضفاضة، أم ترجمة حرفية قاطعة؟

بينما كنت أجهد ذهني قليلًا في الإجابة على هذا السؤال الذي استعصت علي إجابته منذ ما يقرب من عشرين سنة، تفقدت رسائل بريدي الإلكتروني، ومن ثَمَّ ألقيت نظرة على مختلف منتديات التواصل الاجتماعي، فتارة أحزن على الأحداث الراهنة المؤسفة، وتارة أضحك على فيديوهات القط الظريف والطفل خفيف الظل. وأخيرًا، دخلت على موقع ألعاب أونلاين، ولعبت طاولة مع سيدٍ يظهر من صندوق معلوماته الشخصية أنه محامي من منطقة "أدرميت". هزمني 5- 0 في اللعبة، ومع ذلك لم يتوقف، بل أرسل من خلال صندوق الدردشة الصغير وابلًا من السباب والشتائم على أمي وامرأتي وماضيَّ وحاضري، ثم غادر الموقع على الفور. لم أتعجب لما حدث، فمن المفترض أنَّه كان شخصًا معاصرًا مثلي على الأقل، وهذه سمات المعاصرة!

في تلك الأثناء، كنت أفكر في كتابة مقال نقدي لاذع أهاجم فيه ضعف تراجم أهم الأعمال التركية المترجمة إلى اللغات الأجنبية، والتي لم أضيع وقتي في قراءتها من الأساس، وكذلك عدم كفاءة مترجميها وجهلهم، ومن

ثم أرسله لمجلة أدبية مرموقة أو موقع على الإنترنت. لحظتَها، وصلتْ رسالة على تليفوني المحمول؛ إنها من "دماء وورود"، كان مفادها: أن جاكيتي جاهز، وبإمكاني الذهاب في أي وقت لتسلمه.

كان "دماء وورود للغسيل والكَيِّ الجاف" مكانًا مختلفًا تمامًا في وضح النهار؛ ازدحام يملأ الأرجاء، ثلاثة عمال يقفون خلف الكاونتر، أيادٍ تُسلِّم وتَستَلم الملابس، وكانت سترات "الإيتامين" المطرزة و"الكاليكو" القطنية و"الألاباكا" الصوفية، تترامى يمينًا ويسارًا فوقهم، وقمصان "البولستر" و"الفيلافل" و"الفلانيل" الناعمة تتصارع مع بعضها مبتلة بالمياه، فهي في مرحلة العصر داخل الغسالة، وفساتين "التارتان" الكاروهات و"التافتا" الحريرية اللامعة و"الشيفون" الرقيقة تبكي دمًا من القذارة في انتظار دورها لتدخل الغسل، أما "الجورجيت" الحريري الفاخر فكان يشاهد هذا المشهد الجنوني في ضحك هستيري.

وفي وسط هذا المشهد العبثي، تفقدت عيناي "إسكندر دوغان" لا إراديًا، لكني لم أره في المكان، تعرضت لقليل من خيبة الأمل لعدم رؤيته، إلا أنني كنت أعلم أنه يجب عليَّ استقبال هذا الوضع بشكل طبيعي، فوظيفته ليست المشاركة في المغامرات الصباحية حيث صخب الحياة، وإنَّما تبدأ ليلًا ونحن نيام، حيث يتفكر في أحوال الدنيا المتقلبة، ويسعى خلف حقيقة قاطعة تضفي معنًا لوجودنا البائس الفقير، ولحظةَ الوصول إلى تلك الحقيقة يذرف دمعتين في صمتٍ، كإله رحيم تذكر أنه قَنَطَ من بني آدم منذ زمن بعيد.

قال لي أحد العمال، وكان رجلًا بدينًا بعض الشيء:

- تفضل!

عندما تنظر إلى تصرفاته وطراز ملابسه ونظارته، تُحِسُّ أنه عمل بتلك المهنة في "السوربون" بباريس، أو بجامعة "بيركلي" بكاليفورنيا، أو مكان يشبهها.

أخرجت إيصال التسليم من جيبي على عجلة، وأعطيته له. في الواقع، كانوا قد نظفوا الجاكيت وقاموا بكيه كالمسطرة، ارتديته ودفعت الحساب، وبعدها اتجهت مسرعًا في طريقي إلى "بشكطاش".

وبينما كنت مستغرقًا في التفكير في "زينب" و"نرجس" وسنوات الضياع ومستقبلي الغامض وقليلًا في "فو+ليه"، انتبهت فوجدت قدميَّ قد حملتني إلى شارع "باربازوس بولواري" الرئيسي بـ"بشكطاش"، وما إن كنت أجاهد لصعود المنحدر بخطوات واثبة - والذي كان أمرًا شاقًا علي بسبب ضيق نفسي - إذ فجأة توقف بجانبي أتوبيس عام كان يمر من أمام المحطة. نظرت إليه: (559ج)، هذا الأتوبيس يعمل على خط "روملي حصار- تقسيم"، حيث ينقل الركاب من حي "روملي حصار" - حيث يوجد الفرع الثالث لجامعة "البوسفور" - إلى ميدان "تقسيم"، الذي يقع في قلب مدينة "إسطنبول"، وهذا الخط كان مشهورًا بالازدحام في أيام شبابنا، وفجأةً قررت أن أركب، وألقيت نفسي بالأتوبيس.

لم يكن لدي لا شغل ولا مشغلة، وبما أنني كنت سأقضي بضع الساعات المتبقية في الشفقة على نفسي والتحسر على سنوات عمري، فأفضل مكان للقيام بهذا، هو الجامعة حيث إطلالة البوسفور الساحرة.

كنت أستطيع تمييز الطلاب من بين الركاب، فكان من بينهم هؤلاء الهَزْلِيُّون المهملون في واجباتهم، والذين كذبوا على أسرهم وهربوا من البيت ليقضوا الليلة كلها في الشرب عند أصدقائهم، وهناك أيضًا نماذج الطلاب المجتهدين المنتظمين، وكانوا يراجعون ملاحظات دروسهم في الأوتوبيس قبل الذهاب إلى الجامعة. نعم، لا يجب الحكم على المظاهر، فهي خداعة، لكنَّ الجدير بالذكر أنَّ أنبغ الطلاب يخرجون من تلك المجموعة الأولى، على الرغم من أن متوسط درجات المجموعة الثانية أعلى منهم. حسنًا أيهما كان ينجح في حياته؟ بالطبع أبناء الأثرياء؛ يعني لا هؤلاء ولا أولئك.

وهكذا نزلت من الأتوبيس في المحطة المقابلة للفرع الجنوبي الثالث للجامعة، مع جيل المستقبل الذي سيخرج منه المهندسون والمفكرون والمديرون والتجار والحرفيون والفنانون ومدمنو الكحول وبائعو المخدرات والكوكايين، والذين لم يكونوا في معظمهم قد ولدوا عندما تخرجت أنا.

إن جميع المارة من الطرق المؤدية لمؤسسات التعليم العالي في بلدنا، يستطيعون أن يفهموا بسهولة كيف تكرم دولتنا دور العلم ورياض المعرفة، ذلك بمجرد النظر لرجال الأمن الخاص المتكدسين على أبواب الجامعات، والشرطةُ وقواتُ التدخل السريع وحتى قوات الشرطة العسكرية موجودة أيضًا، أي أن الجامعة التي يُفترض أنها قلعة الفكر الحر، هي محصنة في بلادنا بالفعل كالقلعة بالمعنى الحرفي للكلمة. وبعد كل ذلك عندما تسأل المسؤولين: "لماذا لا يذكر اسمُ أيٍّ من تلك الجامعات في الأوساط الأكاديمية الدولية؟"، لا يكون هناك رد يبرر ذلك غير "حقد مراكز القوى الغربية"، كما أعرب كبار المسؤولين لمرات عديدة وفي مناسبات مختلفة.

على أية حال، كان الأمن أمام أبواب الجامعة أقل من المعتاد، فاغتنمت تلك الفرصة، ونفشت ريشي وكأني عضو من أعضاء هيئة التدريس، ودخلت الأراضي المقدسة مع الأفراد المنتحلين شخصية الطلاب هم أيضًا، دون حدوث أية مشكلة.

"البوسفور" تلك المعجزة الزرقاء زرقة السماء، والذي يفصل قارة آسيا عن أوروبا ببهائه وعظمته، يستقبلكم عند أعلى المنحدر المتجه إلى قلب الحرم الجامعي ويقول لكم: "مرحبًا"، وعندما تتقدمون في السير قليلًا، تجدون الطرق المنعطفة المرصوفة الصخور المتعرجة، تحيطها الأشجار من الجانبين، ثم الحدائق الممتدة على طول تلك الطرقات، والطلاب الشباب يفترشون الحشائش؛ فمنهم من يقرأ، ومنهم من ينام، ومنهم من يتبادل الحديث والضحكات مع أصدقائه، وهناك أيضًا المباني الأثرية التي تفوح بعبق التاريخ وتحيط المكان من جميع الأرجاء، وفي داخل تلك المباني قاعات المحاضرات والمعامل ومكاتب الأساتذة وأماكن الترفيه والنوادي والكافتيريات وعيادة الجامعة في الناحية الخلفية، وأمام العيادة يوجد الممشى المتجه صوب قلعة "روملي حصار" - تلك التي بناها محمد الفاتح - وبعد مئات الامتار يقابلكم الباب الأثري القديم، وبعدما تتجاوزونه تكون في استقبالكم الطبيعة الخلابة بأشجارها الكثيفة وأزهارها الملونة والسناجب التي تقفز من غصن للآخر فوق أشجار الصنوبر التي تسمع حفيف أوراقها، أما البحر فيلاعب أنفك بنفحاته ونسائمه؛ فكل نسمة عليل تستنشقها، وكل ما حولكم باختصار يقول شيئًا واحدًا فقط: "نرجس".

ساقتني قدماي إلى كافتيريا "أورطه"، التي تقع في الطابق الأرضي من المبني المقابل للساحة المفروشة بالحشائش الخضراء، حيث قضيت أغلب أيام دراستي هناك. هنا، الكلية التي كنت أحكي لأصدقائي بكل فخر واعتزاز أنني تخرجت فيها.

كانت كافتيريا "سوسييته" المكان الآخر الذي يتجمع فيه الطلاب، يشربون الشاي ويحتسون القهوة ويأكلون التوست والبسكويت، وإذا لزم ذكر الفروق بينهما، فكان يأتي إلى كافتيريا "سوسييته" هؤلاء الطلاب المنتظمون المهندمون – وبصراحة - الأغنياء.

كافتيريا "أورطه" ملتقى المفكرين، و"سوسييته" ملتقى المحترفين المجدين؛ الأولى مكان السياسيين، أما الثانية فالبرجماتيون العمليون. "أورطه" تمثل شخصية "جون لينون" المغني وعازف الجيتار البريطاني لفرقة "البيتلز" وكان ثوريًا، أما "الطبقة المخملية" فتمثل شخصية "بول مكارتني" المغني بالفرقة نفسها لكنه كان ثريًا. كافتيريا "أورطه" يُنزل إليها، أما "سوسييته" فيُصعد لها.

كان كلا الطرفين يقلل من الآخر وينظر إليه شزرًا، ولا يعلمان أن كلًا منهما سيؤول به الحال ليصبح عجلة من عجلات تلك الماكينة نفسها في مستقبل لا يعد بالبعيد كثيرًا، ذلك بعدما تُختلس فترة الشباب من أيديهم دون الشبع منها. كانوا ينادوننا بالأغبياء، ونحن نناديهم بالسمجاء، لكنَّ هذا من باب المزحة فيما بيننا بكل تأكيد، وكنا نقضي يومنا نحن أيضًا دون أن نعاني من ضائقة مادية، ونمضي كنسيج واحد، فجميعنا من طينة واحدة في نهاية الأمر.

إلا إنني عندما خطوت أول خطوة نحو كافتيريا "أورطه"، شعرت أن تلك الفروق لم تعد سارية ولا يعتد بها، ففي حين أن جدرانها كانت تمتلئ باللافتات والمنشورات السياسية المختلفة سابقًا، تتزاحم عليها الآن الملصقات الإعلانية وشعارات الدعاية التي تضيئ المكان كله، وحتى الطاولات التي كان يتجمع حولها أحيانًا نحو عشرين شخصًا، استُبدلت بطاولات أصغر في الحجم، ووضع حولها مقاعد - لا تدري ما فائدتها - دائريةٌ صغيرة ذات ذراعين يحجزان الإنسان ويمنعانه من التحدث مع من يجلس بجانبه. وأكثر شيء لفت انتباهي بالطبع، قلة دخان السجائر؛ ذلك أن قانون مكافحة التدخين كان يفرض نفسه بجدارة هنا، حيث إنها اللائحة القانونية الوحيدة التي تطبق بحزم في بلادنا.

تعكر مزاجي قليلًا، فخرجت مرة أخرى متراجعًا عن فكرة تناول وجبة خفيفة في ذلك المكان، وأخذت جولة في الحرم الجامعي مثلَ متسكع لا شغلة له. دخلت المباني وألقيت نظرة على قاعات المحاضرات، وكذلك ما كُتب من ملاحظات في اللوحات المعلقة على الجدران، ثم أخذت أتابع الطلاب الذين يطوفون في الأروقة. كان كل شيء رأيته مألوفًا لي من ناحية، وبعيدًا كل البعد عني من ناحية أخرى، حينها شعرت أنه لا بد وأن أتقبَّل الحقيقة الأليمة؛ إنني أصبحت لا أنتمي لهذا المكان، فأنا أجنبي غريب عنه، بالضبط كما هو حالي بالنسبة لـ"نرجس".

حينئذٍ، وجدت نفسي أتحسر على السنوات التي ضاعت من عمري هباءً، وأعاتب نفسي لأنني لم أُولِ دروسي عنايةً وقتها، فلربما كنت سأحضِّر الدراسات العليا خارج البلاد، ثم أعود إلى الجامعة لأعمل أستاذًا بها، وكأنني

كنت مصابًا بالنحس الذي تسبب في تضييعي لكل تلك السنوات مع هؤلاء المتسكعين، الذين أضاعوا أغلب وقتهم في الجلوس في كافتيريا "أورطه". لعلي إذا ذاكرت، لكان لي مكان الآن بين أعضاء هيئة التدريس، وأمي وابنتي تفتخران بي، وربما أيضًا لم تكن "نرجس" طُلقت مني، ولَمَا كنت سأرى تلك الكوابيس والخرافات في منامي؛ باختصارٍ، لكنت سعيدًا الآن.

وبينما كنت أفكر في تلك الأشياء، خطر ببالي صديقي "صفوت" الذي حقق بالفعل أحلامي تلك. تخرج هو كذلك في جامعة "البوسفور"، لكنَّ تعارفنا كان قبل ذلك بكثير، حيث يرجع لسنوات المدرسة الإعدادية والثانوية. كان "صفوت" يشارك في المبادرات والأنشطة والفعاليات الفنية لكي يحافظ على وزنه في الجامعة، حتى أنه التحق لمدة قصيرة معي بفرقة مسرح "طلائع الشباب"، لكن سرعان ما تركها، وحول وجهته نحو اهتمامات وأمور أخرى أكثر فائدة دون أن يضيع المزيد من الوقت، بالطبع لأنه شخص عاقل ومسؤول، فبعدما أنهى دراسة الاقتصاد، سافر إلى أمريكا ليكمل رسالة الدكتوراه هناك، وبعدها عاد كالباشاوات ليعمل أستاذًا مساعدًا بقسم العلاقات الدولية بجامعة "البوسفور". كنت قد التقيته آخر مرة قبل خمسٍ أو ست سنوات، وسمعت بعدها بفترة أنه تزوج ورُزق بطفلة، لكن لم يأتِني خبر بأنه طلق أو حاول الانتحار.

أخرجت التليفون من جيبي بسرعة، وتفقدته لأرى هل يوجد رقمه لدي أم لا. نظرت، إنه موجود بالفعل. ضغطت على زر الاتصال، وأخيرًا رد علي بعدما حاولت الاتصال به ثلاث أو أربع مرات، وبعدما تجاوزنا فقرة مرحبًا والسلامات، أخبرته بوجودي في الجامعة، فقال لي إنه خرج للتو من

المحاضرة وهو في طريقه إلى مطعم "كيندي لودج" ذي الإطلالة الساحرة على البوسفور، وذكَّرَنِي بأنه يقع في الجهة اليمنى قبل النزول من منحدر "آشيان"، وأضاف أن أساتذة الجامعة يتناولون طعامهم وقت الاستراحة، واقترح عليَّ أن انضم إليهم اليوم. أعربت له عن مدى سعادتي من أن مطعم "كيندي لودج" لا يزال في المكان نفسه ولم يغير نشاطه، ثم قبلت دعوته الكريمة.

الجو كان مائلًا للبرودة، وعلى الرغم من ذلك وجدت "صفوت" قد جلس على إحدى الطاولات بالحديقة، وحقًا كانت تبدو عليه السعادة لرؤيتي مرة أخرى بعد طيلة غياب. عانقته ثم سحب مقعدًا ودعاني للجلوس على الطاولة، وأخذ يعدد لي ما بقائمة طعام اليوم، وأصر كثيرًا على إحضاره الطعام بنفسه. أبديت اعتراضي بطريقة "لا يمكن أن أسمح بشيء كهذا، اسمح لي يا سيدي!"، إلا أنه لم يبالِ لاعتراضاتي تلك ونفذ ما برأسه. وضع أمامي طبق مكرونة "اللازنيا" والسلطة بجانبه، ثم جلس في الجهة المقابلة لي، وسألني وهو يضرب بلطف على ذراعي قائلًا:

- قل لي كيف حالك منذ آخر لقاء لنا؟ أي رياح جلبتك إلى هنا؟ احكِ لي.

- كما تعلم ابنتي "زينب"... لديها رقص استعراضي ستقدمه هنا اليوم، فأتيت لمشاهدته.

- واه! ما شاء الله ما شاء الله! وأنا أيضًا رزقت بطفلة، تعلم هذا، أليس كذلك؟

حركت رأسي مصدقًا على كلامه:

- لكني لا أتذكر اسمها.

قال وهو منهمك في أكل فخذ الفرخة التي أمامه:

- اسمها "أيجه".

كان "صفوت" ذا شهية مفتوحة دائمًا.

- "إيجه" هي فرحة عمري، أتمَّت الرابعة من عمرها يوم السبت الماضي، تحبني كثيرًا ولا تريدني أن أذهب من أمام عينيها ولو للحظة، بالطبع لن ترغب في رؤية وجهي بعد عشر سنوات، لكن هذا موضوع آخر.

- تعلم! إنَّ لدى طفلتي ثلاث صديقات أسماؤهن "أيجه": "أدا، ردا، أفا، دنيز، سلين، أيجه..." على هذا المنوال.

- واه! ما أجملكما أبًا وابنةً! أراك تهتم بأمورها، وتتابع صديقاتها عن قرب.

- جميعها أسماء قصيرة واضحة، وليس بها تلك الحروف الثقيلة الخاصة باللغة التركية مثل: (I / إي، Ç/ تش، Ş/ ش)، إنه لأمر عجيب، ألا تظن ذلك؟

أعتقد أن "صفوت" لم يتحمل على نفسه أن يستفسر بـ"لماذا" ويرد على سؤالي بسؤال؛ ذلك أننا كنا جميعًا في بداية شبابنا عمالقة في المناقشة، ووحوشَ جدال، فرفع رأسه من طبق الطعام، ونظر إليَّ بعينين متلألئتين يتطاير منهما الغيظ، ثم أجابني أخيرًا:

- اسم "زينب" أيضًا ليست به تلك الحروف الثقيلة.

- أنت محق، نعم لا توجد؛ ذلك لأننا نعتقد جميعًا أنهم سيضطرون في يوم ما للفرار إلى أحدى الدول الغربية، ولا نريد لهم فوق ذلك أن يتعرضوا لمضايقات بسبب أسمائهم.

- وربما أيضًا يذهبون إلى تلك البلاد الغربية بصورة طبيعية دون هروب أو ما شابه، فكرة التغرب الجبري الاضطراري هذه، كانت تأتي على ذهني أنا أيضًا، وتراودني أحيانًا، فآسف قليلًا، لكن بعدها أفكر أنه ليس بوسعي فعل شيء، فمن يرِد الذهاب فليذهب ومن يرِد البقاء فليبقَ. إن ما يقع على عاتقي هو أن أبذل قصارى جهدي في سبيل تربيتها تربية حسنة، لكن لا طاقة لديَّ لتحمل تلك العادات القديمة الموروثة من تصرفٍ بطفولة مع الطفل وما شابه، فأنا شخص واضح، أبين لها الطريق بكل صراحة، الخطأ خطأ والصواب صواب، وأحاول أن أشكل في وعيها قدوة حسنة، فإني على يقين أن كل ما أفعله الآن لن يذهب أدراج الرياح، بل بالعكس سيرسخ في وجدانها، وسوف تعيه إن لم يكن اليوم ففي الغد، ففي النهاية الأطفال يكبرون ناظرين إلينا.

- كلامك صحيح، لكنهم في أغلب الأحيان ينظرون إلينا في الوقت الذي لا ننظر نحن إليهم ونرعاهم.

رفع "صفوت" رأسه من طبق الطعام، وزغر لي بنظرة المعترض على الكلام:

- أراك في حالة جيدة.

- شكرًا، وأنت أيضًا تبدو كذلك.

- كيف حال "نرجس"؟ هل تتقابلان؟

- بالطبع بالطبع، فقط عندما يكون هناك أمر متعلق بابنتنا، غير ذلك فلا.

- حزنت كثيرًا لطلاقكما، فلم أفكر مثل الآخرين قطُّ أن في هذا خيرًا لكما، في رأيي كان عليكما ألا تنفصلا.

وقفت اللقمة في حلقي، فقد أثار مشاعري حديثُه ذلك المليء بالشعور بالمسؤولية الممزوجة بالصداقة، في حين أنه كان بإمكاننا التحدث في موضوعات أخرى عادية دون المساس بتلك التي تأتي على الجرح. كم كان الإنسان يتقبل أمورًا كهذه بحسن نية وطيب خاطر، وبقولِ: "إنه من النادر أن تجد شخصًا يشاطرك همومك"، فشعرت بدفء في داخلي وصدق في كلامه، لكن مع الأسف، لم يُكتب لهذه المشاعر المليئة بالحب أن تستمر طويلًا؛ ذلك أنني أحسستُ بضيق شديد داخلي لا يوصف، عندما انتابني شك في أن كلام "صفوت" هذا نابع من الشفقة أكثرَ منه حبًا وإخلاصًا، لكن ألستُ أنا ذلك الشخص الذي يقول دائمًا إنه يشفق قليلًا على جميع أحبابه؟ ربما كنت أكذب على نفسي والجميع، وربما لم أكن أستحق أي معروف يصنعه لي أحد، فقلت محاولًا تغيير الموضوع:

- رأيت "فوليه" بالأمس، تلك المرأة التي كانت ضمن فرقة المسرح الذي كنا مشتركين به في حي "أورطه كوي".

- هل تقصد جماعة "بولنت"؟ "فوليه" التي كان حبيبها مهندسًا؟ تلك المرأة الشقراء...

- لا، إن التي تقصدها امرأة أخرى، "سيلدا" غالبًا...

أقول غالبًا، لكني في الأصل كنت أعلم اسم تلك المرأة جيدًا كأي رجل، حيث كانت أكثر امرأة فاتنة الجمال وجذابة في المسرح.

- "فوليه" تلك المرأة السمراء التي كانت مغرمة بي.

هل صرحتُ بشيء سخيف كهذا، حتى أثبت له أنني لستُ بحاجة للشفقة من أحد؟! سألني "صفوت" رافعًا حاجبه:

- وهل حدث شيء بينكما؟

فشخصية "صفوت" كان بها جانب أخلاقي ولو بالبسيط، قلت:

- كلا، لم أكن أعرف عن هذا الأمر من الأساس، هي من قالت لي بالأمس إنها كانت عاشقة لي في ذلك الحين.

حك "صفوت" رأسه بطريقة شخص يحاول تذكر شيء:

- اممم.. لم أستطع تذكرها. في الواقع، لم تبقَ في ذهني ذكريات كثيرة متعلقة بفرقة المسرح غير "بولنت" و"تولاي"، ورجل طويل القامة عازف جيتار.. وكذلك "الترميناتور - المدمر". هل أطلب لك الحلوى؟

- ماذا قلت؟

- هناك سوفليه بالشوكولاتة لذيذ جدًا.

- لا أقصد ذلك، من أين جئت "بالترميناتور - المدمر"؟

- ألا تتذكر؟! كان موجودًا، ذلك المريض النفسي لا أدري اسمه "عبدُل"، شيء كهذا.

- نعم، حدثتني عنه "فوليه" بالأمس، قالت إنه التحق بفرقة المسرح بعدما تركتها أنا، لكنني لم أتعرف عليه قط، فمن أين تعرفه أنت؟

- هاا! تذكرت، أنت لم تكن موجودًا في تلك الأعمال المسرحية. بعدما أُغلقت دار السينما، التقينا لفترة في منزل أحد ممثلي المسرح، وكان يقع ناحية حي "أورطه كوي" إن لم تخُنني الذاكرة.

- نعم، لم أكن موجودًا في تلك الفترة.

شعرت بالغضب بمجرد سماعي هذا الكلام، وقلت له:

- بعدما أغلقت دار السينما لم يتصل أحد بي ولا مرة، ولم أعلم أنهم دعوك لمشاركتهم تلك المسرحيات.

- هو من دعاني... "الترميناتور – المدمر".

- وكيف حدث ذلك؟

- كان قد جاء إلى هنا، إلى الجامعة وتعارفنا في الكافتيريا. سأطلب سوفليه لنفسي، هل أنت متأكد أنك لا تريد شيئًا؟

أشرت بيدي إشارة مفادها أنني لا أريد، فكان مزاجي قد تعكر، وشعرت أنني تعرضت لخيانة؛ لماذا لم يخبرني "صفوت" بهذا الأمر؟ وربما بفعلته هذه، عرقل مسيرتي نحو التمثيل وصعودي سلم النجاح في هذا المجال، أي نعم،

لم تكن هيئتي ولا ملامح وجهي مناسبين لشخصية "الترميناتور" كثيرًا، لكن كان بإمكاني تجسيد دور أحد الفيزيائيين في مسرحية "الفزيائيون" لكاتبها "دورنمات"، لأنني كنت موهوبًا للغاية؛ الخبير هو من كان ليرى ذلك في مسرحياتي الارتجالية.

عاد "صفوت" إلى الطاولة التي كنا نجلس عليها وبيده صينية صغيرة عليها حلوى السوفليه بجانب فنجانَيْ قهوة، ووضع أمامي واحدًا.

- شكرًا.

قال صفوت ضاحكًا:

- تذكرت الآن! أحد أفراد المسرح ذلك أتى أساسًا للبحث عنك.

- تقصد من؟ "عبدُل"؟

هز رأسه مصدقًا على كلامي، ثم قال:

- أخذ يسأل عنك في كافتيريا "أورطه" وهكذا تعارفنا، وحكى لي عن وضع فرقة المسرح، وهكذا عرفتُ بالأمر.

بدأ الأمر يزداد غرابة شيئًا فشيئًا.

- حسنًا ولماذا كان يسأل عني؟

- في رأيي، حتي يجمع في صفه مؤيدين لفكره، فهو لم يكن محبوبًا كثيرًا في وسط الفرقة، وكان يريد أن يزيد عدد من هم على شاكلته.

- حسنًا، لماذا لم تخبرني أنت؟

- أتذكر أنني ذهبت مرتين أو ثلاثًا في المجمل، وبعدها شعرت أنه لا طائل من مشاركتهم، فمللت وتركتها، ونسيت إخبارك بعدها، وأغلب الظن أنه رحل وترك الفرقة أيضًا.

- أتعلم أن "عبدُل" قد قُتل؟

قال "صفوت" وهو يأكل الحلوى بلا مبالاة:

- ليكن مثواه الجنة!

لم يكن هناك معنىً لإطالة الحديث أكثر من ذلك، فصديقي بعيدٌ عن أدنى شعور بالندم وتأنيب الضمير، وما إن انتهينا من شرب القهوة مع سيجارتين، تفقَّد ساعته، فسألته:

- هل لديك محاضرة؟

- بعد عشر دقائق، ماذا ستفعل أنت؟

- لا أعلم، ربما أتنزه قليلًا، سأذهب إلى حي "روملى حصار"... حفل "زينب" سيكون في السابعة. لو لديك متسع من الوقت، تفضل شرفنا بالحضور ومنه تكون قد رأيت "نرجس" أيضًا.

- كنت أود المجيء كثيرًا، لكن لدينا نحن أيضًا برنامج في المساء.

وبعد خمس دقائق، كنا قد أنهينا فقرة السلامات الرسمية من "لا تضع المسافات بيننا.. ولا تطل الغياب" وما شابه، ثم سلك كل منا طريقه، هو إلى قاعة المحاضرة ليعلِّم أنبغ عقول تركيا، وأنا إلى حي "روملي حصار" لأشرب كأسين بيرة.

أخذت أحدث نفسي نادمًا: كان من الممكن أن يصبح كل شيء مختلفًا تمامًا عمَّا هو عليه الآن، ليتني كنت هناك ولم أكن هنا! ليتني لو نظرت لهذه الناحية وليست تلك! ليتني حككت ظهري بيدي اليمني وليست اليسرى! يا ليتني تفوهت بهذه الكلمة وليست تلك! كم كانت شباك القدر قاسية، منسوجة بحبال ضعيفة فوق ما تتخيل!

والآن تستطيعون أن تميزوا بسهولة أعين المرأة الكارهة؛ إنهما عينان كالسكين الذي يفلق البحر شطرين، كالبيوت التي قُذفت بالقنابل، والزهور المفترسة آكلة اللحوم، والشلالات الجارفة، وفي أكثر لحظاتها شفقة تكون كعيني بئرًا جافة.

وبينما كنت جالسًا مع "نرجس" جنبًا إلى جنب في مسرح الجامعة، منتظرين صعود "زينب" على خشبة المسرح، إذ نظرت زوجتي السابقة إليَّ نظراتٍ معدومةِ الشفقة، وقالت:

- هل أنت سكران؟

- لا، فقط بضع من كؤوس البيرة، ليس هناك شيء يستدعي القلق.

- ماذا عساي أن أقول لكَ! لم نقل لك انتظر يومًا بأكمله بلا شرب، بل بضع ساعات فقط، حتى انتهاء حفل ابنتنا على الأقل.

بصراحةٍ، كنت لا أزال خائفًا منها قليلًا، فعندما تنزعج ويثار غضبها، لا تستطيع أن تتوقع ما يمكن أن تفعله. أتذكر قبل سنوات أنها كانت أمام كابينة التليفون، تنتظر دورها لإجراء مكالمة، وكان هناك رجل ثرثار قد شغل التليفون لمدة عشر دقائق، وعندما نبهته تطاول عليها وردَّ المتعجرفُ عليها بوحشية كالدب، فلم تتحمل وركلت باب الكابينة الأكورديون وحطمته على رأسه، لا أزال أتذكر تلك الحادثة وكأنني رأيتها بالأمس.

فسَّرت "نرجس" هذه الحالة النفسية التي تشعر بها بـ"الدوغة والغثيان"، فقلت محاولًا امتصاص غضبها وتهدئة الموقف:

- أقول اثنين أو ثلاث كؤوس بيرة.. فضلًا عن أنك تعلمين أنني لا أشرب عندما تكون "زينب" عندي بالبيت.

- نعم، قبل جملتين كانت بضع كؤوس، وأصبحت اثنتين أو ثلاثةً في ثوانٍ معدودة.

- إن هذه الـ"ثلاث" ضمن تلك الـ"بضع"، كما أن الفراق أحيانًا يكون علامة على الحب!

شُفي غليلي بعدما ركزت لها على تلك النقطة الرائعة. أطفئت أنوار القاعة وأضيئت أنوار المسرح، وبدأ استعراض الصغار بعزف موسيقيٍّ، وكنا أنا و"نرجس" ننتظر دور "زينب" وبأيدينا التليفونات على وضع استعداد

لتسجيل مشهدها فيديو، وكان جيل المستقبل الفني يقدم استعراضات مبهرة للرقص الحديث والكلاسيكي واحدة تلو الأخرى. وعلى الرغم من ظهور بعض الأخطاء البسيطة من حين لآخر، فإن أولياء الأمور الذين تعج القاعة بهم، كانوا يشجعونهم بتصفيق حار، وبعد مرور نصف ساعة تقريبًا، بدأ استعراض الفلامنكو على أنغام موسيقى إسبانية، وأثناء العرض توقفت إحدى الفتيات الراقصات فجأة، وأخذت تقول أشياء مشيرة بإصبعها نحو مكانٍ خلفَ المسرح. على إثرها قطع الأطفال رقصهم الواحد تلو الآخر، وتزاحموا عند الجهة التي أشارت الطفلة نحوها، فصعد أحد الأساتذة على المسرح ليتدخل ويضبط الأمر.

ألقى فتىً صغير بنفسه من أعلى خشبة المسرح، وبين لحظة وأخرى كان يقوم مجموعة أخرى بالقفز خلفه.

قبضت "نرجس" على ذراعي قائلة:

- هناك شيء يحدث!

ثم قفزت وصرخت:

- أوقفوا! أوقفوا الموسيقي!

وفي دقيقة واحدة، كان صوت الضجيج والصراخ قد علا على صوت الموسيقى، وقفز الجميع من مكانه وأخذوا يتلفتون يمينًا ويسارًا، حينئذٍ سُمع نداءان متعاقبان وَضَّحَا حقيقة ما يحدث: "دخان! حريق!".

هَلَعٌ وفَزَعٌ يَعُمَّانِ الأرجاء؛ الأطفال الواقفون على خشبة المسرح يقفزون للأسفل، والشبان يقتحمون المسرح محاولين إنقاذ الصغار، وقسم آخر يهرع إلى باب الخروج.

أمسكت "نرجس" من ساقها بينما كانت تحاول التقدم باتجاه المسرح قفزًا على المقاعد الأمامية:

- انتظري! اذهبي أنتِ إلى باب الخروج وقفي هناك، فمن الممكن أن يكون أحدهم قد أخذ "زينب" وأنقذها، أو خرجت من نفسها دون أن نلحظها، وسأصعد أنا المسرح.

في البداية نظرت إليَّ وكأنها ستعترض على كلامي، لكن سرعان ما فهمت أن ما أقوله هو عين الصواب، فقالت والدمع في عينيها:

- أسرع، أتوسل إليك! لتجد ابنتي ولتحضرها لي!

- سأجدها، لا تقلقي.

كنت أشعر بتخدير وخمول يسريان من قفاي متسللين إلى رأسي، لكني بدأت اختراق الزحام محاولًا التماسك والحفاظ على توازني قدر المستطاع. في ذلك الحين، كان الأساتذة يصيحون بتعليمات لا طائل منها: "التزموا الهدوء!"، "لا تتقدموا نحو المسرح!"، وبعد مدة مرت علينا كأنها قرن، نجحت أخيرًا في تسلق خشبة المسرح اللعين.

كان الحاضرون يتبادلون الصيحات، والدخان المنبعث من الجهة الخلفية يغيم على المسرح، وفي أثناء بحثي عن "زينب"، رأيت "شبنم دميرتشيفي"

بين مجموعة أطفال كانوا يُنْزَلُونَ يدًا بيد على السلم، وفي مقدمتهم أستاذ، جريت نحوها بسرعة وأمسكتها من كتفيها، كان وجه الفتاة قد اصفر من الخوف والهلع، فسألتها:

- أين "زينب"؟

فأشارت بإصبعها ناحية الرواق الذي يقع على يسار المسرح، وقالت:

- في غرفة الزينة.

ألقيت بنفسي في الرواق دافعًا كلَّ من يأتي أمامي بكل ما أوتيت من قوة. كان في الرواق عدد من الأساتذة قد جمعوا الأطفال أمامهم محاولين إخراجهم من هناك، وظلوا ينصحونني بالرجوع. إن رأسي يدور، ووجهي يتوهج من الحريق، وكلما تقدمت كان الدخان يزداد كثافة والتنفس صعوبة، وفي نهاية الرواق، رأيت النيران تلتهم بيانو. في تلك اللحظة، بدأت أعداد المارين من جانبي تتضاءل بشدة، ورأيت أسلاكًا متناثرة يمينًا ويسارًا، وصناديقَ وأكوام قماش وأزياء، ومجموعة أطفال يصرخون وينوحون متكدسين أمام الحجرة المتبقية خلف النيران.

بحثت عيناي عن ابنتي فيما بينهم، لكن لم تستطع تمييزها وسط الدخان. بقيت بلا حيلة مكتوف الأيدي، واستلزم الأمر عليَّ أن أقفز من فوق النار، ولكي أقفز قفزة قوية عالية قدر المستطاع، أخذت أستعد وأستعد... وقبل الانطلاق بلحظة واحدة تلقيت وكزة في ظهري، على إثرها سقطت أرضًا، أخذت أتطاير ثم وقعت وصُدِمَت رأسي بالبيانو. بعدها حاولت القيام من مكاني، لكني لم أستطع تحريك جسدي شبرًا واحدًا، استطعت فقط وضع

يدي على رأسي، فرأيت دمًا على أصابعي، أخذت نفسًا عميقًا من ذلك الدخان الخانق، وبينما كنت أشاهد النيران قد بدأت تخمد وتتحول رمادًا، هممت بكلمات الوداع: "سامحيني...!".

3

تذكرني بأيام المراهقة

Smells Like Teen Spirit

أحاول فتح عينَيَّ وأنا أرقد في مكان ما: ظلام حالك، وبقع بيضاء صغيرة بداخله، في الجو نسائم رقيقة، وأشعر بحشائشَ مبتلةٍ بالندى تحت يدَي، رئتاي مفتوحتان، وجسمي نشط قوي، الجنة؟ أقوم بإجراء محاسبة قصيرة.. لا، مستحيل! ومن الناحية الأخرى، فلا توجد حولي أية أمارة تدل على أنني في النار، لكن هل يجب علي - كتدبير احتياطي - أن أنطق بالشهادة؟ أعلم أن

المؤمنين لو فعلوا ذلك قبل الموت، فإنهم سيدخلون الجنة عاجلًا أم آجلًا، بعد أن يتطهروا من ذنوبهم بالطبع، لكن ربما أنا في المكان الذي سيُحشر فيه الناس يوم القيامة؛ أي أن جسدي في القبر، وروحي فوق الحشائش المبتلة، تنتظر قيام الساعة.

أعصر ذاكرتي محاولًا تذكر أيًا من معلوماتي الدينية القليلة، أتذكر شيئًا يقول إن الزمن ما بين الموت، ويوم القيامة سيمر على المؤمنين كلمح البصر. اممم.. هذا شيء غير مبشِّر، فمنذ خمس دقائق وأنا على هذه الحالة، لو أنني لست في الجنة، فهذا يعني أنني سأبقَى هنا في هذا المكان لوقتٍ طويل، هل سيحتجزني الملكان منكر ونكير هنا للحساب؟ وهل يبدأ عذاب القبر بهذه الأسئلة المعقدة المستعصية؟ إنه لأمر مخجل ومعيب بالنسبة لشخص مثلي يفكر دائمًا بعقلانية أن يسأل مثل تلك الأسئلة، لكن ليس في الإمكان شيء لأفعله، فالإنسان عندما يموت ينجذب نحو التفكير في قوانين جاذبية السماء أكثر من قوانين جاذبية الأرض.

عليَّ تقبل الأمر الواقع، فليست لديَّ أفكار ولا معلومات كافية عن هذه الناحية، فأفضل شيء الآن هو التفكير في العالم الآخر، ذلك المكان الذي يسير بقوانين الطبيعة، والمليء بخطايا الإنسان من الدماء والضغائن والكراهية والآلام والأوجاع. كان عليَّ أن أكتب وصية، مع أنني لم يكن لديَّ ما أوِّرثه، لكنني حزنت لأنني أضعت فرصة قول كلمة أخيرة للدنيا، فيا ليتني كنت قد فكرت في أشياء لتُكتب على شاهد قبري: "إلى اللقاء قريبًا" أو شيء ما مضحك! لكن لا، لم أكن لأرغب في أن ترى "زينب" شيئًا كهذا، "زينب"! هل نجت؟ أنهض مسرعًا من المكان الذي أرقد به، وأنظر حولي.

أنا وسط ساحة خضراء في اتساع ملعب كرة القدم تقريبًا، لكنها دائرية ومنقطعة عن الطرق، أعرف هذا المكان وكذلك المباني المحيطة من حوله؛ إنني في جامعة "البوسفور" بعينها. أعود إلى وعيي، وأكتشف أن الظلمة التي رأيتها هي السماء، والبقع البيضاء هي النجوم التي تعرفونها، وعلى بعد عشرات الامتار مبنى برج الساعة الذي يوجد به المسرح، أجري بسرعة وأحاول فتح الباب، إنه مقفل، ولا يوجد في الأرجاء أحد سواي، لم أرَ أثرًا للحريق، ماذا يحدث؟ هل أنا في متاهة؟ هل هذه مزحة إلهية؟ هل عذاب القبر؟

تراودني فكرة أخرى: لم أمُت، أنا فقط في غيبوبة، وأرى حلمًا... لكنه حلم واقعي أكثر من اللازم، بغض النظر عن عناصره السريالية غير الواقعية هذه، أحاول الطيران ولا أستطيع، أقرص نفسي فأتألم، ظللتُ أرتعد وأشعر بالبرد القارص؛ هذا يعني أنه عندما نكون في غيبوبة يحدث أشياء كهذه، لا أشتكي كثيرًا من وضعي هذا، لكن من المؤكد أن الوضع سيئ بالنسبة للآخرين. أتخيل نفسي نائمًا في المستشفى، و"زينب" وأمي و"نرجس" يجلسن بجانبي ينتظرنَنِي لأستيقظ، فأشعر بالحزن، وبعدها أتخيل أن لا أحد منهم بجانبي؛ ربما فقط تأتي الممرضة المناوبة كل ساعة لتتفقد حالتي، فأشعر بحزن أكبر. تُرى، هل ستتمكن روحي من القيام برحلة الخروج من جسدي والسفر خارجه؟ أغلق عينيَّ، أشد جسمي وأتمطى، وأركز ذهني على سريري بالمستشفى، والنتيجة، صوت غريب منخفض.

إنني جائع! هل يا تُرى، يبخلون علي بالمحلول؟ وما يدريني؟ ربما أنا في غرفة العمليات، وإذا خرجت حيًا أرزق، سيبدؤون في تغذيتي على الفور، إنه

تفكير منطقي. لكن، هذا الوضع لا يمنعني من تخيل سندويتشات الهمبرجر والسجق وهي تطير أمام عينيَّ، أهرول مسرعًا نحو كافتيريا "أورطه"... إنها مغلقة، والحال نفسه بالنسبة لـ"سوسييته"، أجلس بلا حيلة على أحد المقاعد الخشبية المطلة على البوسفور.. عقلي مشوش!

حينئذٍ، أسمع صوت نغششة قادم من خلف الأشجار، أقوم وأمشي باتجاه الصوت، فإذا بي أرى زوجين حبيبين يتبادلان القبلات. يا تُرى، هل سيكون تصرفًا معيبًا وهمجيًا لو داهمتهما وقطعت عليهما اللحظة؟ بالتفكير في الظروف المحيطة بنا الآن، فمن المحتمل لا، ومع ذلك لا أجرؤ على تلك الفعلة، فقط أمر من جانبهما وأبتعد. حسنًا، كيف نجح هذا الثنائي في الوقوع معًا على هذه الأعراف ما بين الجنة والنار؟ ويا تُرى هل دخلوا هم كذلك في غيبوبة نتيجة الحريق نفسه؟ حريق واحدٌ وثلاث حالات إغماء؟! احتمال ضعيف. قطعًا أنا في قرية "تاهتالي"(القبر)، ذهني يعود إلى النقطة نفسها: عذاب القبر؟ وكأن هذا أكثر شيء يخيفني أكثر حتى من النار.

يزداد شعوري بالبرد أكثر فأكثر، فأنا أرتدي جاكيتًا خفيفًا رقيقًا، الجاكيت معروفة قصته، لكن هذا البلوفر وهذا البنطالون وهذا الحذاء... جميعهم مألوف لي، أعرفها، لكني متأكد أنني لم أرتدِهم عندما خرجت من المنزل، أسير غارقًا في طريق أشبه بالخندق، يمتد من إطلالة البوسفور وحتى المدينة الجامعية للطلبة. أعلم جيدًا أن المدينة تكون مغلقة في هذه الساعة، لكن يبدو أن الأمر نفسه لا يسري على نوافذ أماكن الترفيه والنوادي التي تحيط بقاعة المذاكرة بالطابق الأرضي. أعرف هذا المكان جيدًا، فلا تستهن بالليالي التي كنت أهرب فيها من المدينة وأقضيها هناك، أمد يدي وأجد

نافذة النادي الفولكلوري، وكأنني وضعتها بيدي في هذا المكان، أدفعها فإذا بها تُفْتَح.

يا للعجب! أتذكر كل هذه التفاصيل بهذا الوضوح! هذا يعني أن الإنسان لو مات، فهو لا ينسى بعض الأشياء، أمر مضحك! وربما أيضًا يحاول أن يتذكرها لأنه مات. أقفز إلى الداخل قفزة عالية، كم أشعر بسعادة عارمة وأنا أفعل ذلك، أو بالأحرى وأنا أقدر على فعل ذلك، فمنذ وقت طويل وأنا على ذلك الحال، حتى أن جسدي قد تثاقل وتقاعس عن الحركة، وضعفت لغتي التركية لعدم ممارستها، هذا يعني أن قوى الإنسان النفسانية التي تدرك الأمور من خلال نوع من الإدراك الـ"فوق حسي" وليس عن طريق الحواس الخمس، هي حية أكثر من القوى الجسمانية.

أتذكر قول معلم التربية الدينية في المدرسة الإعدادية، أن صورتنا في الجنة ستكون غاية في الجمال والنضرة، وجميعنا سيكون في عمر الثلاثة والثلاثين.. هراء! أحس نفسي الآن أقوى بكثير مما كنت عليه في سن الثلاثة والثلاثين، دفء المكان يريحني وأشعر باسترخاء، آخذ بطانية وجدتها في زاوية المكان، وألتحف بها متمددًا على أريكة بجانب الباب، أشعر بالنعاس، وقبيل الاستغراق في النوم، أفكر في أنني ربما سأفتح عينيَّ وأجد نفسي في غرفة بمستشفى ما أو في القبر.

كان الاحتمالان كلاهما خاطئٌ، فقد استيقظت ووجدتني لا أزال في النادي الفولكلوري، شعرت ساعتها بقشعريرة حلوة، نهضت وحاولت استجماع قواي العقلية، وبالطبع، بدأت فورًا بتحسس جيوبي لأجد التليفون، فلم أجد أي شيئًا في جيوبي؛ لا التليفون ولا المحفظة. عجبًا! كيف لم يخطر هذا على

بالي، عندما عدت إلى وعيي وأنا على الحشائش الليلة الماضية؟ على أية حال، ربما حسبت أنها بقيت خارج نطاق العالم الآخر، وربما أوقعتها في المكان الذي استيقظت به. قمت وتفقدت الباب، فلم يكن مقفلًا، وكان يجلس بقاعة المذاكرة الواسعة ثلاثةٌ أو خمسةُ طلاب يستذكرون دروسهم، لم يبدُ عليهم أنهم ماتوا أو دخلوا في غيبوبة؛ كانوا يفركون أعينهم، حتى إنهم كانوا يدخنون السجائر!

اقتربت نحو شاب بدا ألطفهم وألقيت عليه السلام، رد سلامي بعدم اهتمام، وبطريقة تُظهر أنه لا يود التحدث معي، ثم حوَّل نظراته نحو الكتاب الذي أمامه، فصعدت السُلَّم متراجعًا عن محاولة الدخول في حديث معه، وخطوت خارج المبنى. الجامعة كانت هي الجامعة التي تعرفونها؛ عدد قليل من الطلاب يتجولون ذهابًا وإيابًا في مجموعات، ورجال الأمن والحراس، وحتى كان هناك أستاذ جامعي أعرفه... رفعت رأسي ونظرت على الساعة التي ببرج المبنى المجاور.. 7:35. بحثت في الساحة المغطاة بالحشائش وتحسستها من أولها لآخرها، لكن لم أجد أي أثر لا للتليفون ولا للمحفظة، وبقيت هكذا في وسط الجامعة بلا بطاقة هوية، ولا نقود، ولا أي وسيلة تواصل مع أحد، لكن على أية حال، كنت في أراضٍ صديقة، ووجهتي واضحة: كافتيريا "أورطه".

إلا أن الصدمة الحقيقية كانت تنتظرني هناك، حيث كان كل شيء كما أتذكره قبل عشرين سنة: الطاولات الضخمة الواسعة، والملصقات السياسية على الجدران، والتليفزيون ذو الإيِّال المعلق في زاوية مرتفعة، وبجانبه نصب موقد الشاي، وحتى نادل الشاي العم "رجب" كان هناك؛ يبدو أن تمييز الإنسان واستيعابه لاختلاف بعض الأشياء يستغرق وقتًا. تلمست رأسي

بيدي، ليست هناك أية علامة عن إصابة الأمس، سددت نظراتي وركزت في ملابسي مرة أخرى… إنها ملابسي القديمة للغاية، التي كنت أرتديها قبل عشرين سنة، والتي لاحظت الآن أنها قبيحة وغير مناسبة.

إذا ارتبتم في أنكم ترون حُلمًا أثناء منامكم، فإنكم قطعًا ترون حلمًا، ومن ناحية أخرى، لو كنتم تدركون الحياة من حولكم بكل ما فيها على أنها حُلمٌ وأنتم في دائرة اليقظة منها، فهذا له تفسير آخر في علم الوجود (الأنطولوجيا)، لكن في حالتي هذه، لا يوجد منهج علمي يفرق بين الحقيقة والخيال، فمرجعكم الوحيد هو تلك النقطة التي لن تستطيعوا فيها أن تنكروا وجود الشيء الذي تفكرون فيه حتى لو كان وهمًا. بوجيز العبارة كنت أفكر، وما أفكر به كان موجودًا! فكل شيء عشته حقيقةٌ بقدر ما تعنيه كلمة حقيقة، والجوع والبرد أيضًا عنصران يقويان هذا الإحساس.

بعدما ألقيت على العم "رجب" السلام وتحية الصباح، قررت أن أطلب منه إحضار الشاي، لكن سأخبره قبلها أنني لا أملك فلسًا واحدًا لأدفعه دون مراوغة، لكنني لم أستطع هذا، لأنه قام بنباهته وفطنته المعتادة بوضع كوب الشاي أمامي متصاعدًا منه البخار، وبجانبه مكعب ونصف من السكر. أصبحت أضع نصف مكعب سكر فقط، لكن بالطبع من أين له أن يعلم هذا؟

كان العم "رجب" دقيقًا ومنتبهًا، لدرجة أنه يعلم شاي وقهوة جميع من بالكافيتيريا تقريبًا، ويبدو من هيئته أنه إنسان ذو خبرة بالحياة، حكيم، خفيف الروح، اجتماعي، وكان رجلًا طيب القلب بمعنى الكلمة. وبينما كنت آخذ الشاي، إذا به أخرج حقيبة من تحت نصب الشاي، لونها رمادي وتشبه تلك التي يحملها سُعَاةُ البريد قائلًا: - يبدو أنك نسيت هذه هنا، خذها.

أخذت الحقيبة من دون حتى أن أشكره، وجلست بسرعة على إحدى الطاولات الكبيرة الواسعة. نظرت إليها؛ الحقيبة فعلًا حقيبتي... بعد عشرين سنة! فتحتها وأخذت أقلب ما بداخلها: مذكرات الدرس، والدفاتر، ورواية من روايات "باراديسا"، وقرص كمبيوتر (ديسك) عتيق، ومحفظة، ووجدت بالمحفظة بطاقة هويتي القديمة، وأوراقًا مالية بقيمة مائة ألف ليرة (ذلك قبل أن نلغي الستة أصفار من وحدة عملتنا)، وبعض الفكة، وكروتًا ملونة كنا نتسوق بها من البقالة، ونوتة تليفونات صغيرة، فالتقطتُ أنفاسي وأخذت رشفة من الشاي متلفتًا حولي. علقت عيناي بشاب طويل القامة، شعره ناعم، وذي لحية خفيفة. كان يجلس في الزاوية الأخرى من الطاولة يكتب أشياءً في دفتره مستغرقًا في التفكير. أعرف هذه الهيئة، صحيحٌ أننا لم نتحدث من قبل، لكنه من نماذج الشخصيات التي كانت تلازم "نرجس" وتصاحبها من حين لآخر. ناديته قائلًا: - عفوًا أستاذي!

رفع رأسه ناظرًا إلي، فسألته:

- هل يمكنك إخباري بتاريخ اليوم؟

قال مبتسمًا:

- بكل تأكيد. إن اليوم هو الذكرى السنوية لحصول "هتلر" على الجنسية الألمانية.

رائع! على الأقل وقع حظي مع شخص فكاهي مثلي، فقلت:

- 25 أبريل.. نعم. هل لي أن أسأل في أيٍّ عام نحن؟ أعلم أنه سؤال غريب قليلًا، ولكن...

- اثنين وستين.

- 1962؟

ارتفع صوته بالضحك، ثم قال:

- مضحكة! مزحة مضحكة جدًا. أنت رفيق "نرجس"، أليس كذلك؟

- نعم، أنا رفيق "نرجس" وأنا لا أمزح، من فضلك! أخبرني بتاريخ اليوم بالضبط؟

- اليوم "هتلر" يحتفل بالذكرى الثانية والستين لحصوله على الجنسية الألمانية.

بعدما قال ذلك، أضاف بطريقة تثير الفضول والمعرفة:

- يعني...

كنت أمسك نفسي بصعوبة، حتى لا أرمي رأسه بمطفأة السجائر التي أمامه. سألته محاولًا تمالك أعصابي: - يعني؟

قال المجنون:

- مرت عشر سنوات بالضبط على: إصدار الأغنية الثانية عشرة "وايلد بويز - الأولاد البَرِّيُّون" من فرقة الروك الإنجليزية "دوران دوران"، وفوز "جين تورفيل" و"كريستوفر دين" ببطولة الأولمبياد الشتوية في الرقص على الجليد، وتقديم المثقفين الأتراك لعريضتهم المشهورة؛ أي أننا منذ ما يزيد عن شهر ونحن في عام 1994، إنه العام الذي اغتيلت فيه "أنديرا غاندي" رئيسة وزراء الهند، وفوز التركية "نشوى أربرك" بلقب ملكة جمال أوروبا، وآخر تطبيق لعقوبة الإعدام في بلدنا، والعام الذي فرض فيه قانون الخصم الضريبي في تركيا، و...

كان "جوجل" العتيق المتنقل ذو الأرجل مستمرًا في تعديد ما حدث، لكن لم أكن في حالة تجعلني أستمع له أكثر من ذلك، كنت محقًا في شكوكي: الحلم، والغيبوبة، والعالم الموازي، ومنطقة الغسق... والشيء الوحيد المؤكد أمامي الآن، أنني رجعت إلى سنة 1994. قاطعت حديثه قائلًا: - هل يمكنني أن آخذ سيجارة؟

أعطاني واحدة من علبة سجائر "تيكال 2000" التي أمامه بكل ذوق وكرم، توقفت لوهلة، سجائر "تيكال 2000"! (2000)؟ لا مستحيل؛ هذه الماركة تعود للتسعينيات، حيث كانت دولتنا قد طورتها لاستقبال القرن 21. أشعلها لي واجتذبت نفسًا عميقًا من دخانها.

- شكرًا لك.

- هل أنت بخير؟ تبدو شاحبًا. لو تريد الذهاب إلى العيادة، فبإمكاني أن أرافقك.

شعرت براحة عجيبة عند سماع هذا الكلام منه، فبدا صديقي هذا وكأنه ذو قلب طيب ورحيم. تذكرت أنني لم أكن أستلطفه كثيرًا في تلك الأحيان، ربما بسبب محاولة تقربه من "نرجس"، كم كان الإنسان كائنًا خسيسًا حقيرًا! كم أن الحب يتطلب بذل الكثير من الجهد، في حين أن الكره لا يكاد يتطلب أي شيء على الإطلاق! ابتسمت ابتسامة يمتزج بها شعور بالذنب ولو القليل: - أنا بخير، شكرًا. (تنحنحت) أنا "عزيز" بالمناسبة.

مدَّ يده قائلًا:

- وأنا "ألبير".

- قل لي، ماذا تفعل في هذه الساعة هنا؟ هل لديك اختبار أو ما شابه؟

قال متضايقًا، وهو يُحَوِّل رأسه نحو الدفتر الذي أمامه: - لا، لا يوجد اختبار، لكن لدي محاضرتان متعارضتان في الموعد نفسه، ولن أحضرهما، سأعكف على روايتي.

- واه! تكتب روايات؟ عن أي موضوع؟

في الواقع، لم أكن مهتمًا بمعرفة الموضوع، لكن فكرة أن يكون للإنسان صديق في مثل هذه الحقبة الغريبة الأجنبية من الزمن، لهو أمر يمكن أن يكون له فائدة أو مصلحة.

تنفس الصعداء وضيَّق عينيه ناظرًا للأفق قائلًا:

- شرحها صعب...!

- إذًا، اختصر.

بدأ المخبول بالشرح قائلًا:

- إنها رواية معاصرة وكلاسيكية في آن واحد.

من الواضح أنه مصمم على عدم مشاركة الرواية أو الإفصاح عن محتواها؛ هذا التصرف في الأساس مرتبط بطائفة المشتغلين بالكتابة، ما عليك إلا أن تسألهم سؤالًا على سبيل المجاملة، وبعدها على الفور يجعلونك تندم على السؤال.

على أية حال، تابع قائلًا:

- رواية واقعية وسريالية، كوميدية ورومانسية، بوليسية وغير بوليسية أيضًا.

- تقصد أنها أرجوحة بين هذا وذاك.

- "الحوادث والأطفال بائعو التين".

- عفوًا؟

- هذا اسمها: "الحوادث والأطفال بائعو التين"، كيف وجدتُه؟

كان يحدق بعينيه المتلألئتين في عينيَّ منتظرًا تعليقي على أحر من الجمر، فقلت: - نعم؟!

لم أسمع باسم كتاب أكثر سخافة من هذا في حياتي، لكن ومع ذلك، لا زلت أدخن سيجارة صديقنا هذا؛ أي عليَّ أن أظهر له بعض الاحترام: - إنه مذهل.. غاية الإبداع!

قال بسعادة:

- وهو كذلك في رأيي أيضًا. تدور الرواية بين مجموعة أصدقاء في الحي يحاولون حل لغز جريمة، وهم أطفال صغار ما بين سن الحادية والثانية عشرة.

كم كان من السهل تلخيص موضوع الرواية!

لم أعلق على كلامه، وأكمل هو قائلًا:

- الحوادث تضفي على الرواية لمسة بوليسية، والمعطيات اللازم طرحها كلها حقائق من أرض الواقع، أما الأبطال - أي الأطفال - فهم ينتمون لأسر فقيرة أو متوسطة الحال، ويبيعون التين في السوق حتى يكسبون قوت يومهم؛ يعني الأطفال بائعو التين.

كان "ألبير" قد أضاء مصباح عقله وعاش في جو الرواية، فسألته هكذا عشوائيًا: - وهل يذهبون إلى المدرسة؟

أمر عجيب، لكنه فعلًا توقف متوترًا وكأنه لم يفكر قط في هذا سلفًا، وجاوب بتعبير أجوف قائلًا: - يذهبون.

- وهل يذهبون جميعًا إلى المدرسة نفسها؟

امتلأ الكاتب الهاوي غير المتخصص بالغيظ:

- لا.. نعم.. وما الفارق؟

- حسنًا حسنًا، معك حق، فهمت؛ إنها مثل قصص الأطفال التي كنا نقرأها في طفولتنا.. ماذا كان اسمها؟ ها! تذكرت: "المغامرين الخمسة" و"سر السبعة"، تلك التي ألفتها كاتبة الأطفال الإنجليزية "إنيد بليتون"، أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟

بمجرد أن قلت هذا الكلام، تحول وجه ذلك الشاب اللطيف إلى وجه "ميدوسا"، برقت عينا الشاب، وشهق من بين شفتيه شهقة مليئة بالكراهية قائلًا: - ليست كذلك!

فقلت محاولًا استسماحه:

- في الواقع، أنا لا أفهم هذه الأمور جيدًا... سأقف بالخارج قليلًا، شكرًا لك على السيجارة.

هز رأسه مودعًا إيَّاي، وعندما حملت حقيبتي وفي طريقي للخروج، سمعته من خلفي يقول: - واضح أنك لا تفهم هذه الأمور!

تسيطر عليه روح الفنان؛ ساذج على فطرته، حساس، وربما خبيث بعض الشيء.

مررت على دورة المياه في الصالة الرياضية المجاورة للكافتيريا، وعندما نظرت على وجهي في المرآة، لم أستطع التوقف عن الضحك، يا إلهي، كم أنا

وسيم! صحيح أنه لم تكن لديَّ جاذبية من نوع خاص، لكنني مذهل ورائع الجمال مقارنةً بما كنت عليه منذ يوم واحد فقط؛ ليس هناك أي أثر من وزني الزائد الذي لطالما كان بلاءً على رأسي، ولا للشعر الأبيض في لحيتي وسوالفي، ولا للتجاعيد حول فمي. قلت: "يا مرآتي يا مرآتي! قولي لي، من أجمل مني في هذه الدنيا؟"، ربما مغني الروك البريطاني "ميك جاجر(Mick Jagger)".

بعد عدة دقائق، خرجت واشتريت كوب شاي مع التوست، ثم جلست على السور المقابل للكافتيريا أراقب الأجواء من حولي. بدأت تزور خاطري أكوامٌ من الأفكار السخيفة التافهة حول ما عشته ولا زلت أعيشه: هل الإنسان عندما يموت ينتقل بسرعة، وينعكس هكذا بالإشعاع إلى أية نقطة من حياته؟ وهل نظام كوننا عبارة عن حلقة لعينة كهذه؟ ما هو الشيء، أو من هو الشخص المسؤول عن كل ما حدث لي؟ - في الواقع، لم أستطع استيعاب أي شيء على الإطلاق - وما حل بي هذا هل هو شيء إلهي أم مادي؟

على أية حال، فإنه لم يكن علامة خير، وما دام الأمر كذلك، فلماذا أشعر بالسعادة الغامرة في مكان يسبب لي الهواجس والقلق؟ في الحقيقة، الإجابة بسيطة؛ كنت شابًا ووسيمًا وقويًا، وأتمتع بصحة جيدة. لم أتذكر متى كانت آخر مرة تلذذت فيها هكذا بشرب الشاي مع السيجارة؛ أحسُ نفسي خفيفًا ورشيقًا كطائر محلق في السماء، وأتطلع بفارغ الصبر لأبدأ حياتي الجديدة في أسرع وقت، لم أرد سوى أن آكل العنب وأستلذ بمذاقه في فمي! أي أن أعيش بلا أدنى مسؤولية!

وبينما كنت جالسًا أفكر بصوت عالٍ مع نفسي، اقترب مني شاب نحيف، طويل القامة وبيده شاي أو قهوة، أذكر أننا اعتدنا أن نتحدث على عجلة أمام الكافتيريا من وقت لآخر، كان من الثوريين المتحمسين.

- "أكرم"؟

- السلام عليك يا صديقي، ماذا تفعل؟

- لا شيء... أتأمل الخضرة والمنظر من حولي... أضيِّع الوقت.

تأوه "أكرم" في ضجر، وقال:

- معك حق! وأنا أيضًا لا أستطيع هضم هذا الأمر بأي الطرق، لكن لا تقلق، لن نترك هذا الأمر يمر هكذا، ولن نتركها لهم.

- بالتأكيد لن نتركها!

لم يكن لدي أية فكرة عن ما يتحدث.

- سنسترد ساحة كرة القدم.

- بالطبع سنستردها.

من الناحية الجسمانية، كنت أحس نفسي نشطًا كالقنبلة، ومستعدًا لأركل وأسدد تسديدتين أو أكثر، وأنسلّ من بين لاعبي الفريق المنافس بحركات التوائية كما يفعل الثعبان، أو أن أترأس فريقًا خاصًا بي مثل مايسترو فرقة موسيقية، فقلت له: - وأين ساحة كرة القدم خاصتنا هذه؟

استدار "أكرم" محدقًا في وجهي بنظرات كلها شك، ساعتها فهمت أنني زللت بلساني وقلت شيئًا ما كان علي قوله، فبادرت قائلًا: - أنت تقصد ساحة فرع جامعة "البوسفور" الثالث "أوتشاكسافار"، أليس كذلك؟

- هل تسخر مني يا صديقي؟

- كلا، ولكن عندما قلت ذلك لم أستطع أن أميز...

أشار بطول ذراعه على مدى واسع إلى الميدان المغطى بالحشائش، والذي قسموه إلى أجزاء: - أقصد هذه الساحة التي أخذتها إدارة الجامعة من أيدينا عنوة.

في تلك اللحظة، فهمت أخيرًا ما كان يقوله؛ إنه يقصد الساحة القديمة الجرداء، التي كان يلعب فيها مرة أو اثنتين في السنة فريق كرة القدم التابع للمدرسة الأمريكية، التي لا أستطيع حتى الآن فهم سبب وجودها، وعندما استصلحتها إدارة الجامعة، صار هذا المكان اليابس ساحةً خضراءَ خلابة يفترشها الجميع ويتمدد عليها في بهجة واستمتاع. عندما يُذكر اسم الجامعة، كانت هي أول صورة تأتي على مخيلة الجميع، وما زالت حتى وقتنا هذا؛ أي في الحقبة الزمنية التي عدت إليها.

أخذت أفكر لمدةٍ؛ حتى لا أتفوه بشيء خاطئٍ مرةً أخرى: - هل كنت تلعب كرة القدم كثيرًا؟

نهرني قائلًا:

- المسألة ليست لعبي كرة القدم من عدمه! المسألة هي سلبهم حقوقنا من أيدينا بالعنف والفاشية.

لأكون صادقًا، أحسست في نبرة صوته هاجسًا ما، كأنه يحمل هم توعية الآخرين بحقوقهم، فقلت في جدية: - لكن الميدان يبدو الآن وكأنه أكثر فائدة عن السابق، كما أصبح لا يحوي ترابًا وحصىً أو وحلًا وما شابه. لا أدري، أرى أنه لا بأس بحالته الآن.

كان "أكرم" ينظر إليَّ في برودة الثلج دون أن يتكلم ولو كلمة، وبعد صمت رهيب، بسط فكه المنقبض، وسألني وكأنه يصفعني: - هل أنت ليبرالي؟

تأوهت قائلًا:

- لا أعلم! لكنني أحب الحزب "الأخضر اليساري".

قال "أكرم" بأسلوب أكثر هدوءًا ولينًا:

- لن أتجادل معك الآن يا صديقي.

وربما أيضًا قرر أن يتقرب بقدر من الشفقة من الشعب، الذي خلفته قوى الاستعمار وتركته متخلفًا عن عمد.

أمرني بطريقة إلزامية:

- سأحضر لك بعض الكتب، ضروري أن تقرأها.

ثم ابتعد من جانبي بخطوات سريعة، فأثارني الفضول: هل يا تُرى ذهب مسرعًا هكذا لإحضارها؟

كان "أكرم" ماركسيًا أرثوذوكسيًا، ولا يكره الرأسماليين بقدر ما يكره الماركسيين التعديليين (التروتسكيين)، وكان أهم شيء في الحياة بالنسبة لـ"أكرم" هو الوفاق الأيديولوجي.

بعد خمس أو ست سنوات من التخرج، كنا سنتقابل في الطريق صدفة، وستشد انتباهي ملابسُه الأنيقة التي سيرتديها، وحقيبة من نوع "بوند" بيده، وبعد التخرج سيلعب في البورصة بالأموال و"سيبني استثمارات لنفسه" كما كان يقول، وبعدها سيذهب ليحضر الماجيستر في إدارة الأعمال خارج البلاد بما كسبه من أموال، وسيصبح من كبار مديري إحدى شركات الاستثمار.

"ألبير" و"أكرم"، هذان الشابان اللذان نفرت منهما ولم أتحملهما في دقائق معدودة، كم كانا واثقيْن من نفسيهما وساذجيْن في آن واحد، وربما بعد عشرين سنةٍ سيصبحان ذَوَيْ خبرة وأكثرَ رزانة، لكنهما سيشعران بالاشمئزاز من حالتيْهما الجديدتين عندما يواجهان نَفْسَيْهُما في المستقبل. ومن يعلم! ربما أقول ذلك لأنني أحس أن الشيء نفسه سيحدث معي أيضًا، لكن لا داعي الآن للعذاب النفسي ندمًا على الأشخاص والسنوات التي أضعتها هباءً، فقد حصلت على فرصة ثانية! وبإمكاني أن أصلح كل شيء وأبني لنفسي حياة هنيئة جديدة تمامًا.

فتحت حقيبتي متحمسًا، وأخرجت نوتة التليفونات، كان أمام عينيَّ العديد من أرقام الاتصالات وأسماء أصدقاء وأقرباء وشخصيات أعرفها، إلى أن وصلت إلى أسماء الذين نسيت حتى وجودهم وماتوا قبل يوم بالنسبة لي. نزلت للكافتيريا مسرعًا لأشتري بعض العملات الرمزية التي سأستعملها في إجراء المكالمات، ثم توجهت إلى كابينة التليفون العمومي. لم يكن يستلزم عليَّ النظر في النوتة حتى أتذكر رقم تليفون أول شخص سأتصل به، علاوة على أنه سيكون على قيد الحياة بعد عشرين سنة؛ إنه الشخص الذي لطالما أنبني ضميري لأنني دائمًا ما أسأت معاملته وظلمته، وكنت أنهي مكالماتي النادرة معه بغلق السماعة في وجهه.

- أمي؟

صدر صوت من الجهة المقابلة يقول:

- أين أنت؟ أين أنت؟!

أتى ذلك السؤال بتلك النبرة التي لم تتغير على الإطلاق طيلة حياتنا.

- أنا بالجامعة يا أمي، لا تقلقي.

- هل تعلم كم أسبوعًا مر، ولا تتصل ولا مرةً بأمك؟ ماذا تأكل، وماذا تشرب، ومع من تذهب وتأتي؟ لا أعلم! كيف أنا وفي أي حال؟ لا تعلم! منذ أيام وأنا مريضة، والجيران يركضون لمساعدتي، يعني لو مت ستحملني البلدية... من الأفضل أن أموت أساسًا! لعلك ساعتها سيكون لديك إحساس، لكن سيكون بعد فوات الأوان.

وبينما كانت والدتي مستمرة في نشرتها تلك، تذكرت أني سأبدأ كل شيء من الصفر، وسأحول حياتي وحياة أحبتي إلي جنة. وانطلاقًا من تلك النقطة، حاولت جاهدًا أن أكون حنونًا، وأجد كلمة رقيقة تسترضي خاطرها، لكني لم أستطع التوصل لنتيجة في النهاية، فقط أحسستُ بارتفاع ضغطي وفورانه بشكل سريع.

صرخت لأقطع كلامها قائلًا:

- أمي! أمي العزيزة، هلّا تهدأين لو سمحتِ؟

سكتت لوهلة، وكان كلانا ينتظر الآخر ليرد عليه، وفجأة توقف عقلي وخملت وظائفه فجأة، ولم يتبادر إلى ذهني أي شيء يمكن قوله. أغلقت الخط في وجهها بسرعة، وفكرت أنني سأؤجل ما أريد قوله للمرة القادمة؛ هذه تعد بداية وبادرة نية حسنة، المهم هو التفكير الإيجابي المتفائل، فكل شيء سوف يسير على ما يرام في طريقه رويدًا رويدًا.

شرعت في تقليب صفحات النوتة ذات الغلاف الأسود، وصدقًا لم أود أن أتصل بأحد من أقاربي. لفت انتباهي اسم من الصفحات الأخيرة: "يامان إيتيلي" صديقي من الثانوية، هو شخص مفعم بالنشاط ومرح وصاحب نكتة وذكي، وكان سيتعرض لحادث أثناء ركوبه سيارة القناة التليفزيونية الإخبارية التي يعمل بها مصورًا، وسيظل طوال عمره سجين الكرسي المتحرك. لم أتذكر تاريخ الحادث بالضبط، لكن لا بد وأنه في سنوات الألفية؛ أي أنه لايزال أمامي وقت لأشهد تلك الحادثة المروعة.

اتصلت برقم عمله المسجل بالنوتة، فردت سيدة:

- شركة "جناويز" للسياحة. تفضل، كيف يمكنني مساعدتك؟

هذا يعني أن "يامان" لم يبدأ في العمل بالقناة الإخبارية بعد.

- لو سمحتِ! هل يمكنني التحدث مع "يامان إيتيلي"؟ أنا صديقه.

صمتت برهة، ثم قالت:

- آسفة! السيد "يامان" لم يعد يعمل هنا.

- إذًا كيف يمكنني التواصل معه، هل لديك أي معرفة؟

- اممم... تليفون منزله مسجل هنا، اكتب الرقم إذا أردت.

أخرجت من حقيبتي قلمًا على عجلة، وسجلت الرقم الذي أملته السيدة عليَّ.

- أشكركِ.

في تلك الأثناء سمعت صوتًا ينادي اسمي، تركت السماعة، والتفت نحو جهة صدور الصوت، إنه "صفوت"، كان آتيًا من الطريق الممتدة من جانب مبنى إدارة الجامعة ملوحًا بيده، وبجانبه فتاة شابة... كانت ترتدي معطفًا كحليَّ اللون وواسعًا بعض الشيء، وتحمل حقيبة ضخمة على كتفها، وتمشي متمايلة بجسمها يمينًا ويسارًا وعلى وجهها ابتسامة عريضة، إنها صاحبة أجمل وجه في الدنيا.

انبعث لهيب العشق من قلبي إلى شفتَيَّ لتنطق باسم ذي مقطعين: "نر جس"، في حين أنني كنت أنتظر قدومها دون أن أبرح مكاني ولا أستطيع أن التقط

حتى نفسًا واحدًا؛ خشية أن أضيع بهاء اللحظة وجمالها، كانت هي تقترب نحوي مسرعة، وبكل خطوة تخطوها كان الكون يغير استقامته من الموت إلى الحياة ومن العدم إلى الوجود، وكنت أشهد أنا في تلك اللحظة تحول ذكرى حزينة إلى حبٍ مرةً أخرى.

قالت لي:

- ما أخبارك؟

ثم قبلتني قبلة رقيقة على شفتَيَّ.

فتحت فمي لأقبلها مثلما فعلت، لكنني لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى أن أخرج شهيقًا من حلقي. فجأةً، أخذت أبكي وأنا أحتضنها وأضمها إلى صدري في قوة. في تلك اللحظة، تأكدت أنني التقيت مرة أخرى بكل شيء ظننته ضاع مني، وكان قدري بين يدي مجددًا، لأكتبه هذه المرة بحروف من ذهب وأسطره في أجمل أبيات شعر.

كنت لا أزال أبكي، قلبي يرتعد، ورئتاي تهتزان كأنهما ستخرجان من مكانهما، لكن حل مكان هذا الخوف، شعور عميق بالرهبة، فما دمت مع "نرجس" فإني كامل متكامل مع العالم كله ووحدي أيضًا، فالسماء من فوق رأسي كصديقي، والأرض من تحت قدمي كأخي، وغصن الشجرة الذي اقتلعته الرياح وهوت به كأمين أسراري، والحياة التي كنت ألعنها كل يوم طيلة السنوات الماضية، كانت على عيني ورأسي، وراضيًا مسلمًا بها إلى الأبد.

أحست "نرجس" بغرابة تصرفي ذلك بفطنتها المعتادة، وكانت تحبس أنفاسها وتحرق روحها خوفًا عليَ. سحبت نفسها للوراء من بين ذراعي ببطئ شيئًا فشيئًا: - هل حدث شيء يا "عزيز"؟ ماذا بك؟ أرجوك تكلم!

قلت محتضنًا وجهها بين كفيَّ:

- لا شيء، رأيت كابوسًا مفجعًا؛ رأيت أننا قد افترقنا، وأُجبرت على العيش دونك لسنوات، وأضعت حياتي سدىً، وأصبح كالميت الحي.

عانقتني مجددًا مسندة رأسها على صدري، وقالت:

- لا تحزن نفسك، كل ذلك كان مجرد حلم لا أكثر ولا أقل.

4

منطقتي.. ممنوع الاقتراب

Territorial Pissings

كان "صفوت" يدخن سيجارته المارلبورو، وينفث بدخانها في هواء الكافتيريا المحمل بطبيعة الحال بشتى أنواع السموم قائلًا: - أخي العزيز! لا تقل لا هذا ولا ذاك، فأنا لا أقبل المبررات، أحضر لي أعظم تركي مثقف، فإذا قلت له اسم ذلك الكاتب الألماني القدير "جوته "، فسيتبادر إلى ذهنه كلمة "جوت"/Göt" التي تعني عنده "المؤخرة" باللغة التركية، أراهن على أنه سيفهمها هكذا.

كنا أنا و"صفوت" و"نرجس" قد دخلنا الكافيتيريا، وجلسنا على إحدى الطاولات، وبدأ المكان يمتلأ رويدًا رويدًا. كنت أطير من شدة الفرح محتضنًا يد حبيبتي بيدي، وأشاهد باستمتاع الشباب الجالسين في المكان: فواحد يقرأ، وثاني يتحدث مع صديقه، وآخر يشبع معدته؛ أي أنني - بالقول المشهور - كنت أعيش اللحظة. في الحقيقة، في ذلك الوقت لم يكن هناك أي مكان على وجه الأرض أرغب البقاء فيه بشدة غير هذا المكان. تجمَّع أصدقاؤنا بناتًا وشبابًا في مدة قصيرة متكدسين حولنا، أما "صفوت" الذي لم يتوقف عن الحديث، فإنني أظن أن هدفه الأساسي من كلامه في هذا الموضوع هو الفتاة الشقراء، التي من دورها لم تصمت وشنت هجومًا عليه قائلة: - وما الذي تقصده بكلامك هذا؟

أجابها "صفوت"، وهو في غاية الثقة من نفسه:

- لا أقصد شيئًا، أحاول إثبات شيء ما.

يبدو أنه في وضع استعداد لتصدي الهجمات القادمة.

- في رأيي، إنك تستمتع فقط بترديد كلمة "جوت/Göt".

بصراحة، كانت الفتاة قد أظهرت مخالبها وأنيابها له.

رفع صاحبنا يده اعتراضًا على كلامها قائلًا:

- ليس من المستحب الطعن في حُجج الغير، بالإضافة إلى أن ما تفعلينه هذا يسمى بـ"الشخصنة"، أي أنكِ تفترضين عدم صحة الحُجة بسبب عيب متعلق بالشخص الذي يعرضها، وليس بالحجة نفسها.

تدخلت "نرجس" في الحوار قائلة:

- ومن أين لك أن تعلم أنه عندما تقال الكلمة التركية "أرشه/Arşe" مثلًا، لن يتبادر المعنى نفسه على ذهن المثقف الألماني؟

فسَّر "صفوت" الأمر بطريقة المتعالم المتظاهر بالمعرفة قائلًا: - بالتأكيد سيتبادر على ذهن الألماني المثقف هذا المعنى، لأن كلمة "أرشه /Arshce " في الألمانية تعني "المؤخرة"، كما أن كلمة "Arşe" التي تعني في اللغة التركية "قوس الكمان"، المقابل الألماني لها "جايجنبوجن/ geigenbogen".

قالت "نرجس":

- إذًا، لنتفرض أنه ألماني يعرف اللغة التركية.

يا إلهي كم كانت ذكية! قاطعت الفتاة الشقراء الحوار: - حسنًا، وماذا يسمى ما تفعله ذلك، أن تفترض شيئًا يُدعى التركي المثقف، وتستخدمه جسرًا لإلقاء تعميماتك من خلاله؟

كانت قد تضايقت قليلًا، لأن حجتها التي هاجمتْه بها قبل قليل قد دُحضت، ولم تؤخذ في الحسبان.

وقتئذٍ، سمعنا صوتًا مبهجًا من خلفنا يقول:

- واه! ما لي أرى مثقفي المستعمرة منهمكين في النقاش المشتعل، الشخصنة والنخصنة وما شابه.

إنه "نورالدين"، أحد أفراد المجموعة المعروفة باسم "المفكرون الإسلاميون"، وكان بجانبه شخصان، أحدهما بَدِينٌ والآخر قصير، وعلى وجوه ثلاثتهم ابتسامة متكلفة باهتة، تخلق انطباعًا لدى من يراها بأنهم يعرفون الأسباب الحقيقية وراء كل القضايا والمشكلات.

قبض "صفوت" على يده قائلًا:

- واه! من الذي أرى أمامي؟ السيد "نورالدين"! عساه خيرًا! هل كنتم تتنصتون علينا؟

- وحتى لو كنا نفعل ذلك، ألسنا أحفاد السلطان "عبد الحميد"؟ ماذا تفعلون؟

- وما عسانا أن نفعل يا عزيزي "نورالدين"، ها نحن جالسون نحاول تطوير خطط القضاء على أحفاد "عبدُ الحميد"، وتجفيف منابعهم.

ضحك "نورالدين" بتهكم واستهزاء:

- ليس لدينا شك في ذلك! هيا دمتم في صحة وعافية.

ثم ذهب بصحبة صديقيه إلى طاولتهم التي يجلسون عليها دائمًا عند آخر زاوية في الكافتيريا، وهو يدندن بأغنية شعبية تركية عدلها بمزاجه ليسخر من الموضوع الذي كنا نتحدث فيه: أيتها الشخصنة الشخصنة/ يا جميلة القرية/ تعالى إلى الجبال/ أيتها الشخصنة.

سأل أحد الشباب الجالسين على الطاولة قائلًا:

- من هؤلاء الشباب؟

رد "صفوت" عليه:

- إنهم مستقبل تركيا، البدين معنا في القسم نفسه، أما الاثنان الآخران فيدرسان في قسم علم الاجتماع. "نورالدين" سيذهب إلى أمريكا السنة المقبلة، ليحضّر رسالة الماجستير هناك في تاريخ الأديان أو التطور الوراثي، على أغلب الظن لم يحدد بعد.

- التطور الوراثي؟!

- بالطبع، ماذا قالوا؟ "اعرف عدوك أكثر من صديقك".

عادت الفتاة الشقراء مجددًا لمشاكساتها الغزلية مع "صفوت" قائلة: - كم أنت هجومي ومؤجج للمشاعر! لم يكن الأمر هكذا على الإطلاق.

وبينما هما مستمران في مشاكساتها، التفتت "نرجس" نحوي: - أنا ذاهبة إلى المحاضرة، هَّلا رافقتني حتى القاعة؟

لم تكن هناك حاجة لسؤالها، فأنا سأذهب معها ولو إلى جهنم.

وبمجرد أن وقفنا التفت "صفوت" إلى "نرجس":

- سنتحدث في ذلك الموضوع لاحقًا.

أخذت "نرجس" حقيبتها دون أن ترد عليه، واتجهت نحو الباب وأنا من خلفها.

بدأنا السير باتجاه مبنى كلية الهندسة، وقلت:

- خيرًا، ما ذلك الموضوع الذي ستتحدثان فيه أنت و"صفوت"؟

هزت كتفها:

- ليس أمرًا مهمًا. عليَّ أن أخبرك بشيء أهم.

- أخبريني.

- ستأتي بنات عمي من "إزمير" غدًا، وسيبقون معي في المنزل لفترة.

تذكرت أني كنت أسكن معها في منزل استأجرته عائلتها في حي "روملي حصار ((Rumali Hisarı"، كان منزلًا متناهي الصغر، وبه رطوبة، وأبعد ما يكون عن الراحة والرفاهية، لكنه كان يتسع لنا ويزيد. إن مجيء بنات عمها يعني أنني لن أستطيع البقاء هناك إلى أن يرحلن، فحتى لو كانت عائلة "نرجس" تعرفني ولديها علم بعلاقتنا، إلا أنه يجب أن لا يعرفوا أننا نسكن معًا في منزل واحد. سرعان ما نسيت مثل هذا النوع من المشكلات البسيطة، فتزامن زيارة الأقارب هذه مع اليوم الذي عدت فيه إلى الماضي، كان حقًا أمرًا مزعجًا بالنسبة لي. هناك علامة استفهام أخرى: إن كنت لن أقيم هناك في هذا المنزل، فأين سأقيم حتى يرحلن؟

- كم سيمكثون هنا؟ هل تعلمين؟

- أسبوعًا على الأقل، يمكن أن يزيد.

ثم أخرجت كيسًا من حقيبتها، وأعطتني إيَّاه:

- أحضرت لك بعض الملابس لتدبر أمرك بها هذه الأيام، لكن في رأيي من الأفضل أن تذهب إلى والدتك.

- ليست هناك مشكلة؛ سأمكث أسبوعًا في المدينة الجامعية وأدبر أمري.

مع أنه في المدن الجامعية، إذا قضيت الليلة في الخارج فدائمًا ما يأخذ أحدهم مكانك؛ يكفي أن يتركوا الباب مواربًا دون إغلاقه بالقفل.

قالت "نرجس" بأسلوب حاد:

- من الممكن أن تزيد المدة عن أسبوع. اذهب إلى أمك.

لو لم أكن أعلم أنها تتضايق من أقل الأشياء، لقلت لها أنها تتصرف معي بنوع من البرود.

قلت:

- حسنًا، سأذهب. متى ستخرجين من المحاضرة؟ ربما نلتقي في المساء.

- صعب، لأني سأرافق بنات عمي في الأيام القادمة، وسأتجول معهم في "اسطنبول" قليلًا، وسنذهب لزيارة بعض الأقارب، لا مفر من ذلك.

قلت في عجز:

- حسنًا!

ثم مشينا في صمت، حتى وصلنا أمام مبنى كلية الهندسة.

- بالمناسبة، السيد "أسعد" ينتظر الترجمة، اتصل به إن أردت.

- هل اتصل بكِ؟

- لا، بل تحدثنا عندما ذهبت لأسلم ترجمتي بالأمس.

لا عجب، فـ"نرجس" هي الأخرى كانت تعمل بدار "باراديسا" للنشر، وترجمت خمسةً أو ستة أعمال لحسابها في فترة ما؛ يعني هذه الفترة!

- حسنًا سأتصل به.

سألتني زوجتي السابقة والمستقبلية قائلة:

- هل تحتاج إلى نقود؟

هززت رأسي يمينًا ويسارًا بحركة تعني "لا" وقلت:

- صرفت شيك نقود بالأمس.

في واقع الأمر، لم تكن لدي خبرة كافية في هذا الموضوع، فلا أعرف ما إن كانت النقود التي بمحفظتي ستكفي لشراء شيءٍ ما، وكم مدة ستبقى، وخصوصًا في السنوات التي كانت نسبة التضخم فيها عالية، لكن لم أؤيد قط فكرة الرجل الذي يبدأ في استغلال المرأة التي يحبها كمتطفل.

أعطتني حبيبتي قبلة على خدي: "حسنًا إلى اللقاء".

أحسست باضطراب وضيق شديد لكوننا سنفترق لتلك المدة، لكن لساني استطاع فقط أن ينطق قائلًا: "درسًا موفقًا!".

كيف كنا نتواصل ونتواعد قبل ظهور التليفون المحمول؟

أثناء عودتي إلى الكافتيريا، أخذت أحدث نفسي في موضوع زيارة الأقارب ذلك، وكأنني كنت أتذكر طشاشًا أنه كان قد حدث شيئًا كهذا سابقًا، فربما حينها كان عليَّ أن أعرض الزواج عليها بسرعة، فلعلنا بهذه الطريقة كنا سنستطيع أن نرفع من بيننا هذه الحواجز، والأزمات التي لا داعي لها من خوف من الأقارب، وضغط المحيطين من حولنا. ألم تكن تلك النقطة هي التي سيؤول إليها الأمر عاجلًا أم آجلًا؟ لكن يا تُرى، هل كنت أحس نفسي مستعدًا للزواج فعلًا؟ ما هذا الذي أهذي به؟

لم يكن "صفوت" في الكافتيريا عندما عدت. أخذت حقيبة ظهري وتركت ملابسي أمانة عند العم "رجب"، وبعدها ذهبت لآخذ استراحتي مجددًا عند تليفون العملة العمومي، حددت بشكل سريع هدفي التالي، واخترت رقمًا مهمًا من النوتة، ضغطت على زر الاتصال، وأنا متحمس ومتوتر بعض الشيء.

- آلو؟

- تفضل؟

أستطيع تمييز الصوت، فهو بالفعل الشخصية التي أريد التحدث معها.

- ألم تعرفينني؟

- لا، من أنت؟ لا تؤاخذني، لا أستطيع تمييز الصوت.

- أنا "لورنس أوليفيير" القادم، مع أنهم يشبهونني بـ"آل باتشِينو".

صرخت فيَّ قائلة:

- اسمع أيها المنحرف! إذا اتصلت بهذا الرقم مرة ثانية، فسنلتقي في قسم الشرطة!

قلت مرتبكًا:

- ويحك يا "فوليه"! أنا "عزيز".

- "عزيز"! لا تؤاخذني، فلم أكن أعرفك عندما تحدثت بهذه الطريقة.

- وما العجيب في طريقة حديثي؟

- لا أدري، تحدثت مثل الرجال متوسطي العمر مطاردي النساء، (ثم ضحكت ضحكتها العالية) لكنك لعبت عليَّ وخدعتني حقًا.

ابتلعت ريقي، وقلت:

- نعم، خدعتكِ.

- ستأتي هذا المساء، أليس كذلك؟

- بالطبع، ولكن أين؟

- سنجتمع هذا المساء عند "سنان"، ألم يخبروك؟

- لا أعلم، ربما حاولوا الاتصال بي ولم يستطيعوا الوصول إلي.

- ولم تأتِ إلى الاجتماعات السابقة قط، قلقت عليكَ.

- إنني لا أقيم في المنزل منذ فترة، فبنات عم "نرجس" سيقيمون معها لذلك.. ماذا حدث وأنا غائب؟ احكي لي.

- لم يحدث شيء مهم. اليوم سنناقش موضوع مسرحية جديدة، إنها مسرحية كتبها "بولنت"، تبدو جيدة للغاية.

- توقفي لحظة لأخمن ما هي، هل تتناول ذكريات شخص رأسمالي على فراش الموت، أو شيئًا من هذا القبيل؟

- هاه! هذا يعني أنه حكاها لك؟

- ربما يكون قد ذكر شيئًا عنها... نعم.

- هناك أيضًا ممثل جديد ستقابله عندما تأتي، مفاجأة! الاجتماع في الساعة التاسعة.

إنه "عبدُل".

- بالتأكيد، هلَّا أعطيتِني عنوان "سنان"؟

- "عزيز"!

- "سنان"!

وقف "سنان" مستندًا على باب الشقة، بدا عليه أنه لم يكن يتوقع رؤيتي هنا.

سألني قائلًا:

- ماذا تفعل هنا؟

- ألا يوجد اجتماع هنا هذا المساء؟

- نعم، نعم.

سحب ذراعه وأفسح لي الطريق، ثم قال:

- تعال، تفضل بالدخول. كنت أظن أنك تركت فرقة المسرح.

دخلت دون أن أرد على كلامه.

أخذت أجول النظر في أعضاء المسرح الذين أتوا مبكرًا قبلي، مع أنه لا تزال هناك نصف ساعة قبل بدء الاجتماع. كان أفراد الفرقة "جوركان"، و"سيلدا" وحبيبها المهندس، موجودِين، وهم أهم أفراد الفرقة بعد "بولنت" و"تولاي"، اللذان وصلا لمرتبة عالية حقًا في التمثيل؛ بحكم أقدميتهم ومعارفهم وكذلك ارتباطاتهم السياسية ومكانة عائلاتهم، كما يوجد أيضًا البعض الذين لم أتذكر أسماءهم، وأخيرًا "قدير"! ذلك الإنسان الرائع والممثل المتألق، إنه المحترف الوحيد في الفرقة. فمن ناحيةٍ، كان يعمل مساعدًا في معهد التمثيل والموسيقى، ومن ناحية أخرى، كان يأخذ أدوارًا على خشبة المسرح الخاص بالسيدة رئيسة القسم في الجامعة، والتي تُعد واحدة من أهم الممثلات في

تركيا. أما الآن، وإن أصبح لا يأخذ أدوارًا في مسرحيات "طلائع الشباب"، إلا أنه كان يشارك في اجتماعات الطلائع من حين لآخر، ويقوم بطرح مقترحاته المفيدة للغاية بالنسبة لهم. كنت أحس دائمًا بوجود خصومة دقيقة عند "بولنت" وأعوانه تجاه الممثل البارع "قدير"، بسبب ما قدمه في المجال وكذلك موهبته العبقرية، ذلك وإن لم يكونوا قد أعلنوها صراحة. مما لا شك فيه، أن سبب ذلك أن "قدير" فضَّل أن يخون القضية بالنسبة إليهم طبعًا، ويصير محترفًا في المجال بدلًا من أن يقدم عروضًا مسرحيةً لثمانيةٍ أو عشرة أشخاص في مسارح الدرجة الثالثة. كنت أتذكر جيدًا اليوم الذي تعرفت فيه عليه، كنا جالسَيْن في آخر زاوية في دار السينما التي كنا نمارس فيها نشاطنا، حيث كان عضوًا في لجنة اختبار الأداء الذي تؤهل المرشحين، الذين يرغبون في الانضمام إلى الطلائع.

كان هناك متقدم لهذا الاختبار يمثِّل أمام اللجنة، وفي تلك الأثناء، طلع "قدير" فجأة، وقام بحركات بلغة جسده مفادها: "اتركوا هذا الأمر لي، فأنا كفيل به"، وبعدها حوَّل نظراته المجنونة إلى ذلك الشاب الطليعي الجديد، ونادى عليه بصوته الجهوري: "'يا بنيَّ! مثَّل لي شخصية أحد ذي عيون زرقاء". حاول هذا الشاب كسب إعجاب "قدير" بحركات عينيه، وأخذ يقلبها، فتارة يضيقها وتارة يفتحها، وليس هذا الشاب فقط الذي أخذ هذا الامتحان على محمل الجد، بل هناك آخرون أيضًا قد فعلوا ذلك، وفي النهاية، لم أتمالك نفسي وانفجرت بالضحك. لحظتَها، أدرك "بولنت" أن "قدير" كان يمزح، فأنهى محنة هذا الطليعي بنكتة سخيفة غير مضحكة.

بعدما أنهى "قدير" الدراسات العليا مباشرة، كان يخطط لأخذ كادر مسرحي براتب جيد في مسرح السيدة رئيسة القسم في الجامعة، كما كان يفكر في تولي رئاسة المسرح بدلًا من تلك السيدة، التي كانت - بالنظر لسنها وحالتها الجسمانية - ستموت خلال خمس سنوات كحد أقصى على حد تعبيره.

وبعد مرور خمس سنوات، كنت سأقابله صدفة في إحدى حدائق الشاي بحي "موضه ((Moda"، وكان "قدير" بمجرد تخرجه سيتوج بنفسه خروج تلك السيدة، وسيدخل المسرح القومي، وسيرسلونه إلى محافظة "أرضروم"، ليؤدي الخدمة الإجبارية لمدة عامين، وبعد إنهائه هذه المدة سيقومون بتمديد الخدمة له، لأنهم بالطبع لن يتركوا ممثلًا ذا خبرة هكذا بسهولة، وفي تلك الأيام سينشغل "قدير" بتمثيل مسرحية "هاملت" في قاعات "أرضروم" الخاوية من المتفرجين، ومن جانب آخر سيقدم الالتماس تلو الآخر حتى يرحل من هناك ويتم تعيينه في مسرح "اسطنبول" أو "أنقرة" القومي، وفي النهاية سيتحقق له هذا عندما يعود إلى "اسطنبول" ليلعب أدوارًا ثانوية في مسلسلات التليفزيون المخيفة.

عانقني بمودة قائلًا:

- أخي "عزيز"! كيف حالك؟

- أنا بخير يا "قدير"، وأنت ما أخبارك؟

- سمعت أن اليوم سيتم اختيار مسرحية، ففكرت في المرور عليكم والانضمام لكم.

قلت ضاحكًا:

- وأنا أيضًا فكرت في هذا.

- انظر! أرى أن تنضم إلينا في معهد التمثيل والموسيقى، ما رأيك؟

- هذا شرف لي، لكنني مكتفٍ بدراستي في الجامعة، كما أظن أنني تخطيت السن المطلوب للالتحاق بالمعهد، أليس كذلك؟

قال "قدير" بجدية:

- يمكنك أن تقدِّم لاجتياز اختبار الأداء التأهيلي.

توقفت لوهلة وحدثت نفسي: ماذا لو فعلت كما اقترح عليّ؟ فيا حبذا لو أصبحت ممثلًا بارعًا في حياتي الجديدة! لكني فكرت بمصير "قدير" الذي آل إليه، فقلت: - ليتنا نصعد حتى على خشبة مسرح الطلائع أولًا!

في تلك الأثناء، لاحظت دخول "صفوت"، كانت عينه في عينيَّ، وبدا متعجبًا من وجودي هنا حتى أكثر من "سنان".

قلت له:

- مرحبًا!

أومأ لي برأسه، ثم أدار وجهه للناحية الأخرى.

انتابني شعور وكأنه يتجنب مواجهتي، فذهبت صوبه مباشرة: - لو لم تخبرني "فوليه" لما عرفت عن اجتماع اليوم، هل هي أيضًا من أخبرتك؟

كانت عيناه لامعتين وتتحركان بتوتر.

- لا، "عبدُل" هو من أخبرني.

- "عبدُل"؟

- نسيت إخبارك، إنه ممثل جديد انضم إلى المسرح، كان قد أتى قبل عدة أسابيع إلى الجامعة، وهو من أخبرني ببدء أعمال المسرح مرة ثانية.

كنت محقًا في شكوكي؛ حيث كان "صفوت" قد أخفى عني خبر زيارة "عبدُل" متعمدًا، لكن لماذا؟ قررت أن لا أضغط عليه حاليًا بشكل مؤقت، فكل كذبة سيكذبها، ستصبح وصلة ملزمة لكذبة أخرى بعدها، وربما لم أكن سأتوصل لشيء في النهاية، لذلك صمت. بعد قليل، جاء "بولنت" ومعه "تولاي" و"فوليه" التي كانت منهمكة في الحديث بانفعال، وعندما وقعت عينها علي، هشت وبشت ورسمت على وجهها ابتسامة عريضة، فقابلت ابتسامتها بالمثل. من الواضح أنها أخبرتهما بقدومي إلى هناك ذلك اليوم، لأنهما لم يبديا ردة فعل مبالغ فيها على وجودي مثلما فعل "سنان".

قال "بولنت":

- هيا! الساعة أصبحت التاسعة، حان الوقت لنبدأ.

ردت "فوليه":

- لم يأتِ "عبدُل" بعدُ.

رد عليها "بولنت" في حدة:

- كان عليه أن يأتِ في الموعد المحدد!

بدأ الجميع بإخراج نص المسرحية واحدًا تلو الآخر، متجمعين حول منضدة صغيرة في وسط الحجرة، وجلست "فوليه" بجانبي على الكنبة، أعطاني وجودها بجانبي إحساسًا بالراحة والطمأنينة.

سألت "جوركان" قائلة:

- هل قرأ الجميع المسرحية؟

كان بَدْءُ "جوركان" للجلسة، وإلقائها هذا السؤال - وليس "بولنت" أمرًا مقصودًا - لتبدي للجميع أنها صارت صاحبة الكلمة، وأن الجميع في صفها، ويُكِنُّون لها التقدير والاحترام.

قلت:

- أنا لم أقرأها.

كان السبب واضحًا، لذلك لم يسأل أحد عن السبب.

قالت "تولاي":

- يمكنك قراءتها فيما بعد، فهي ليست طويلة.

وضعت "فوليه" متن المسرحية بيننا:

- بإمكانك أن تتابع من نسختي حاليًا. إنها روحي.

قال "بولنت":

- طيب.. ما هي أفكاركم حول المسرحية؟

تعليقات فردية بصوت منخفض، وهمهمة الأصدقاء يصدق كل منهم على كلام الآخر. وبينما كان "بولنت" وأعوانه يحاولون الرد على كل الاستفسارات والأسئلة الموجهة إليهم، ألقيت نظرة خاطفة على نص المسرحية: "الوقت ليلٌ، يظهر عزرائيل ويُسلط ضوء كشاف المسرح عليه، يهبط في وسط المسرح بثوبه الأسود وبيده منجل.

- عزرائيل: جئت لأقبض أرواحكم؟ هل أنتم مستعدون؟

يُسلط الضوء جهة اليسار من المسرح، حيث يرقد الشخص الرأسمالي على فراش الموت "حسن طوت Hasan Tot"، وهناك منضدة صغيرة على جانب سريره، وخلفه مباشرة حامل مُعَلَّقٌ عليه محلول، ديكور المسرح عبارة عن هذا كله.

- الرأسمالي: انتظر! دقيقة واحدة!

- عزرائيل: واعجباه! كلكم تقولون الشيء نفسه عندما تأتي هذه اللحظة".

علقت بشكل لا إرادي:

- "الختم السابع ((The Seventh Seal".

لأنني تذكرت أنني سمعت شيئًا شبيهًا بهذه الجمل الحوارية تقريبًا من فيلم "الختم السابع"، من إخراج "إنجمار برجمان" 1957.

فرد "بولنت" بأسلوب حاد:

- نعم، أرسلت نسخة إلى "برجمان".

قلت مسرعًا:

- تهانِيَّ!

ضحكت "فوليه" ضحكة مكتومة في صمت، وهكذا ضاعت هيبة المجلس.

وبعد لحظة، بدأ الجميع يعرب عن آرائه وتقييماته عن المسرحية بصوت عالٍ: "من أين نفهم أن الوقت ليلٌ؟ أليس للشخص الرأسمالي هذا أحد من الأقارب يجلس بجانبه؟ لماذا يتكلم عزرائيل بصيغة الاحترام "أنتم" و"نحن"؟ هل كان مهذبًا إلى هذه الدرجة؟".

أخذ "بولنت" يحاول إجابة تلك الأسئلة، لكنه سرعان ما انزعج وغضب منهم مع مرور الوقت. وبعد فترة، تعالت الأصوات بشكل ملحوظ، وبدأت مناقشات ومداولات ثنائية وهمز وإشارت متبادلة بين الحضور، و"تولاي" جالسة في زاويتها المعتادة تراقب المشهد في صمت، أمَّا "جوركان" فكانت تتجادل مع أحدهم، وتنظر إليَّ من حين لآخر نظرات يتطاير منها شرارة الكره.

في تلك الأثناء طرق الباب، فأسرع "سنان" ليرى من القادم: - أرى أنكم قد بدأتم بدوني، لكن من الواضح أنكم لم تنجزوا شيئًا في غيابي.

التفتنا جميعًا نحو صاحب الصوت الذي ارتفع فوق أصوات الموجودين، كان شخصًا نحيفًا ممشوق القامة كوتر القوس ويشع الذكاء من عينيه الضيقتين بعض الشيء، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة تهكمية تكاد تكون متعجرفة، إنه "عبدُل" المشهور، وقد دخل واستعرض عنتريته.

قال "بولنت":

- تعالَ واجلس هنا، كنا نتناقش في المسرحية.

أخذ "عبدُل" ينظر إليّ من أعلى إلى أسفل، ثم جلس بجانبي.

عاد "بولنت" إلى الموضوع قائلًا:

- في الحقيقة، كنت أود البدء في التأليف الدرامي اليوم، لكني أرى أن هناك بعض علامات الاستفهام المتعلقة بهذه المسرحية. على أية حال، لو كان هناك أحد لديه اقتراحات أخرى فليتفضل، لنستمع.

ربما كانت هناك أفكار تدور في أذهان الجميع، لكنهم بَدَوْا وكأنهم يفضلون الصمت وعدم الإدلاء بآرائهم، لعلمهم أنهم سيُسألون عن مبرراتهم وأسبابهم. تأملت "عبدُل" بطرف عيني لكي لا ألفت انتباهه إلى أنني أراقبه، كان يضحك بملء فيه، ولا يعلم أنه سيُقتل بوحشية بعد أربعين يومًا. أشعل سيجارة على مهله ثم سحب دخانها، وبعد ذلك وضعها على حافة مطفأة السجائر، وتمطى

في راحة واستمتاع، وما إن فتح فمه ليقول رأيه، قلت دون أن أعطيه فرصة للحديث: - "الترميناتور – المدمر".

تحولت نظرات الجميع إليَّ، باستثناء "عبدُل".

في البداية، كانت نظراتٍ تملأها الدهشة، وسرعان ما تحولت لتنبعث منها شرارة نار، فقلت: - أنا جاد في قولي. في رأيي، ستكون مسرحية لافته للنظر للغاية.

ما إن نطقت بهذا، أدركت الخطأ الذي ارتكبته، ولكن بعد فوات الأوان.

قالت "جوركان" متلذذةً:

- لو أفرغنا شاحنة من روث البهائم وسط ميدان "بشكطاش"، فسيكون ذلك أيضًا أمرًا لافتًا للنظر، لكن بكل تأكيدٍ هذا لا يعني أنه أمر حسن وصائب.

رددت عليها قائلًا:

- في الواقع، هو أمر مرتبط بالشخص الذي يرتكب الفعل، فمثلًا لو فعلها "آندي وارهول" لكان فنًا، لكن لو فعلتِها أنتِ، نعم معك حق، ستكون النتيجة شاحنة روث ليس إلا.

ارتجفت شفتاها، وأخذت تَهذي بأشياء سخيفة:

- "آندي وارهول" مات وانتهى الأمر.

أفحمها "عبدُل" بجوابه السريع:

- ولذلك لا يخلو الوسط من الروث.

توترت الأجواء بشكل لا يوصف، وحاول الجميع أن يفهم؛ هل جئنا لنتبادل الأفكار بشكل ديمقراطي، أم للتمرد وإحداث الشغب؟ تابع "عبدُل" حديثه قائلًا: - "الترميناتور – المدمر" هي أسخف فكرة سمعتها في حياتي.

كانت الضربة قد أتت من مكان لم أكن أتوقعه على الإطلاق، فتنحنحت محاولًا الهدوء وتمالك أعصابي: - أرى أنه يمكننا تناول "الترميناتور" كنقد لمجتمعات ما بعد الرأسمالية، والاستخدام المفرط للماكينات.

قطع "عبدُل" كلامي:

- الشيء الذي يُدعى "ما بعد الرأسمالية" هذا هراء وكلام فارغ؛ إنها فقط محاولة لاستنفاذ طاقة القوى الثورية، وتأجيل الحلول لمستقبل خيالي مبهم، إنها كذبة برجوازية نمطية، الرأسمالية هي الرأسمالية، فبينما تنتظر اليوم الذي سينزل فيه "عيسى" لإنقاذك، سيستمرون هم في استعمارك، لذلك أُعجبت كثيرًا بالمسرحية التي كتبها "بولنت"، فهي تمنحنا الشجاعة لنقف أمام الوجه الآخر للمرآة، ونواجه صورتنا الحقيقية بكل وضوح. في رأيي، علينا إخراج هذه المسرحية وتمثيلها بكل تأكيد.

لُجِمَ لساني، ولم أعرف ماذا أقول. استدرت ونظرت إلى البقية، فلم تبدُ آراؤهم مختلفة كثيرًا عن "عبدُل"، وخاصة "بولنت" الذي بدا وكأنه يحاول أن يتكهن ما كان يقصد "عبدُل" بقوله: "الوقوف أمام الوجه الآخر للمرآة". إن المدعو "عبدُل" - عديم الشرف هذا - قد قلب أفكار الجميع رأسًا على عقب، وكان يقوِّي موقف "بولنت" بدعمه له في أكثر موقف بدا فيه ضعيفًا.

قال "بولنت":

- حسنًا، لنرَ ما رأي البقية في هذا الموضوع؟

وبما أن رأي كلٍ من "تولاي" و"جوركان" و"عبدُل" واضح، فإن هذا السؤال كان موجهًا لـ"قدير" على أغلب الظن.

حكّ "قدير" رأسه وحاجبيه وحافة شفتيه، ثم قال:

- بالطبع يمكننا تمثيلها، لمَ لا؟ لكن، لديَّ بعض الملحوظات الصغيرة حول النص، لنتحدث فيها لاحقًا.

بعدما أدلى "قدير" برأيه، انسل الجميع وراءه كما ينسل خيط الجورب بعد أول فتق فيه. تمت الموافقة سريعًا على المسرحية، ومرت الساعة المتبقية في قراءة ذلك النص المليء بحوارات سخيفة لا لون لها ولا طعم، والتي ستفقع حتى المُولَعِين بالسينما، وستصيبهم بالضيق والملل. وبعدها قرروا الانصراف إلى لقاء آخر يوم الأربعاء القادم للتحضير لأعمال التأليف الدرامي، وعندما وقف الجميع للانصراف، ذهبت إلى "صفوت" وقلت له: - ماذا ستفعل؟

هز كتفه:

- لا شيء، سأذهب إلى المنزل.

- لنذهب ونشرب شيئًا في أي مكان، ما رأيك؟

تعجَّب "صفوت" لطلبي هذا منه، حيث إنه كان غريبًا عليَّ أن أشرب وأسهر في الخارج، فقال: - أنا متعب قليلًا، كما أن والدتي ستسافر خارج البلاد غدًا، وستمكث مدة طويلة، لذا فمن الأفضل لو قضيت الليلة معها.

كنت أعلم أن "صفوت" يهوى مثل هذه الطريقة من الحديث على العكس مني - على الأقل، على عكس شخصيتي في تلك السنوات - ظننت أن "صفوت" ربما سيأخذ مني جانبًا بسبب موضوع "عبدُل"، فقلت: - ليكن ما تريد، نتقابل غدًا. كما أن هناك بعض الأشياء التي يجب أن نتحدث فيها عاجلًا أم آجلًا.

في تلك الأثناء شعرت بأحدهم يضرب على ظهري، إنها "فوليه".

قالت ضاحكة:

- تقترح "الترميناتور"؟ مجنون حقًا!

- سنذهب غدًا لنشرب شيئًا أنا و"صفوت"، هل تأتين معنا؟

قالت بكل سرور:

- بالطبع آتى معكم. (ثم استدارت نحو "صفوت") إلى أين سنذهب؟

قلت لهما:

- حددا المكان وأخبراني بعدها.

في تلك الأثناء، كان "عبدُل" خارجًا على عجلة من الباب فلحقت به، وأمسكته من ذراعه بخفة، وقلت له بصوت منخفض: - أنت لا تصدق أي

شيء مما تقول.

التفت نحوي، وحدق بي بنظرة حادة، لكن سرعان ما لان جانبه ومال إلى أذني مبتسمًا، ثم همس قائلًا: - وأنت أيضًا مثلي.

5

شيءٌ ما في الطريق

Something in the Way

خرج الجميع من الحي الواقع في الضواحي الخلفية لـ"أورطه كوي"، وسلك كل منهم طريقه إلى الساحل. لوهلة، قمت بتقييم وضعي وبعدها قررت الذهاب إلى والدتي؛ رأيت أن هذا أفضل شيء، لأن "نرجس" قالتها صراحةً: "إنها لا تريد رؤيتي"، وكان الوقت قد تأخر كثيرًا حتى أجد مكانًا في المدينة الجامعية، كما أن الأريكة التي كنت أرقد عليها في النادي الفولكلوري بالجامعة، غير مريحة بالمرة، وبالتأكيد كنت في حاجة لحمام ساخنٍ.

يقع منزل والدتي في حي "قاضي كوي" بالجانب الأسيوي، لكنني لستُ متأكدًا من أن النقود التي بجيبي ستكفي لركوب تاكسي، كما أنه لم يكن من المنطقي كثيرًا، أن أسرف في صرف النقود ووضعي المادي شائك وملبد بسحب الغموض هكذا، باختصارٍ حياة الدراسة كانت صعبة والسلام.

على كل حال، وجدت بمحفظتي العديد من بطاقات الاشتراك التي يمكنني استخدامها في المواصلات العامة، والتي بفضلها وصلت مباشرة إلى "بشكطاش" في خمس، دقائق ومنها إلى المحطة التي تنطلق منها الأوتوبيسات المتجهة إلى "قاضي كوي". لحسن حظي، لحقت بأوتوبيس "بشكطاش - قاضي كوي 101" وهو على وشك الانطلاق. ركبت، وبينما أحاول شق الزحام داخل الأوتوبيس لأتقدم نحو المقاعد الخلفية، إذ وجدت أحدًا جالسًا على إحدى المقاعد الموضوعة بشكل عكسي، بحيث يكون ظهرها لكرسي السائق ووجهها للركَّاب، شدني من طرف جاكيتي فجأةً: - أنت! انظر هنا!

- "عبدُل"!

كان جالسًا وعلى قدميه صندوق غريب.

ضرب على المقعد الخالي بجانبه ضرتين خفيفتين:

- تعالَ هنا يا صديقي.

فجلست بجانبه، وشعرت بالقليل من التوتر الذي لم أعرف مصدره. جلسنا لفترة في صمت، وحاولتُ أن أجد موضوعًا ما لنتحدث فيه، وسألته قائلًا: -

هل أتيت إلى المحطة بالتاكسي؟

فلم يجبني.

- أنا ذاهب إلى منزل والدتي في حي "أجيبادم ((Acıbadem" بـ"قاضي كوي"، هل تسكن أنت أيضًا في "قاضي كوي"؟ سمعت أنك قادم من أنقرة...

وهكذا أخذت أهذي بالكلام.

قال "عبدُل" بصوت عالٍ، مشيرًا بيده نحو الركاب الجالسين أمامنا: - انظر إلى أولئك! ما الفرق بينهم وبين الحيوانات؟ هلَّا قلت لي؟

وبينما أنتظر متخوفًا من رد فعل الركاب الجالسين أمامنا، والذين سمعوا هذا الكلام بكل وضوح، تابع هو حديثه وقال: - يأكلون ويشربون ويتزاوجون وسط الحشائش.

نعم، أهلًا وسهلًا بالمصيبة التي حلَّت على رؤوسنا! في حقيقة الأمر، لم أعترض على رأيه هذا فأنا مؤيد لنظرية التطور، ولكن لديَّ شك بدرجة كبيرة في أن أصدقاءنا الركاب، سيمنحون المسألة التصنيف العلمي نفسه. أخذت أتفقد الأرجاء من حولي يمينًا ويسارًا باحثًا عن أي شيء يمكنني استخدامه كسلاح ضد أي اعتداء محتمل من هؤلاء، حينها تنحنحت قائلًا: - وهل يتبادر على ذهنك اسم حيوان بعينه؟

قال "عبدُل" منشرحًا:

- انتظر لحظة لأفكر!

واضح أن سؤالي قد نال إعجابه كثيرًا، فأشار بإصبعه نحو رجل متوسط العمر كان ينظر إلينا قائلًا: - فرس النهر (سيد قشطة)!

حَسْبَنَ الرجل، ثم قال "يا سبحان اللّه!"، ثم أدار وجهه إلى الناحية الأخرى، وكانت امرأة بجانبه ترطن بكلام مع نفسها، وكان بضعة ركاب يقفون في وسط الأوتوبيس ويتحركون مع حركته، كان الغضب واضحًا عليهم، لكن لم ينطق منهم أحد.

استدار "عبدُل" قائلًا:

- هل تعلم ما هي معضلة فرس النهر؟

- لا.

فسَّر "عبدُل" الأمر أكثر، وكأنه يريد أن يصيب الناس بالجنون حقًا: - إن هذه الحيوانات تعيش بلا هم وبلا كدر، يضعون مؤخراتهم أينما يحلو لهم، ولا تفعل أي شيء سوى التمسكن، وتظل تعيش طوال حياتها ثم تضطر قبل الموت للجواب على سؤال واحد فقط: "هل سأكون طعامًا لتماسيح الماء أم فريسة لأسود اليابسة؟".

- لم يخطر لك هذا المثال قبل الآن، أليس كذلك؟

- وما الفرق؟ لو كان كذلك هل ستحترمني أكثر؟

- لو كان كذلك هل كنت أنت ستحترم نفسك أكثر؟

التفت ونظر إليَّ نظرةً وابتسم، ثم عاود النظر إلى الركاب منتقلًا إلى موضوع مختلف تمامًا: - إن الشيخ في خطبة الجمعة اليوم قد تطرق إلى موضوع غاية في الأهمية: "إن الغرب يبحث في الفضاء عبثًا عن روحه التي افتقدها على وجه الأرض"، بالطبع، لم يقل الخطيب هذا بشكل صريح، لكنه المختصر المفيد من كلامه.

سألته متعجبًا:

- وهل تذهب إلى صلاة الجمعة؟!

قال مصدقًا على كلامي:

- أُفَوِّتها أحيانًا، لكني أحاول دومًا أن لا أتغيب عنها بقدر المستطاع.

- لم أكن أظنك شخصًا متدينًا على الإطلاق.

جاوبني "عبدُل" في جدية:

- لست متدينًا أساسًا؛ ألم أعزف عن الإله بسبب الشك؟ الآن يجب عليَّ أن أشك بالشك؛ حتى أستطيع الحفاظ على توازني الداخلي. ألم يقولوا دائمًا، إذا تقربت إليه شبرًا تقرب إليك ذراعًا؟ ها أنا أفعل ما يقع على عاتقي، لكني لم أرَ من ناحيته أية حركة حتى الآن.

فكرت مليًّا! فعلى الرغم من أن كلامه مثير للإعجاب ووقعه غريب على سمعي، فإنني كنت قد تجاوزت ذلك السن الذي أكترث فيه لكل ما هو غريب عني، على الأقل كنت هكذا حتى الأمس.

- إن كان إلحادك يدفعك لتتصرف كشخص مؤمن ذي عقيدة، فهذا يسمى تناقضًا على حد علمي؟

قال "عبدُل" في برود:

- قلت إنني لست متدينًا، لكنني لم أقل إنني ملحدٌ؛ ديني اسمه الشك.

- هل أنت من هؤلاء المتذبذبين؟

تجاهل "عبدُل" إجابة سؤالي الأخير؛ حيث إنه عاد للموضوع الذي فتحه مرة أخرى: - وكما يرى المسلمون، فإن الغرب لم يحقق أي نجاح مذهل يعادل غزوهم الفضاء، فإذا سألناهم مثلًا: ما الرابط بين بعض النوتات الموسيقية لـ"شوبرت" بالقوة التي تدفع بالصاروخ خارج الغلاف الجوي؟ لكن لا، ففي حين أن الغرب يقوم بثورة فكرية ثقافية عظيمة نصب أعيننا، تجد هؤلاء الناس من ناحية أخرى يبرعون في التظاهر بعدم رؤية هذا وتجاهله، بل والتحقير منه بمهارة شديدة، بل وربما أيضًا يرونه شيئًا بسيطًا!

سافر الغرب إلى الفضاء، ومنذ ذلك اليوم أصبح المسلمون عندما يرفعون رأسهم ناظرين إلى السماء، يفكرون ليس في الإله فقط، وإنما أيضًا في الأقمار الصناعية التي تسبح في السماء، تلك التي من صنع الملحدين.

في تلك الأثناء قام أحد الركاب من مقعده، وإذا لزم التوضيح أكثر فإنه كان الرجل الشبيه بفرس النهر، قام ومرَّ من جانبنا متجهًا إلى السائق وأخذ يهمس بأشياء في أذنه، وهو ما أقلقني للغاية، خاصة عندما اكتشفتُ أننا قد تجاوزنا كل المنحدرات، وتقدمنا للصعود مباشرة إلى مطلع جسر "البوسفور". لم يكن

"عبدُل" من سكَّان ذلك المكان، ومع ذلك فإنه لم يبالِ ومضى متحدثًا، تمامًا كمن وضع قدمه على دوَّاسة البنزين ولم يرفعها: - وها قد جاء اليوم الذي تطرَّق فيه الخطيب بالحديث عن مغامرة الغرب في الفضاء. ظننت أن المسلمين قد بدؤوا يتجاوزون تلك الصدمة: "يبحثون في الفضاء عن روحهم التي ضاعت منهم على سطح الأرض"، كم تبدو هذه العبارة عزاءً مسكينًا! لكنها ليست كذلك على الإطلاق؛ خطيب الجمعة ينادي على جماعة المسلمين ويقول لهم: "كفوا عن تأمل هذه الأجواء، ولا تنتظروا منها شيئًا! وصونوا أرواحكم على هذه الأرض! فالوسط فارغ أمامكم والأرض تنتظركم"! مختصر الكلام هو أن ما رأيته اليوم هو ثقة في النفس مكسوة بلحم على عظم.

عاد فرس النهر إلى مقعده، وأخذ يتهامس مع المرأة الجالسة بجاوره ويتبادلان الضحكات، كنت مدركًا الخطر لكنني مسلِّمٌ لما سيحدث.

سألته قائلًا:

- وما مصدر هذه الثقة في رأيك؟

ضحك "عبدُل" ضحكة صاخبة:

- من أين سيكون مصدرها؟ الأسلحة الأمريكية بالطبع... إذا كنت لا تصدق، فاذهب واسأل الجنود الروس الذين كانوا يحاربون في أفغانستان، والفاتحة على روح "يوري جاجارين"!

في تلك اللحظة، توقف الأوتوبيس بفرملة مفزعة وسط الجسر بالضبط، وبعد صدور ثلاثة أصوات لاحتكاك العجلات بالأرض، فُتح الباب الأمامي وقام السائق من مقعده متوجهًا نحونا: - انزل يا أحمق أنت وهو!

هبَّت عاصفة الأدرينالين في جسمي النحيف، في حين كان "عبدُل" ينظر من النافذة في هدوء تام، قائلًا وهو يطبطب بشفقة على الصندوق الذي بحضنه: - نشكرك! ولكن لم نصل بعد إلى المحطة التي سننزل بها.

بدأ السائق عريض المنكبين ضخم الجسم هذا يشتعل غضبًا، وصرخ قائلًا: - أيها الطائش! إذا لم تنزلا سريعًا، فسأسحقكما تحت قدميَّ.

نظر "عبدُل" إليه بلطافة متصنعة:

- قل لي يا خال! هل أنت سعيد الحظ هكذا دائمًا؟

ضرب السائق قدمه بالأرض بشدة بأسلوب تهديدي، وصرخ قائلًا: - جزمة!

لكنه بدا عليه القلق من تصرفات "عبدُل" المفرطة في الهدوء.

استدار "عبدُل" نحوي قائلًا:

- ها أنت ترى يا صديقي، الحياة دائمًا عبارة عن بحث... إن شئت فهناك الباحثون عن روحهم، وإن شئت فعن شياطين تبيع روحهم، وإن شئت فعن غصن يتمسكون به، ومعنىً يضفونه على حياتهم، حتى يحسون أنفسهم مثل بني آدم قليلًا - مثل حالتك أنت - وبالطبع، دائمًا ما يبحثون في المكان

الخاطئ. لكن انظر! هذا السائق لا يشبهكم، فهو يبحث عن مصيبته، كما أنه في المكان الصحيح!

قامت مجموعة من الركاب من مقاعدهم، متجهين نحونا ويتقدمهم فرس النهر، أخذوا يلقون علينا بوابل من الإهانات والتهديدات. حدثت نفسي؛ حسنًا، لا مفر سنذوق علقة لا محالة، وبعدها ستقبض الشرطة علينا في وسط الجسر بالطبع لأنه مغلق للمشاة، وستكون في انتظارنا ليلة سنقضيها في الحبس كأبسط احتمال. وهكذا كان السائق يستمد القوة ويستلهم الروح المعنوية من تلك القوات المعتدية، وبدأ في الاشتباك مع "عبدُل" حيث أمسكه من طرفيْ ياقته بيديه الاثنتين.. وفي ذات اللحظة، سحب يده بصرخة شديدة موجعة، صرخ هذا الرجل صرخة مدوية، لدرجة أن السيارات المارة بجانبنا توقفت فجأة في مكانها محاولة فهم ما يحدث.

استدرت نحو "عبدُل" وقد حدق بعينيه في السائق دون أن يتحرك شبرًا من مكانه، وإذا بالصندوق الذي بحضنه يُفتح غطاؤه ويخرج منه ثعبان يطل برأسه المشدودة كالقوس، ويلف بجسمه كله بحركات ملتوية حول ذراعه! قام السائق ليهاجم "عبدُل" مرة ثانية، ويبدو أنه لم يكن قد أدرك ما حدث إلى أن رأى الثعبان بالقرب من أنفه. نظر إلى معصم يده فرأى لدغتين صغيرتين من الثعبان تنزف دمًا، على إثر ذلك انهال واقعًا مكوَّمًا على الركاب الجالسين أمامه: - ثعبان! ثعبان! لدغني يا ابن العاهرة!

قام الجميع من أماكنه، وبدأت النساء تطلق صرخاتها. قام "عبدُل" ببطء على مهله، وقال وهو يمد الثعبان الملتف حول ذراعه نحو الرجال الآتين للهجوم

علينا: - اهدؤوا! هذا ثعبان يوزجاتي سمه يقتل خلال نصف ساعة، لذا الزموا أماكنكم.

سرعان ما تحول هؤلاء - الذي كانوا ينتوون الاعتداء علينا - من وضعية أبطال منقذين للوطن إلى شعب مظلوم مسكين، ونفذوا أمر "عبدُل".

من جانب آخر بدأ هذا السائق ينوح متوجعًا وهو يعلم أنه سينتقل إلى رحمة الله خلال نصف ساعة، فذهب "عبدُل" إلى جانبه، وقال واضعًا يده على صدره: - وأنت أيضًا أيها الخال، اهدأ! فلو توترت سيسريِ مفعول السم بشكل أسرع.

وقتها سمعت أنات مبحوحة تخرج من حلقه، وعيناه شاخصة كالمحتضر، محاولًا التقاط أنفاسه في حالة من الهلع: - لو تحب الله! لو تحب الله!

فقال "عبدُل":

- لا تقلق سأنقذك، وسنكون في المستشفى خلال عشرين دقيقة.

ثم التفت إلى الركاب قائلًا:

- لا محل هنا للقلق، فسنكمل طريقنا كما هو معتاد وعلى خط السير نفسه. اجلسوا في أماكنكم بهدوء، لا تُحْدِثُوا بلبلة، ولا تقفوا على سلالم الأوتوبيس، ولا تنسوا أن تضغطوا على زر إيقاف الأتوبيس قبل أن تأتي المحطة التي ستنزلون فيها.

وقع حظي مع زعيم المجانين بالمعنى الحرفي للكلمة، وفي الغالب، كنت في وضعية المتواطئ معه، لاسيما عندما رأيت موتوسيكلات قوات الشرطة وهي تقترب منَّا، ساعتها لم يبقَ لديَّ أدنى شك في أن هذا الأمر سوف ينتهى بمصيبة.

أمَّا "عبدُل" فذهب، وجلس على مقعد السائق وهو في غاية الهدوء والطمأنينة، وأشعل محرك الأوتوبيس بالمفتاح، ثم قال مطلًا برأسه من النافذة: - لا تؤاخذني يا حضرة الضابط! فهناك أحد الركاب قد ساءت حالته، وعلينا نقله إلى المستشفى في أسرع وقت ممكن.

عندما سمع فريق قوات الشرطة خبر حالة الطوارئ، مروا مصطفين أمام الأوتوبيس، وفتحوا الطريق لنا بكل سلاسة ويسر، ورافقونا حتى الضفة الأخرى من الجسر. وبعدما وصلنا إلى المحطة التي تبعد مائة متر بعد الجسر، وتجاوزناها بمائة متر آخرين، أوقف "عبدُل" الأوتوبيس واستدار نحو الركاب: - وماذا بعد؟ أليس من بينكم من سينزل؟

لم تصدر أية حركة من أي أحد إطلاقًا، وكأنهم جميعًا مصرون على الاستنفاع ببطاقة الاشتراك حتى نهايتها، حتى في ظل هذه الظروف الاستثنائية، فتابع "عبدُل": - حسنًا إذًا، لدي سؤال آخر لكم؟ هل من بينكم أحد رأى ثعباني؟

وما إن سمع أصدقاؤنا هذا السؤال، حتى قاموا بإخلاء الأوتوبيس في سرعةٍ يمكن أن تدخل موسوعة "جينيس" للأرقام القياسية، وبعدها بقينا أنا و"عبدُل" مع سائقنا المسكين الذي يئن منكمشًا في زاوية.

تابعنا الطريق، وفي تلك الأثناء، أبرز "عبدُل" للرجل المسكين ثعبانه الملتف على ذراعه الأيسر ضاحكًا: - لا تخف يا خال!

سألته:

- ماذا تظن نفسك فاعلًا؟

- الوضع هكذا أفضل. سأسرع الآن، وسوف نتمكن من الإفلات بسهولة من الشرطة، وسنكون قد رحلنا من هنا خلال عشر دقائق.

- لا أسألك عن هذا، هل أنت مدرك لما تفعله؟

- بالتأكيد مدرك، أنا ذاهب إلى المنزل.

أي كلام سأقوله لكي أرجعه إلى عقله، سيصبح هباءً لا طائل منه، فكان أفضل حل هو إيجاد طريقة للتخلص من أيدي هذا المختل عقليًا واجتماعيًا في أسرع وقت ممكن.

- إذًا، أنزلني أنا أيضًا تحت جسر "أجيبادم".

كسر "عبدُل" الطريق، وقال:

- حسنًا.

كسر "عبدُل" كل قواعد المرور ضاربًا بها عرض الحائط، وفي خمس دقائق كان قد أوصلني إلى المحطة التي سأنزل بها.

أوقف الأوتوبيس وفتح الباب.

- تصبح على خير، إلى اللقاء يوم الأربعاء.

قبل أن أنزل، عدت وألقيت نظرة على السائق، كان المسكين يدعو الدعاء تلو الآخر وعيناه تذرف الدموع.

دنوت من "عبدُل"، وسألته بصوت منخفض:

- ماذا ستفعل بهذا الرجل؟ هل هناك مستشفى أو ما شابه في طريقك؟

إن إعفائي من جرائم التهديدِ والهجومِ وجرحِ الرجلِ، والاستهزاءِ علنًا من القيم والأعراف المجتمعية، بات بعيدًا الآن، لكني لم أود أن أحاكم بالتواطؤ معه في تلك الجرائم بتاتًا، فقررت أن أتركه.

ضحك "عبدُل" بملء فيه ضحكة خبيثة:

- لا يوجد مستشفى أو ما شابه، ومن لطف الله أنه لا يوجد كذلك شيء يُدعى ثعبان "يوزجاتي" سام.

لم تكن أنوار منزل والدتي مضاءة. تقيم والدتي في شقة تقع في الدور الأرضي من العمارة، لا بد أنها قد نامت. أخرجت مجموعة مفاتيح من حقيبتي وكان بها سبعة أو ثمانية مفاتيح، وبعدما جربت الثلاثة المناسبين من بينها أكثر من مرة، نجحت أخيرًا في إدخال المفتاح الصحيح في الباب ودخلت في صمت. ذهبت إلى آخر المنزل على أطراف أصابع قدميَّ، لألقي نظرة على حجرة نوم والدتي، لم أجدها لا في سريرها ولا في أي مكان آخر

بالمنزل؛ لا بد أنها ذهبت إلى خالي أو خالتي لقضاء نهاية الأسبوع عندهم، بعدما فقدت الأمل في عودتي. أخذت نفسًا عميقًا وفكرت أنه كلما أخرت مواجهتها لكان أفضل، فضلًا عن أنه لا حاجة لتأنيب الضمير، والإحساس بالذنب لشعوري هكذا تجاهها، لأن موقفي هذا لم أتخذه ضد أمي فقط، وإنما ضد العالم بأكمله.

أضأت كل الأنوار، وأخذت أتفقد أرجاء المنزل. كان على الحالة القديمة تلك قبل أن تقوم والدتي بتجديده كلية؛ الأبواب القديمة، والمفروشات القديمة، والزخارف والزينة القديمة.. معظم ما فيه من أثاث يرجع للسنة التي تزوجت فيها أمي. ابتسمت ابتسامة لا إرادية عندما رأيتُ "الووكمان" فوق مكتبي الصغير في حجرتي، وكان موصولًا بسماعتين صغيرتين في حالة لا بأس بها، ضغطت على زر التشغيل وأنا مبتهج، لحظتها، تعالى صوت شجن؛ إنه صوت "مظهر آلانسون": "الفراغ الذي أمامك.. ذلك الذي تراه.. هلَّا دفعته قليلًا؟ دفعة أخرى أرجوك!.. جيد هكذا.. الآن اعبر من خلاله.. اعبر بسرعة...".

ألقيت بنفسي على سريري دون أن أخلع ملابسي، وشعرت بحمل ثقيل يجثم فوقي بطريقة مخيفة، فجسمي يتراخى، وجفون عيوني تتثاقل من شدة النعاس، ومن ناحية أخرى، بداخلي هاجس يقلقني نابع من أنني لم أكن أعرف، بعدما سأغلق عينيَّ هذه المرة مستغرقًا في النوم، فأين ومتى وفي أية حالة سأفتحهما؟ لكن، ليس هناك أية فائدة أو تأثير لهذا الخوف على "فريدي كريجر" الذي يقتل الناسفي احلامهم.

أحلم الآن بأنني في ساحة خضراء أو في حقلٍ، تخطف عينيَّ زهرةٌ ذات بتلات كبيرة بيضاء اللون، أنحني نحوها وأتفقدها، فإذا بنحلة في وسطها

تحلق وتدوي بطنينها، أنظر إليها، فتدور وتحلق ناظرة إلي هي أيضًا. النحلة لها وجه طفلة! طفلة ذات عينين واسعتين، وخدين كبيرين، ملامح وجهها فيه تعابير حزن أو خيبة أمل. أمد يدي إليها، تنظر إليَّ قليلًا ثم تطير وتذهب، وبينما تختفي وتغيب عن نظري، أئن أنينًا، وأقول من خلفها: "زينب".. ابنتي!

عندما استيقظت من النوم، أحسست بدقات قلبي المتسارعة، هذا الإحساس كان طبق الأصل من البكاء، لكنه بكاء بلا دموع، فقط اضطراب وضغط عالٍ مخيفٌ، يسري من الجزء الأسفل من دماغي وحتى جبيني.. لا بد أن النهار كان قد طلع.

ظل جهاز "الووكمان" يشغل أغاني ألبوم "جاؤوا (Geldiler)" لفرقة الروك التركية "مظهر، فؤاد، أوزكان" MFÖ، منهيًا أغنية وبادءًا أخرى، وذلك حتى الصباح. نهضت من السرير، وأوقفت الشريط، وأخذت أفكر مع نفسي: أي هراء أكلت حتى أنسى ابنتي بهذه السرعة؟ أليس لـ"زينب" أي وجود الآن؟ ألم تكن ستأتي أبدًا؟ وحتى لو تزوجت بـ"نرجس"، وأنجبنا طفلة فستصبح تلك الطفلة هي "زينب"؟ بأي نسبة كان هذا التفكير منطقيًا؟ حسنًا، مادام الأمر هكذا، فلماذا ألوم نفسي وأعاتبها، وكأنني أنا من طلبت الرجوع لـ 1994؟

هل وقعت في هذا الوضع بينما كنت أنقذ ابنتي؟ أم أن شعوري بالذنب هذا نابع من تفكيري في سؤالٍ عمَّا إذا كان هناك ما يستدعي شعوري بالذنب من عدمه؟ أريد أن استعيد ابنتي، مهما كانت النتائج.

عدت إلى السرير مرة أخرى، وأغلقت عينَيَّ بإحكام، لعلي أغرق سريعًا في النوم، وأعود مجددًا إلى العالم الذي فارقته قبل يومين. حقًا، ماذا كان آخر شيء تركته خلفي؟ آخر شيء أتذكره، هو أنني كنت أموت. قفزت من سريري مضطربًا مرة ثانية؛ علَّي أجد طريقة لكي أُعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ومن ثم أعيد "زينب" إلى الدنيا، ومع الأسف، لم يخطر على بالي حلٌ جيدٌ سوى الانتحار. حسنًا، بإمكاني تطبيق هذه الخطة عندما يحين وقتها، كما يمكنني قضاء المزيد من الوقت هنا بشكل مؤقت، منتظرًا لأرى ما ستؤول إليه الأمور، ولو حدث شيء، فيمكنني أن أحاول اكتشاف السبب الملعونِ وراء كل ما عشته هذا.

لم أستطع تذكُّر رقم تليفون المنزل الذي كنت أسكن فيه مع "نرجس". تفقدت النوتة لربما سجلته ونسيت، لكن لم أجده أيضًا. وقتئذ، خطر "يامان" على بالي، فاتصلت بمنزله، رد والده عليَّ، وأخبرني أن "يامان" ذهب للتخييم في معكسر مع أصدقائه، وأنه سيعود إلى "اسطنبول" نهايةَ الأسبوع المقبل. وعلى الرغم من أنه أتى على عقلي للحظةٍ أن أقول له: "أبلغ ابنك بألا يهمل شدَّ حزام أمان السيارة أبدًا طوال حياته"، فإنني أدركت أن هذا سيكون تدخلًا ضعيفًا في القدر، فتراجعت. قلت له أنني سأعاود الاتصال به مجددًا وأنهيت المكالمة.

يا تُرى، هل حدد "صفوت" و"فوليه" موعدًا من أجل المساء؟ طلبت "صفوت"، لكني أنهيت المكالمة قبل أن يرن التليفون، واتصلت بـ"فوليه"، وبدأتُ المكالمة بطلعة جدية واثقة: - عمتِ صباحًا يا مولاتي.

- الرقم خاطئ!

اتصلت مرة أخرى.

- يا "فوليه" أنا "عزيز".

- عذرًا! استيقظت للتو.. لذا لم أفهم فجأة الكلام الذي قلته.

- صباح الخير. أخبريني ماذا فعلتم بالأمس؟

- لا شيء، عدت إلى المنزل. وأنت ماذا فعلت؟

- خطفت أوتوبيسًا مع "عبدُل"، وبعدها ذهبت لمنزل والدتي.

- امهم... جيد.

ثم تثائبت.

يجب عليَّ أن أراجع مفهوم المزحة لدي، وطريقة توصيلي الفكاهات بكل تأكيد، على الأقل أثناء حديثي مع "فوليه"، فكانت هذه هي المرة الثانية التي لم أستطع فيها أن أحصل على ردة الفعل التي أريد.

- وماذا بعد؟ هل سنتقابل هذا المساء؟ هل قررتما شيئًا؟

- لا والله! قلنا سنتحدث غدًا وافترقنا.

- امهم... حسنًا، اسمعيني، تعالوا إلى هنا في "قاضي كوي" نذهب إلى أي مكان في شارع "بارلر" (الحانات)، كما أنه سيكون تغييرًا.

- موافقة. هل الساعة الثامنة موعد مناسب؟

- مناسب تمامًا.

لو كان عليَّ، فأفضل موعدًا بعد نصف ساعة، لكن على أغلب الظن كان هذا سيبدو طلبًا مبالغًا فيه.

قلت:

- إذًا، نتقابل أمام سينما "ري إكس إكس" الساعة الثامنة. لو سمحتِ، أخبري أنت "صفوت"، اتفقنا؟

- حسنًا.

ثم أنهت المكالمة.

نظرت إلى الساعة، إنها الحادية عشرة صباحًا، لا يزال أمامي الكثير من وقت الفراغ الذي يمكن أن ألهو وأتسلى فيه. وبعد حمام طويل، وفطور سريع، جلست أمام التليفزيون، وبدأت أقلب القنوات التي يمكن أن يقال إن عددها كان قليلًا بالنسبة لما ستكون عليه بعد عشرين سنة. علقت لمدة مع إحدى حلقات تذاع مجددًا من المسلسل الكوميدي الطريف "سميث وجونز (Smith ve Jones)"، الذي أتذكره منذ الطفولة، وبعده، حولت على فيلم أمريكي من الخمسينيات، وفي النهاية، قلت لنفسي: توقف لنرى ماذا يجري على الساحة المحلية والعالمية، فرجعت وثبت على نشرة الأخبار.

وهكذا علمت - أو تذكرت - أن الانتخابات المحلية ستُجرى بعد شهر بالضبط، أي في تاريخ 27 مارس 1994. بدأت النشرة بسرد أخبار الأحزاب المرشحة للانتخابات، وأماكن التجمعات الجماهيرية التي ستعقدها، وبعدها تابعت

أخبار نشوب حريق في مصنع آيس كريم، ثم كارثة زلزال حدث في المدينة الفلانية، وأخيرًا جلسة قضائية لمحاكمة إرهابيين متهمين بقتل عشرة أشخاص ببندقية آلية؛ يعني كان يومًا عاديًا وطبيعيًا للغاية بالنسبة لبلدنا الجميل تركيا.

أتذكر جيدًا الانتخابات التي كانت موضوع الساعة وقتها، فيمكن تصوير المشهد الانتخابي وقتذاك هكذا: توقعات أعلى نسبة الأصوات كانت ستذهب لصالح التيار اليميني، كما كان يحدث في تركيا ولا يزال حتى ذلك اليوم، على الرغم من أنه انقسم إلى حزبين في أعقاب الانقلاب العسكري عام 1980، وعلى الرغم من أن هذا التيار كان منغمسًا في ظلام مطبق من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية، فإنه كان مصممًا على استمرار بقائه على هيئة حزبين منفصلين، ذلك أنهم لم يبادروا في مشاركة سلطة الحكم بينهما، كما لم يبدُ أن لديهما شكوى من هذا الوضع كثيرًا، فأحدهما يفوز بانتخابات، والثاني بأخرى، وتسير الأمور. توقع أن المشهد لن يتغير كثيرًا هذه المرة أيضًا. علاوة على ذلك، فمن المحتمل أن يقوم الحزب اليساري أيضًا بمفاجئات في المحافظات الكبرى، وكانت الأحزاب الثلاثة لديها منافسون أقوياء خاصة في "اسطنبول"، وحتى لو كانوا قد أجروا بعض المباحثات فيما بينهم من أجل انسحاب أحد المرشحين لصالح الآخر، إلا أنها باءت بالفشل، ولم يخرجوا منها بنتيجة.

وفي ظل هذه الظروف والأحوال، كان الشعب التركي الأصيل سيستيقظ على مفاجأة كبرى بعد هذه الانتخابات؛ حيث إن الحزب الإسلامي سيحصد أغلب مقاعد رئاسة البلدية في "اسطنبول" و"أنقرة"، ذلك على الرغم من أنه

انسل من بين جميع منافسيه، وجاء في المرتبة الثالثة من إجمالي الأصوات، وبعد ذلك اليوم، سيخرج منتصرًا في كل الانتخابات محلية كانت أو برلمانية، وسيقود البلاد إلى نظام استبدادي سلطوي سيعيد إليها الأيام التي كانت فيها ديمقراطية من الدرجة الثانية، ذلك رويدًا رويدًا في البداية، ثم بسرعة القطار بعد ذلك.

أنتم تعلمون، أنه يوجد في طبيعة الإنسان علة "البحث عن المعنى"، وأنا كذلك وجدت نفسي أفكر لا إراديًا في المعنى والسبب الكامنيْن وراء رحلتي هذه إلى الماضي، فلربما هناك معنىً أعظم في تأسيس حياة جديدة. أخذتني الحمية، وقررت فجأة إنقاذ تركيا، لكن سرعان ما هدأت وتراجعت، فكنت مفتقرًا لشيزوفرنيا جنون العظمة، وكذلك العزيمة التي تحفزني على تأدية مهمة كهذه. شرعت في مراجعة الاحتمالات الأخرى الأكثر تواضعًا، كان من الممكن أن: أقيم علاقة جديدة رائعة مع "نرجس" من البداية، وأصبح ممثلًا، وأنقذ حياة "عبدُل"، وأيضًا أقف حائلًا دون وقوع الحادث الأليم الذي سيمر به "يامان"، ولو حالفني الحظ أمنع انتحار "كيرت كوبين" أو أؤجله لمدة على الأقل... من الممكن أن أحصل على حق استغلال موقعيْ الإنترنت "فيس بوك" و"تويتر"!

حقًا، هل بإمكان الإنسان تغيير الماضي؟ بالنسبة لي كنت أغير اللحظة التي أعيشها في الواقع، وأنتظر تطور النتائج كما أتمنى. وفقًا لنظرية "فوضى الكون"، فكما أن خفقان جناح فراشة في الهواء بغابات الأمازون، كان له آثار عظيمة لدرجة التنبؤ بإعصار في أمريكا، فبناء عليه، هل يمكن توقع ما يمكن أن ينتج من خطف مترجمِ رواياتٍ، لأوتوبيس نقل عام؟ يعني؛ هكذا كنت

أوضح سير الأحداث بناء على ما فعلته، فمن الصعب في هذا الوضع التحدث عن ميزة رؤية المستقبل. ربما كان الحظ الوحيد بين يديَّ، هو فرصة إلقاء زهر النرد مرة أخرى، وربما أهم ما أملكه، هو إمكانية رؤية الماضي وليس المستقبل، وربما كذلك، يجب عليَّ أن أسعى لأجد حكاية جميلة للحياة بدلًا من البحث عن نهاية سعيدة لها.

يقولون: "لو علم الشباب لفعل الشيوخ"، أي؛ أن الشباب يكون بلا خبرة ولا تجربة وبالتالي يقع في الخطأ، وعندما يشيخ فإنه يكون قد قتل الدهر خبرة، لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يفعل الصواب لكبر سنه وعجزه، هل هذا الكلام صحيح؟ سنرى.

6

أين نمت ليلة البارحة؟

Where did you Sleep Last Night

لا تزال أمامنا عدة أعوام على إطلاق شركة بيبسي لحملتها الإعلانية "الجيل القادم"، والتي ستُشَيِّع جنازة الجيل "إكس"، مواليد أوائل الستينيات إلى

أوائل الثمانينيات، وكانت فرقة البوب البريطانية "سبايس جيرلز (Spice Girls)" ستجتاح الساحة، معلنة للعالم طيَّ صفحة هذا الجيل بغنائها أغنية لحملة الدعايا الترويجية تحمل الاسم نفسه "الجيل القادم"، وهكذا ستقضي على الجيل "إكس"، وستقول بعدها: هيا ليأتِ من عليه الدور!

لم يكن لدى أحد في حي "قاضي كوي" 1994 خبر عن هذا بعد. في ذلك الوقت، تأسس في حيِّنا الجميل المفعم بالبهجة مكانٌ لتجمع مغني الروك، كبديل للمكان الموجود في ميدان "تقسيم"، إنه شارع "بارلر" (الحانات) الذي تحوَّل إلى جنة لمغني الروك، بعدما كان في حالة يرثى لها على مدار العشرين سنة الماضية، حيث كان مكان تجمع مواليد الستينيات إلى الثمانينيات. لعب حي "قاضي كوي" دورًا كبيرًا في ظهور العديد من الفرق الموسيقية الناجحة، كما خلق لمسة جمالية وثقافية للعديد من دكاكينِ بيع شرائط الموسيقى، التي تستطيعون أن تجدوا فيها شرائط "الديمو" للفرق "الأندرجراوند"، وكذلك بحانات الروك، وفَرشات بيع المجلات العادية والمتخصصة في كل مجال، ومشاغل الحلي والزينة. كان هناك في شارع "بارلر" أشكال وألوان من المجانين ما بين ما هو عصري وما هو تقليدي، وما بين ما هو فوضوي وآخر "جوثيك" ثمل أشبه بعبدة الشياطين، يتجولون بشعورهم الطويلة للغاية، ويرتدون تيشرتات سوداء وحقائب خضراء وبناطيل ممزقة، وكأنهم لم يرتدوا في حياتهم قط بناطيل الجينز ضيقة الخصر واسعة الساق، وكأنهم لم يعيشوا الثمانينيات.

وقفتُ في ذهول أمام سينما "ري إكس إكس"، وأخذت أتأمل آخر النماذج المتبقية من جيلي في مشاعر حزن يخالطها إعجاب وإكبار.

تحدث أحدهم بجانبي قائلًا:

- أريد خمسين جرامًا من الهروين لو سمحت.

كان "صفوت"، وإلى جانبه وقفت "فوليه".

- أراكم قد أتيتم معًا؟

ألقى "صفوت" بيده على كتف "فوليه": - لم نفترق أصلًا.

ضربته "فوليه" على يده قائلة:

- معتوه! تقابلنا في ميدان "بشكطاش"، ثم جئنا إلى هنا.

إن شعور "فوليه" بالحاجة لتفسير سريع لما قاله "صفوت" بأنه في الأصل يمزح، أعجبني بلا سبب.

- أهلًا بكم إذًا. إلى أين سنذهب؟

قالت "فوليه":

- يمكننا الذهاب إلى حانة "غمسيز – بِلَا غَمٍّ"، إنه في آخر الشارع، وصاحبه صديق لي، كما أن أمامه حديقة.

قال "صفوت":

- يا له من اسم عجيب! أراهن أنه مكتوب على الباب "ممنوع الدخول لغير المغمومين".

- هذا هو بالفعل المكتوب على الباب.

ضحكا معًا في آن واحد. بدأنا نتقدم في السير معًا. سألني "صفوت" قائلًا: - ألن تأتي "نرجس"؟

- بنات عمها جئن من "إزمير"، وعليها الاهتمام بهن.

قالت "فوليه":

- إنكما تليقان على بعضكما كثيرًا، كم أحسدكما!

- شكرًا. صحيح، ألا يسكن "عبدُل" ذلك قريبًا من هنا؟ لمَ لا ندعوه ليأتي معنا؟

قالت "فوليه":

- نعم، إنه يسكن بالقرب من هنا في حي "يلديرمني (Yeldeğirmeni)" على ما أظن، لا مانع بالنسبة إليّ، فليأتِ.

رفع "صفوت" يده معترضًا:

- إياكم أن تدعوه! إن حضر ذلك الوغد فسأرحل، ها أنا أحذركم من الآن!

قلت:

- هو ليس وغدًا بالضرورة يا صديقي؛ قضيت معه بالأمس ليلة عجيبة مليئة بالمغامرات، لذا فأنا شغوف لأعرف كيف انتهى الأمر معه.

طبعًا، بعدما قلت هذا، توجَّب عليّ أن أحكي لهم ما جرى ليلة أمس. هممت "فوليه" مبتسمة في دهشة: "يا لك من مجنون حقًا!"، لكن من الصعب القول إن "صفوت" أبدى ردة الفعل نفسها؛ حيث قال بوجه كشر: - يا "عزيز"، ابتعد عن هذا الوغد، فهو ليس سويًا.

في تلك الأثناء، كنا قد وصلنا إلى الحانة، ودخلنا وفي مقدمتنا "فوليه".

دعوني أصف لكم المكان: ظلام وازدحام وضجيج، ودخان سجائر وموسيقى روك "جيمي هيندركس"، وافهموا أنتم الباقي. لوَّحت "فوليه" بيدها، وسلَّمت سريعًا على شاب وسيم ذي شعر طويل، كان منشغلًا بتوصيل كؤوس البيرة للزبائن في البار، الذي يقع على اليسار مباشرة بمجرد دخولكم المكان. رد عليها عامل البار ملوحًا لها بالسلام مثلما فعلت، وبالإشارة نجح في أن يقول لنا إنه سيأتي بمجرد أن ينتهي مما بيده. تأكدنا أن هناك مجموعة تدفع الحساب، وستقوم من إحدى الطاولات الموجودة في آخر البار، ومن ثم توجهنا إلى هناك. إنها زاوية بعيدة عن مكبرات الصوت، والضوضاءُ فيها قليلة نسبيًا. وفي دقيقتين، كنا قد جلسنا على الكراسي الطويلة غير المريحة التي لا ظهر لها ولا ذراعين، وطلبنا البيرة. بصراحة، كانت نيتي حتى تلك اللحظة هي استجواب "صفوت"، وسؤاله عن سبب عدم إخباري ببدء نشاط المسرح مرة أخرى، لكنني لم أرد فعل هذا، فقررت تأجيل هذا الموضوع - على الأقل - بعد شوطين أو أكثر من البيرة. خطف "صفوت" كأسًا من الصينية التي أتت بها النادلة إلينا، ثم رفعه: - في نخب الحب والعشق!

وبعدما قرعنا كؤوسنا، أخذت شربة كبيرة من كأسي، فقالت "فوليه": - ويحك! ما شاء الله تشرب جيدًا!

- في الواقع، شربنا أنا وأنتِ في السابق.

فكرتُ مليًا:

- لا أتذكر أبدًا، متى حدث ذلك؟

- بعد عشرين سنة!!

قطع علينا "صفوت" الحوار قائلًا:

- هل تعلمون كيف حصلت محافظة "ريزا" على اسمها هذا؟

كان صديقي القديم دائمًا ما يفعل هذا؛ ليس لأنه يريد أن يجعل نفسه محط أنظار واهتمام الجميع فقط، بل أيضًا لأنه يعتقد أنه ليس لدى أحد كلام أعمق وأغرب من كلامه.

قالت "فوليه":

- ها هي النوادر الأزلية آتية في الطريق!

. نسبةً إلى "اللاز"، شعوب شواطئ البحر الأسود.

أجاب "صفوت" سؤاله، وقد بدا عليه أنه شعر باستهزاء في نبرة صوتها: - أنا لا أمزح، إنها حقيقة تاريخية.

غمزت "فوليه" لي بعينها غمزة خادعة مراوغة، وقالت: - بالطبع هي كذلك!

أظن أن ذهنها قد علق بالشيء الذي قلته لها قبل قليل، من أننا قد تقابلنا بعد عشرين سنة! بدأ "صفوت" الحكي قائلًا: - تزوج "تيمال" بـ"فاطمة"، وذات صباح، استيقظ مبكرًا وارتدى ملابسه ليخرج للصيد كالمعتاد. نظرت "فاطمة" من النافذة، فرأت سحبًا سوداءً في الأفق، فقالت له: "عزيزي تيمال، العاصفة تقترب، لم لا تمتنع عن الذهاب إلى البحر اليوم؟ ففي داخلي إحساس سيئ"، ضحك "تيمال" على قلق زوجته عليه، ثم خرج قائلًا: "لا تقلقي أنتِ، فسأجمع رزقنا وأعود قبل أن تهب العاصفة". مهما قالت "فاطمة" لم تستطع إقناع زوجها، حيث ركب مركبه وأبحر. وبعد مدة، هبت عاصفة قاسية، وعاد كل الصيادين إلى القرية عدا "تيمال"، وبعدما هدأ الجو، خرج الجميع إلى البحر، وبدؤوا في البحث عنه لكن بلا جدوى. تتابعت الأيامُ والأسابيعُ والشهورُ، وانقطع الأمل تمامًا من عودة "تيمال". أُهلكت "فاطمة" نفسُها من الحزن، وساءت حالتها، فبدأت تذهب إلى الصخور على شاطئ البحر وتنادي على حبيبها الذي فقدته: "تيمااال... تيمااال"! وهكذا مع مرور الزمن، أخذت تتغير صيحات "فاطمة" ونداؤها على اسم زوجها "تيمال" إلى أن تحول إلى ما هو عليه اليوم، وأصبح "ريزا".

توقفنا جميعًا لمدة دون أية ردة فعل، وبعدها انفجرت "فوليه" بضحكتين متقطعتين مستفرغةً رذاذ البيرة من فمها وأنفها. ضحكت أنا أيضًا ضحكة خفيفة؛ حتي يفهم أنني فهمت الحكاية.

كانت عينا "صفوت" تضحك من داخلها، وقال فرحًا:

- أنا أقسِّم الأشخاص الذين يضحكون على هذه الحكاية، والذين لا يضحكون عليها إلى صنفين: اتباعيين وثوريين.

كان واضحًا من استخدام "صفوت" لمصطلح "الثورية" على سبيل المدح، أنه يغازل "فوليه" به، وذلك لأنني عهدته طوال حياتي رجل سوق حرة، وأبعد ما يكون عن الثورية، ومن المحتمل أيضًا، أنه فعل ذلك لا لإعجابه بها، وإنما لجهله كيفية التصرف عندما يكون في صحبة النساء. شربتُ ما تبقى في كأسي الذي دائمًا ما ينفذ سريعًا، ثم أشرت إلى النادلة لتحضر كأسًا آخر.

قلت لـ"صفوت":

- حسنًا، والذين لا يضحكون على الحكاية لأنهم يعرفونها من الأساس، إلى أي صنف يدخلون؟

قالت "فوليه":

- يا لَدَمِّكُمَا الخفيف!

وبعدها أخرجت من حقيبتها نوتة ذات غلاف أسود وقلمًا جافًا: - فليكتب كل منكما اسمه فوق عنوانه ورقم تليفونه، لأنني شطبت على الأسماء عندما داهمت الشرطة دار السينما.

سألها "صفوت" قائلًا:

- يعني؛ هل تركت فعلًا كل بيانات الاتصال، وشخبطتِ فقط على الأسماء التي أمامها؟

ضحكت "فوليه":

- أعلم أنني تصرفت بغباء، لم أعرف كيف أتصرف من التوتر والخوف.

أخذت منها النوتة المسجل فيها جميع بيانات التواصل الخاصة بـ"طلائع الشباب". كنت محظوظًا، ولحسن الحظ أنني أعطيت لـ"فوليه" في السابق عنوان منزل "روملي حصار"، ورقم التليفون مع عنوان منزل والدتي وتليفونها أيضًا، وبعدما كتبت اسمي فوق المكان الذي أشارت إليه، سجلت هذه البيانات في نوتتي، وكان صفوت منتبهًا معي ولم يحول عينه عني وأنا أكتب.

- عساه خيرًا؟ هل نسيت الطريق إلى منزلك؟

لفقت كذبة وقلت:

- لربما أفرطت في الشرب وثملت.

وبينما أضع النوتة أمام "صفوت" شد انتباهي عنوانٌ في حي "يلديرمني"، لا بد أنه عنوان "عبدُل".

انتهزت "فوليه" فرصة توقف موسيقى "جيمي هيندريكس"، ونادت بأعلى صوت: - "كآن"!

استدار نحونا مبتسمًا ذلك الشابُ الواقف على مسطح البار، والذي سلمت "فوليه" عليه عند دخولنا.

- صدعت رأسنا! هلا أطربتنا بشيء من موسيقى تركية شعبية، لننبسط؟

رد "كآن" وهو يشير بسبابة يده اليمنى نحوها قائلًا: - انتظري!

وعلى الفور، ذهب إلى جهاز مشغل الموسيقى عند الطرف الآخر من البار، وأدخل فيه أسطوانة اختارها: - استمعي إلى هذه، إنها من أجلك.

بعد عدة ثوانٍ، بدأت تتعالى ألحان أول مقطوعة موسيقية من أغنية "أنت دمي الذي يجري في عروقي (Damarımda kanımsın)"، والتي تجعل أي إنسان يبكي دمًا. عندما سمع الزبائن الأغنية انقسموا إلى نصفٍ معارض، ونصفٍ مؤيد متحمس يصفق تصفيقًا حارًا لها، وما إن دخلت "بلقيس أوزينير" في مطلع الأغنية، أتى "كآن" إلى جانبنا بابتسامة عريضة على وجهه وكأس البيرة بيده، وظل واقفًا.

شعرت من طريقته أنه متلذذ بطريقة غير عادية من مجموعتنا المتواضعة: - كيف حالكم يا أصدقاء؟ هل تقضون وقتًا ممتعًا؟

قالت "فوليه":

- نعم، أنت رائع!

قال "صفوت":

- لديك ذوق موسيقي فريد، يبدو أنك تهتم فقط بموسيقى الأغنية ولا تلقي اهتمامًا لكلماتها.

بدا وكأنه مستعد ليثير ثائرته.

ردَ "كآن" بأسلوب لطيف:

- بالعكس، أنا أحب الموسيقى الشعبية التركية، وخاصة كلمات أغنياتها.

غنَّت "بلقيس أوزينير": "ها أنا عبدَتُك.. إن شئت فاقتلني..".

استمر "صفوت" في الضغط عليه:

- أتقول إنك مفتون بالحب المازوخي، عاشقٌ دورَ الضحية والاستسلام المطلق؟

رفع "كآن" إصبعه:

- استمع لبقية الأغنية...

تابعت "بلقيس أوزينير": "لو أحببت غيري.. فاعلم أنني لن أجعلك تعيش!".

قال "صفوت"، وكأنه لم يتأثر بتاتًا بكلمات الأغنية: - يعني؟

- الشيء الذي تتعلق به يتعلق هو أيضًا بك، إن كنت تسميها "سادية . مازوخية (Sadomasochism)" فنعم، لكن استسلام مطلق لا أبدًا. على كل حال، أنا أرى أن هذه هي العلاقة المثالية.

وضع "صفوت" كأس البيرة على الطاولة وقد لاحظ أن منافسه يصر على رأيه: - وهل لديك علاقات مثالية هكذا؟

- أعمل ما بوسعي من أجل ذلك، لكن لا بد من سؤال "فوليه".

ضربت "فوليه" "كآن" على كتفه تأوه على إثرها قائلًا: - شكرًا!

قال "صفوت":

- بالطبع، الأذواق والألوان لا تناقش.

قاطعته قائلًا:

- إذا نظرت إلى جوهر الأمر، فسترى أنهما فقط اللذان يُناقشان، لكنهما يريدانك أن تفكر هكذا؛ حتى تتوقف عن التفكير في المسألة الحقيقية، وتبعدها عن تفكيرك.

لا أعلم لماذا تحدثت معه في الكلام هكذا.

ربما تعكر مزاجي، وشعرت بالانكسار من داخلي، لأن النقاش العاطفي الذي زار طاولتنا فجأة، لم يكن له أية علاقة بي، وربما أيضًا بسبب أن الكحول قد بدأ يسري في رأسي شيئًا فشيئًا.

قال "كآن" ملتفتًا نحوي:

- برج الدلو المعروف! برج العباقرة. أنت دلو، أليس كذلك؟

أومأت مؤكدًا برأسي.

كنت أعلم أنه هذر وهراء، لكن كان يحلو لي سماع ذلك منه. اندفع "صفوت" منتهزًا الفرصة قائلًا: - آه، يعني لك في موضوع الأبراج أيضًا؟

قالت "فوليه":

- "كآن" مجنون بالأبراج، ذات مرةٍ جلس لمدة ساعتين لاستخراج خريطة النجم الخاص بي، كما أنه يقرأ الفنجان بمهارة.

بدا "صفوت" متلذذًا بالحديث وهو يقول:

- إنه أمرٌ عجيبٌ بكل تأكيد، فإحصائيات الذكاء تظهر لنا أن اثنين بالمائة من المجتمع يتمتعون بذكاء يصل إلى درجة العبقرية، في حين أن نسبة أصحاب برج الدلو هي واحد من بين كل اثنيْ عشر شخصًا، أي ما يقارب الثمانية والنصف بالمائة، وهذا أيضًا يعني، أننا حتى لو فرضنا أن جميع العباقرة من برج الدلو، فمن المستحيل أن يكون ما يقرب من ثمانين بالمائة من برج الدلو عباقرة.

ظل "كآن" صامتًا لفترة يزن كلام "صفوت"، ثم التفت إلى "فوليه" بطريقة المتأمل قائلًا: - عقلانيٌّ للغاية. إنه برج الجدي المعروف!

لم أتحمل وانفجرت بالضحك.

قلت لـ"صفوت":

- أنت حقًا برج الجدي، أليس كذلك؟

ضحك "صفوت" ضحكة صفراء:

- حسنًا، أستسلم.

لا بد أنه أدرك، أن محاولته الدخولَ في حديث مع مجموعة من الهزليين السكارى، والمحافظةِ على مكانته التحليلية العلمية، شيء من العبث.

كان "كآن" شخصًا مرحًا مسليًا، أضحكنا كثيرًا لبقية الليلة، وحتى لو دخل مع "صفوت" في جدال مرة أو مرتين مجددًا، فإنه نوع يمكن تسميته "مناوشة

حلوة" أكثر منها جداً. كنت قد شربت حتى الثمالة، ومزاجي جيد، لدرجة أنني في نقطة ما من الحديث قلت لهم إنني قادم من المستقبل، وحدثتهم عن التطورات التكنولوجية: كالإنترنت والتليفون المحمول وغيره، إلى جانب موضوعات كحرب الخليج الثانية، ومستقبل تركيا السياسي المظلم، وبعدها قفزت إلى موضوع الاستنساخ، وفي النهاية، وجدت نفسي أحكي لهم، أنه بعد عشرين سنة ستوجد مزارع بشرية في كل مكان، وستتوفر احتياجاتنا من نقل الأعضاء عن طريق المستنسخين، وبفضل هذا أيضًا زاد عمر الإنسان مائتي عام. أتذكر كذلك، أنني حذرت "فوليه" من أن تحترس من الهولنديين، لكني لم أدخل في تفاصيل تتعلق بحياتها الخاصة غير هذه. أعجبهما كثيرًا ما سمعوه، لكن كما ستتوقعون، لم يأخذوا كلامي على محمل الجد كثيرًا.

بعد مدة، خيم الصمت فجأة على الطاولة، لحظتها استدرت نحو صديقي القديم، وقمت بتهيئةٍ للموضوع الحساس قائلًا: - عزيزي "صفوت"! هناك موضوع يشغل بالي. منذ أن شُمعت دار السينما لم يتصل أحد ويسأل عليَ من المجموعة. يا ترى هل لي أن أعرف كيف صار لديك خبر عن بدء نشاط المسرح مرة ثانية؟

هز "صفوت" كتفه قائلًا:

- لا أعلم، ربما كانت "جوركان" قد اتصلت بي، أو غيرها.. لست متأكدًا.

للكحول تأثير يختلف من شخص لآخر، فبينما حولني إلى شخص لا تبتل في فمه فولة، فقد حوَّل "صفوت" إلى إنسان كذَّاب بكل ما بالكلمة من معانٍ، فهو عندما يكذب، يتحدث بهدوء شديد، لكنني لم أكن أنوي أن أواجهه بكذبه، بل

أردت أن أتبين الحقيقة فقط، لذا فضلت أن أتظاهر بتصديقي بأنه قد نسي حقًا، فقلت: - سمعت كذلك أن "عبدُل" تحدث معك عن الأمر عندما جاء إلى الجامعة، أخبرني بنفسه أمس.

بالطبع من المستحيل أن يتوقع أنني سأعرف منه - أو عرفت - هذه المعلومة بعد عشرين سنة. فكَّر وهو يعض على شفتيه، ولاحظت أنه متردد في قراره؛ هل يستمر في كذبته أم يعترف بها؟

لكنه قال:

- آه صحيح! لقد غاب هذا الأمر عن ذهني تمامًا.

- حسنًا، ألم يطلب منك "عبدُل" أو أيًّا من كان، أن تعلمني بالأمر؟ أم غاب هذا عن ذهنك أيضًا؟

أخذ جرعة كبيرة من كأسه، وتنهَّد في ضيق، ثم حول نظراته نحوي: - لا، تعمدت عدم إخبارك.

سألته "فوليه" قائلة:

- ماذا! وما السبب؟

قلت:

- والله! كنت سأسألك أيضًا السؤال نفسه، حقًا، لماذا؟

- لأن "نرجس" طلبت هذا مني.

- "نرجس"؟!

في الحقيقة لم أكن أتوقع هذا على الإطلاق.

- قالت إن دروسه لا تسير على ما يرام، وبهذه الطريقة لن يستطيع أن يتخرج، كما أنك دائمًا ما كنت تؤخر تسليم التراجم المطلوبة منك، فكانت تقلق من أن يكون ذلك المسرح يشتتك ويأخذ من وقتك.

هذا يعني، أن الشخصية التي عرقلت مسيرتي الفنية هي زوجتي السابقة والمستقبلية في الوقت نفسه، وعلى الرغم من أن هذا الأمر وقع عليَّ وقع الصاعقة، لأنه في الحقيقة بدا منطقيًا للغاية.

خجلت قليلًا من سماع هذه المعلومة، وشعرت وكأنها صفعة على وجهي، فقلت: - فهمت. صباح أمسِ، قلتَ لـ"نرجس" إنك ستتحدث معها في موضوع ما، هل لذلك علاقة بما قلته الآن؟

كانت نظرات "صفوت" قد غامت للحظة، ثم أومأ برأسه أن "نعم": - وكنت سأخبرك باجتماع أمس، لكن "نرجس" أصرت ألا أفعل، وأنا من ناحيتي، قلت لها أن تتحدث معك أولًا وتحل هذا الموضوع.

في تاريخ علاقتنا، لم يحدث أن تحدثت "نرجس" معي في موضوع كهذا، لذا لم أستطع التأكد من مدى مصداقية ما قاله "صفوت"، ومع ذلك، لم يكن هناك شيء بوسعي أن أفعله في تلك اللحظة. لا بد من مواجهة "نرجس" في أسرع وقت.

وقفت على قدميَّ، لكنني ترنحت.

قلت:

- حسنًا، عن إذنكم، سأرحل الآن.

أمسكني "كآن" من ذراعي، وأجلسني على الكرسي:

- سترحل وأنت في هذه الحالة! اجلس لأحضر لك فنجان قهوة حتى تفيق قليلًا.

ابتسمت قائلًا:

- حسنًا، لكن بشرط أن تقرأ لي الطالع.

أحببت هذا الشاب وارتحت له.

قال:

- اتفقنا.

ونهض على الفور لتحضير القهوة.

صرخت من خلفه بأعلى صوت:

- بسكر زيادة.

قالت "فوليه":

- إنه شاب رائع، أليس كذلك؟

غيَّر "صفوت" سريعًا الموضوع، وسألنا قائلًا:

- هل قرأتما المسرحية؟

قالت "فوليه":

- أنا قرأتها، الحبكة والنهاية فيهما إبداع، وأُعجبت كثيرًا بفكرة اسم "حسن طوت (Hasan Tot)" وغيره.

- نعم، الحبكة رائعة فعلًا. ما رأيك يا "عزيز"؟

وضعت رأسي بين يديَّ، وتأوهت:

- أنا لم أقرأها، "حسن طوت" ماذا؟

فسرت "فوليه":

- اسم الشخص الرأسمالي، وهو جناس ناقص بقلب حروف الكلمة اليونانية "Thanatos"" وتعني غريزة الموت، فهي تصور الرأسمالية كانعكاس لغريزة الموت الدفينة داخل الإنسان.

- نعم صورت هذا بشكل مطول حقًا، لكن هناك ثغرة بسيطة؛ لم يذكر اسم الرجل الرأسمالي طوال المسرحية.

عارضته "فوليه":

- غير معقول! اسمه مذكور من بداية المسرحية.

- نعم ذُكر، ولكن بين قوسين، فلم ينطق أحد اسمه حتى نهاية المسرحية؛ أي لا يعرف أحد اسمه غير الكاتب.

- هذا صحيح، كيف فاته هذا الأمر؟

قال "صفوت" ضاحكًا بملء شدقيه ضحكة في غير محلها مثل كهل أصلع معتوه: - يبدو أنه توتر كثيرًا وهو يرسل نسخة إلى "بيرجمان"، فسقطت منه.

في تلك الأثناء، جاء "كآن" وبيده فنجان القهوة يتصاعد منه البخار: - قهوتك بسكر زيادة، انفخ فيها جيدًا لكن بلطف لو سمحت؛ إنها ساخنة.

أخذت الفنجان ثم نفخت فيه جيدًا كما قال، وما إن رفعته إلى فمي وقربته من شفتاي لأحتسي رشفة منه، حتى سحبه "كآن" مني، وبدأ ينظر بدقة إلى رغوة القهوة.

قلت:

- خيرًا! ما الأمر؟ هل حدث شيء ما؟

قالت "فوليه":

- إن "كآن" يقرأ الفنجان من رغوته، وليس بعد أن تشرب القهوة.

- وكيف هذا؟ الرغوة لا تقف ثابتة.

ردَّ "كآن":

- كما المستقبل بالضبط لا يثبت على حال، فهو يتغير كلما اطلعت عليه.

ارتعشت وكأنني تعرضت لصدمة كهربائية بسيطة:

- إذًا، وما الفائدة من قراءة الفنجان؟

قال صاحبنا قارئ الفنجان الطليعي:

- فائدته أنه سيخلق مستقبلًا لك.

وقبل أن يرفع يده بهدوء ليدعونا جميعًا إلى السكوت، كانت إيقاعات أغنية "فيتامين سي" المخدرة، لمغنيها "كان (Can)"من فرقة "كروات روك" الألمانية المشهورة، قد احتلت "بِلَا غَمٍّ" بأنغامها الفضائية التي لا علاقة لها بالأرض، وغزته كجيوش العنكبوت. أحسست وقتها وكأنني في غيبوبة.

أشار "كآن" إلى الفنجان قائلًا:

- انظر!

حدقت بعينيّ في رغوة القهوة التي أخذت تهتز ببطء، وأخيرًا توقَّفَتْ تمامًا، فقلت: - هيا، اقرأ لي ما تراه!

- أنت من سيقرأ.

في تلك اللحظة، شعرت وكأن كل شيء يدور حولي، "كآن" و"فوليه" و"صفوت"، وجميع زبائن "بِلِا غَمٍّ"، وكل شيء في المكان يدور حول فنجان القهوة ذلك، وكأنه الثابت الوحيد في الكون. امتلأت بالخوف والترقب،

وضاع كل ما حولي من أناس وأشياء ومكان، وحتى جسمي أصبحت لا أحس به، تحول كل شيء إلى رغوة القهوة الأشبه برسمة ثنائية الأبعاد أولًا، ثم إلى أفكار، وأخيرًا إلى كلمات، وتأوهت قائلًا: - الندمُ! يا ينبوع الحياة الذي يُنْهَلُ من مياهه دون شبع.. يا منبع الشباب الأبدي.. يا شراب حب "بانادورا" الساحر.. سأعطيك نصيب الأسد من حبي وأشواقي وغرامي، وأنت في المقابل أيضًا، ستمنحني الأبدية في الدنيا، فبينما يحصد المنجل كل شيء، سأمتطي جوادي وأجري به للأبد في الساحات الخضراء. سأصدق ما لا أعلمه، وسأستلهم القوة مما لم أفعله، سأحتمي بمن لا أعرفهم، وسآنس وأجدد حياتي بالاحتمالات، وحتى بعد نقطتين سأقتل رجلًا، وبعدها سأتزوج، لأن حمل جثة بمفردي أمر صعب، والحب هو عشقان بلا مقابل، سأنظر خصيصًا نحو الجهات الخاطئة، وسأكتب شعرًا، لا للأزهار وإنما للمزهرية، وسأضفي ما لا أؤمن به على الأشياء التي أؤمن بها، وسأعيش الحياة القويمة باعوجاج، وسأصبح غير منظور أمام الأنظار. سأقيد أيادي الزمان الدامية بك، وسأشمع فم الزمان الغاشم بك يا ندمُ، يا أكثر ميناء آمنٍ أرسو به، يا حبيبي الغالي الوحيد، يا نور حياتي.. يا ندمي الجميل!

- أريد موس حلاقة بسرعة! سأقتل نفسي.

وبصرخة استغاثة "صفوت" هذه تغير كل شيء، طبطب "كآن" على كتفي بلطف، ثم ترك الفنجان أمامي: - لا بأس يا أخي!

وبينما أحتسي قهوتي محاولًا استيعاب ما حدث قبل قليل، عانَقَتْ "فوليه" "كآن" وقالت له: - "كآن" لا أصدق! أنت مدهش.. مدهش!

لا أستطيع أن أفهم لماذا أصبح "كآن" مدهشًا، في حين أنني أنا من فعل كل شيء! لكن هؤلاء النساء، من يستطيع فهمهن أساسًا؟ نهضتُ قائلًا: - عن إذنكم.

وبعدما سلمتُ عليهم، وقبلتُّهم جميعًا، خرجت من بار "بِلَا غَمٍّ".

الجو بارد في الخارج، هذا جيدٌ لي، فقد أفاقني وأعادني إلى وعيي ولو قليلًا. مشيت في الشوارع الجانبية متوجهًا نحو شارع "ريهتيم" حيث شاطئ "قاضي كوي". كم هو الشباب جميل! فلو أنا الآن على حالتي قبل بضعة أيام، لكان من الصعب أن أقف على قدمَيَّ بعد هذه الكمية من الشرب. دخلت إحدى كبائن التليفون العمومي على رصيف الميناء، واتصلت بمنزل "نرجس" بـ"روملي حصار"، ثم منزل والدتي بـ"أجيبادم"، لم يأتِ من أي منهما رد، فحزنت للأول وفرحت للثاني، وقررت الذهاب إلى منزل والدتي الفارغ. توجهت إلى محطة الأوتوبيس، فوجدتها خاوية؛ لا بد أنني فوت آخر أوتوبيس. فتحت محفظتي ونظرت بها؛ لم يبدُ أن النقود المتبقية ستكفي لأجرة التاكسي. في تلك اللحظة، لاحظت أنني خرجت من "بِلَا غَمٍّ" دون دفع الحساب، قلت لنفسي ليكن كذلك، ليدفع "صفوت" الحساب هذه المرة، فعلى كل الأحوال كنا نجمع حساباتنا ونخلصها مرة واحدة.

منزل والدتي على بعد خمسةٍ إلى ستة كيلومترات من المحطة. استعددت للانطلاق وقررت الذهاب إلى المنزل ماشيًا، وبدأت السير متجهًا من شارع "ريهتيم" إلى حي "أجيبادم".

وبينما أسير في الطريق، فكرت فيما بُحت به مهلوسًا في أثناء جلسة قراءة الطالع تلك، فما أعجب الأشياء التي قلتها! في السابق لم أكن لأقول أشياء كهذه على الإطلاق، فهل يا تُري اختلط الأمر عليَّ، ورأيت بالخطأ مستقبل "آرتور رامبو".

كنت أهذي، وكانت كل اعتقاداتي وأفكاري فيما يخص الماضي والمستقبل، قد انقلبت رأسًا على عقبٍ، كما أن ذكرياتي المتعلقة بالعشرين سنة القادمة، باتت عبارة عن حلم طويل وغريب حقًا. ولكن، ماذا يقال عن كم التفاصيل الدقيقة التي أتذكرها جيدًا، وكأنها حية أمامي؟ "زينب"... وفترة حمل "نرجس"، ويوم الولادة، والخوف الذي عشناه عندما تصيبنا نوبة الصرع التي أصابتها ذلك اليوم... توقفت فجأة، وقد دب بقلبي شعور غريب بالدهشة؛ نعم، إن هذا كله ثابت في ذاكرتي، لكن هناك شيء وحيد مهما حاولت عاصفًا ذهني لأتذكره، لم أستطع: وجهها! وجه ابنتي، لا يأتي على مخيلتي ولا أمام عينيَّ بأي شكل من الأشكال، كما أن فقدان الذاكرة الذي حصل لي لم يقتصر على هذا فحسب، فمثلًا كنت أعلم أنني في حي "بشكطاش"، لكن ما بداخل المنزل لم يتراءى أمام عينيَّ بشتى الطرق، وعندما أحاول تذكر البقالة التي أتسوق منها كل يوم، يتبادر إلى ذهني بقالة أخرى أعرفها من أيام طفولتي.

بعدما تزوجت "نرجس"، اشترينا سيارة، لكن ماذا كان نوعها؟ حاولت أن أخمد تلك الهواجس، وأُطَمِئِنُ نفسي بالتفكير أن هذا من مفعول الكحول، وغدًا سيستقر كل شيء ويصير على ما يرام.

في تلك الأثناء، لاحظت أن خطواتي أخذتني إلى حي "يلديرمني" وليس "أجيبادم"، ربما كان هذا هروبًا للعقل الباطن من منزل والدتي، فضلًا عن أنه

ليس طريقًا تصادفيًا، بل طريق منزل عضو المسرح الجديد والمريض النفسي "عبدُل" بشحمه ولحمه. كان العنوان الذي رأيته في نوتة "فوليه" في ذاكرتي، يا تُرى، هل استطاع التخلص من حادث الأوتوبيس، أم أنه من المنطقي أكثر أن أبحث عنه في قسم الشرطة المجاور بدلًا من منزله؟ بالطبع، لو سلَّم نفسه، فمن المحتمل أن مصيبة ما ستحل عل رأسي. لذلك، فأعقل تصرف في هذا الوضع، هو البعد عن شباك القانون.

سِرْتُ لفترة، مقررًا أن أجرب حظي بالذهاب إلى منزله، ووصلت إلى العمارة. لم تكن هناك أسماء مكتوبة فوق الأجراس، لكنني أتذكر قول "فوليه" إنه يسكن في آخر دور في شقة على سطح العمارة. دفعت باب العمارة بقوة - كان مفتوحًا - دلفت إلى الداخل، وصعدت السلم حتى الدور الخامس. ولحسن حظي، كانت هناك شقة واحدة فقط في آخر دور. أسندت أذني على الباب فلم أسمع صوتًا، وبعد تردد قلت لنفسي: "وما الذي يمكن أن يحدث؟"، ثم ضغطت على الجرس.

أصوات خشخشة، ودبدبة رجل تقترب من الباب، وقفل الباب يُفتح... وارب أحدهم الباب ببطء، وبقيت أمام ظل رفيع. على أغلب الظن، لم يكن "عبدُل" هو صاحب العيون التي حدقت بي مندهشة بقدر دهشتي.

خرجت همهمة من بين الشفتين المرتجفتين بخفة:

- "عزيز"؟

- "نرجس"؟

7

أكره نفسي وأريد أن أموت

I Hate myself and I want to Die

على الرغم أن الإنسان مدرك لحقيقة أنه ليس كائنًا بسيطًا يستهان به، فإنه دائمًا ما يضع نفسه في مكانة مختلفة عن الآخرين، وأنا هو هذا الإنسان بعينه.. عندما ظهرت المرأة التي أحبها أمامي فجأة هكذا في بيت رجل آخر، خرجت من فمي على الفور أكثر "كليشيه" سخيف في تاريخ المداهمات العالمي: - ما الذي تفعلينه هنا؟

أكملت "نرجس" "الكليشيه":

- ليس الأمر كما تظن.

كنت أود كثيرًا أن يكون هناك تفسير منطقي لهذا الوضع الغريب، لكن لم يبدُ هذا ممكنًا، وخاصة بعدما ظهر "عبدُل" من خلفها، عارِ الجذع لا يرتدي سوى بنطلون بيجامة، ويقول: - من القادم يا حياتي؟

أمسكت "نرجس" يدي، وقالت:

- "عزيز" اذهب من هنا، سأوضح لك كل شيء لاحقًا.

قلت لأفندي الثعابين الواقف بجانبها:

- كيف حالك يا "عبدُل"؟

رد بأسلوب وقح وقلة احترام:

- بخير، ادخل.

صرخت "نرجس":

- لا! "عزيز" اذهب لو سمحت، سأتصل بك.

كنت أبدو كالمعتوه الأبله، وبصراحة، لم أود البقاء في هذا المكان، لكنني لم أستطع في الوقت نفسه أن أدير لهم ظهري وأنصرف، لذا حاولت تمرير الوقت بسؤال آخر غبي: - ماذا تفعلان هنا؟

- نتحدث، سأشرح لك الأمر، أعدك، لكن أتوسل إليك! اذهب إلى المنزل.

- وبنات عمك؟

- لا يوجد أحد في المنزل، سألحق بك.

- إذًا لنذهب معًا!

- لا يمكن الآن، صدقني أرجوك!

قلت في عجز بلا حيلة:

- حسنًا.

كان قدري طيلة علاقتنا، هو أن أبقى عاجزًا بلا حيلة أمامها. من جانب آخر، يستطيع المرء دومًا إيجاد طرق لإذلال نفسه، والتحقير من شأنها أكثر فأكثر.

- هل يمكن أن تعطيني القليل من النقود؟

اقترب "عبدُل" من الباب بجسمه مفتول العضل، وأسند ذراعه على عارضة الباب وأخذ يبتسم بملء شدقيه بسفاهة. شعرت أن لكمه في وجهه هو

التصرف الصحيح في ذلك الوقت، لكنني لم أستطع فعل شيء وأنا أقف أمام الباب كساعي بريد أبله، وأمامي صائد للنساء كهذا. حاولت تبرير موقف "نرجس"، فلو اجتمع كل مصوري الأفلام الوثائقية في العالم ورأونا في تلك الحالة، لما استطاعوا أن يجدوا شيئًا فيَّ يجعل فتاة تفضلني على "عبدُل".

سألته هكذا عشوائيًا وأنا في غاية الاشمئزاز من نفسي: - كيف تعارفتما؟

- في الجامعة؛ كنت قد جئت لأبحث عنك.

قلت مبتسمًا ابتسامة مصطنعة:

- من الواضح أنك وجدت الجميع في ذلك اليوم عداي أنا.

في تلك الأثناء، جاءت "نرجس" ووضعت بيدي مبلغاً من المال، وفي تلك اللحظة، أحسست نفسي ديوثًا بالمعنى الحقيقي.

- حسنًا إذًا، عن إذنكما، أنتما.. تحدثا.

بعدما نزلت السلالم الأولى بهدوء درجةً درجةً، أكملت الباقي جريًا؛ كنت أريد الهروب من ذلك المكان في أسرع وقت، وما إن نزلت إلى الشارع حتى أوقفت تاكسي، وأخبرت السائق بأنني أريد الذهاب إلى "روملي حصار". وعندما صعد التاكسي طريق جسر "البوسفور"، نجحت في إغلاق كل الطرق على السائق الذي حاول فتح حوار معي، واختليت بأفكاري. في الحقيقة، لم أكن أعرف مدى صحة ما فعلته، فمنذ عودتي إلى الماضي وكل شيء يسير ويتطور بشكل عجيب، لكن ما حدث هذه المرة مختلف.. بالنظر إلى ظاهر الأمر، فإني قد بدأت تغيير سير التاريخ فقط من بعد 25 فبراير 1994، وحتى

تلك اللحظة، كل شيء يتطور كما عشته في حياتي السابقة، وهذا أيضًا يعني، أن تعارف "عبدُل" و"نرجس" وعلاقتهما كانت قد حدثت ليس في "هذا الكون" فقط، وإنما أيضًا في النسخة الأخرى منه، حيث كنت متزوجًا بـ"نرجس" ومنشغلًا بالأسرة وبابنتي؛ أي أنها أخفت عني هذا طيلة تلك السنين، ومن يدري! ربما لو لم يمت "عبدُل" لكانت ستتركني وتدخل في علاقة معه.

وفي أثناء دخول التاكسي تقاطع "ليفنت"، ووصوله إلى حي "إتيلر (Etiler)"، قلت للسائق بقرار مفاجئ: - غيرت رأيي، سأذهب إلى "أرناؤوط كوي (Arnavutköy)".

كان مزاجي قد تعكر بدرجة لا توصف، ولم أرغب في الذهاب إلى المنزل الذي عشت فيه مع "نرجس".

نزلت من التاكسي في "أرناؤوط كوي"، ودلفت إلى الشارع الذي يوجد به منزل "صفوت"، إنه يسكن في شقة جميلة مع والدته في هذا الحي الراقي. كنت آمل في تلك الساعة المتأخرة أن يكون قد عاد، وحتى لو لم يكن قد عاد، فسأنتظره منكمشًا أمام الباب مثل كلب الشوارع، في الواقع، ذلك يليق بي أيضًا، ولكن ما العمل؟

قرعت الجرس مرتين، بعدها لاح "صفوت" من الشرفة، هل سعد لرؤيتي مرة أخرى بعد تلك المدة القصيرة؟ لم أعلم، لكنه مشكورًا، فتح لي باب العمارة الأوتوماتيكي وأدخلني.

كان جالسًا بملابسه الداخلية وفانيلة، وعيناه شديدتا الاحمرار، قال لي: - أهلًا بك.

- عزيزي "صفوت" لا تؤاخذني، لم أرغب في الذهاب إلى منزل "روملي حصار".

هل ينتظر تفسيرًا أكثر؟ لست متأكدًا.

- لا عليك، تستطيع البقاء هنا كما يحلو لك، كما أن والدتي لن تكون موجودة هنا لمدة.

- شكرًا لك.

وسريعًا، فرشنا ملاءة على كنبة الصالون وفوقها لحافًا، وتمنينا لبعضنا ليلة سعيدة.

دخل "صفوت" حجرته وأغلق الباب، وأنا أيضًا بمجرد أن وضعت رأسي على الوسادة غرقت في نوم عميق بلا أحلام.

وفي الصباح، فتحت عينيَّ على صوت "صفوت" وهو يسألني: - هل ستنهض؟ أنا ذاهب إلى الجامعة؛ لدي محاضرة.

لا أعلم ما إذا كان لدي محاضرات أم لا، وبصراحةٍ لم أكترث أيضًا، فقلت له: - اذهب أنت، سأبقى هنا إذا لم يكن لديك مانع.

- سأترك المفاتيح فوق المنضدة، إياك أن تنساها في الداخل!

قلت مستقيمًا من مرقدي:

- "صفوت"، إذا رأيت "نرجس" فلا تخبرها أنني هنا لو سمحت.

لوى "صفوت" شفتيه بطريقةٍ آمل أن يكون معناها "حسنًا"، ثم خرج من المنزل قائلًا: - إلى اللقاء.

أحسستُ بنشاط ولياقة عجيبين، حتى ولو كانت العلاقة بين "نرجس" و"عبدُل" تشغل بالي، إلا أنني تأثرت أقل من المتوقع، وربما كانت مشاعر حبي تجاه "نرجس" قد تآكلت وانتهت منذ زمن بعيد، بسبب الفترة الطويلة التي قضيناها منفصلين عن بعضنا. على كل حال، أفضل شيء الآن هو أن أنظر أمامي بدلًا من أن أحاول عبثًا استيعاب ما حدث… عليَّ أولًا حل أزمتي المادية.

أخرجت رواية "باراديسا" من حقيبتي، وأخذت أقلب صفحاتها، وعلى الفور، فتحت كمبيوتر "صفوت" وأخذت أجرب الديسكات بالجهاز، وكما توقعت، كانت تراجمي محملة عليها، وبعد بحث طويل، وجدت أخيرًا ترجمة الكتاب الذي بيدي محملة على ملف، فأجريت مقارنة بينهما؛ قد تبقى حوالي خمسين صفحة لم تترجم بعد. حدثت نفسي، لو بدأت على الفور في ترجمتها، لاستطعت إنهائها في يومين تقريبًا. أخذت حمامًا سريعًا، وبعدها حضرت لنفسي شطيرة مما وجدته في الثلاجة، ثم جلست أمام الكمبيوتر، وعكفت على الترجمة.

عندما رجع "صفوت" في ساعة متأخرة قليلًا، خرجنا لتناول الطعام معًا. لم يرَ "نرجس"، وبكل تأكيد، ضعفت أمام إصراره، وحكيت له ما حدث بيننا ليلة

البارحة.

بدا عليه الانزعاج من موضوع "عبدُل" أكثر مني، وبعدما سمع مني الحكاية قال: - كنت أعرف أن شيئًا ما يحدث، فهذا الوغد ظل يأتي باستمرار إلى الجامعة لمدة أسبوعين، وفي إحدى المرات، رأيتهما معًا في شارع "منظرة" على ساحل البوسفور، وفي الحقيقة، هذا هو ما أردت التحدث فيه مع "نرجس".

اليوم التالي لم يمر مختلفًا كثيرًا عن سابقه، فبخلاف الاستراحات القصيرة، ومحاولات جعل "صفوت" يتراجع عن رغبته الملحة في ضرب "عبدُل"، عكفت طوال الوقت على ترجمتي. وصباح يوم الأربعاء، كنت جاهزًا لتسليم الملف لدار النشر، كان يتوجب علي الذهاب بنفسي والقيام بهذا الأمر؛ بالطبع، لأن الإنترنت لم يكن مستخدمًا في تلك السنوات بشكل منتشر ونشطٍ، كما هو عليه الحال الآن.

وبينما أنا جاهز للخروج من المنزل في حوالي الساعة الحادية عشرة، كان "صفوت" الذي لديه محاضرة متأخرة ذلك اليوم، لا يزال نائمًا. ناديته قائلًا: - ألقاك في المسرح مساءً.

ثم خرجتُ إلى الشارع.

وبعد نصف ساعة، كنت أمام مبنى مكتب "باراديسا"، الذي يقع في حي "زنجيرلي قويون (Zicirlikuyu)". وأنا على وشك الدخول إلى المبنى، نظرت ناحية المقهى المجاور للمبنى فوجدت "شكران" جالسة هناك.

"شكران" هي سكرتيرة السيد "أسعد"، وهي امرأة شابة في منتهى الجاذبية والجمال. كثيرًا ما كنا ندردش سريعًا وأنا أنتظر مقابلة السيد "أسعد". رأتني هي الأخرى، ألقيتُ عليها السلام مبتسمًا وأنا واقف مكاني، حينها لاحظت أنها تجهش بالبكاء وعيناها ممتلئتان بالدموع.

وبعد تردد لم يدم طويلًا، ذهبت إلى جانبها:

- "شكران" خيرًا؟ ما بك؟

مسحت أنفها:

- لا شيء.

ثم جففت دوموعها بالمنديل.

جلست على الكرسي المقابل لها قائلًا:

- لماذا أنت هنا؟ هل حدث شيء في المكتب؟

هزت كتفها قائلة:

- ها أنا هنا ولا تسأل! أساسًا سيطردني السيد "أسعد".

- لماذا؟

- بسبب زوجته الفاجرة تلك التي تُدعى "نورجول"، يعني سيكون بسبب من! جاءت الشمطاء صباحًا ونهرتني كالعادة، وبعدها دخلت إلى غرفة مكتب

زوجها وأخذت تصرخ وتلعن.

- حسنًا، ما مشكلتها معك؟

- الغيرة؛ تخشى أن آخذ زوجها من يدها.

- معاذ الله! ولماذا تخشى شيئًا كهذا يا ترى؟

اسألها هذا السؤال! ومن ناحية أخرى، كان جميع من ينظر إليها نظرة واحدة، يستطيع أن يجاوبه بكل سهولة؛ حيث إن "شكران" كانت زهرة النساء وملكة الإثارة.

انفجرت في وجهي قائلة:

- تظن الجميع عاهرًا مثلها، لذلك تتصرف هكذا! هذه كانت سكيرتيرة السيد "أسعد" قبلي، غرَّرت بالرجل وأغوته ثم تزوجته. وفي الفترة الأخيرة، اعترت الرجل أوضاع غريبة، وأصبح يتصرف بحركات مريبة، حقًا لا يبدو طبيعيًا، من صبغ شعر، وذهاب للبديكير والمينكير، وصالة الرياضة وما شابه... هل دخل في أزمة منتصف العمر أم ماذا؟ لا أعلم، وليس لي دخل، ذنبه على جنبه! لكن، الآن زوجته بدأت هي الأخرى تشك بي. صرخت في وجه زوجها، وقالت: "ستطرد هذه العاهرة من العمل، وستعين سكيرتيرًا مكانها"، طبعًا، سمع الجميع هذا، فضحتني على الملأ.

بينما تأخذ رشفة صغيرة من كوب الشاي الذي أمامها، أشارت برأسها إلى الشارع: - ها هي ذاهبة، الساقطة!

التفتُّ ونظرت؛ إنها امرأة في الأربعينيات من عمرها، ترتدي ملابس صارخة وغاية في الأناقة، خَرَجَتْ من المبنى بخطوات سريعة، وركبت السيارة الجيب السوداء التي تنتظرها في موقف السيارات الخاص أمام الباب.

قلت لـ"شكران":

- لا تتسرعي وتضايقي نفسك، ربما تشاجروا بسبب شيء آخر، وأفرغت هي غضبها عليك. الآن، هيا تعالَيْ لنصعد.

أشارت برأسها بحركة مفادها "لا":

- اصعد أنت، وأنا سآتي خلفك بعد قليل.

- حسنًا، لكن لا تحزني نفسك على شيء لم يحدث بعد.

دخلت المبنى، ركبت المصعد إلى الطابق الثالث، وصلت إلى مكتب "بارادیسا"، وبعدما سلمت على بعض العاملين على المكاتب، توجهت إلى غرفة السيد "أسعد". كان واضحًا أن الوقت غير مناسب بالمرة لزيارته، لكني كنت سأسلم الملف وآخذ الشيك في مقابله، لا أكثر ولا أقل؛ يعني من ناحيتي ليس هناك شيء يستدعي القلق كثيرًا.

طرقت الباب طرقتين ثم دخلت الغرفة. كان السيد "أسعد" جالسًا على كرسيه مثل رجل منهار منكسر، ووجهه محتقن.

عندما رآني ابتسم ابتسامة مصطنعة:

- من؟! عزيزي "عزيز"، أهلًا بك، تفضل بالجلوس.

- لن آخذ الكثير من وقت سيادتك.

أخذت أحدق بمديري الشاب، الذي يصغر عشرين سنة عن ما أتذكره في آخر مرة رأيته فيها، بصراحةٍ منذ أن عرفته، وهو لم يترك ريع الشباب ذلك بذوقه في الملابس وكاريزمته وطريقته في الحديث، وكلما مرت السنوات، كانت هذه الأشياء ستجعله أكثر إثارة للسخرية.

- وهل يعقل شيء كهذا! سأطلب لك القهوة.

ورفع سماعة التليفون.

بقدر ما فهمت، فإنه كان يطيل معي حتى يؤخر المواجهة مع "شكران".

وبعدما طلب فنجانيْ قهوةٍ مظبوطة حتى دون أن يسألني كيف أشربها، ضرب يدًا بيد ملتفتًا إليَّ، وقال: - كيف أحوالك؟

مررت هذا السؤال الذي احتارت البشرية في إجابته منذ قديم الأزل، ووضعت القرص المحمل عليه ملف الترجمة أمامه على المكتب: - يمكنني أخذ كتاب جديد على الفور، إذا كان متاحًا.

قال السيد "أسعد" وهو يمد شيك النقود إليَّ:

- طبعًا بكل تأكيد. لدي خبر سار لك.

قلت وأنا أنظر إلي المبلغ المكتوب على الشيك: - حقًا؟ ماذا يا تُرى؟

بدا المدير وكأنه مندهشًا:

- ألا تلاحظ؟

عندما استمريت في النظر إليه دون إجابة، قال:

- راتبك زاد بنسبة خمسين بالمئة.

ولأنه ليس لدي أية فكرة عن ما صرف الشهر الماضي، فبطبيعة الحال لم أستطع أن ألحظ الفرق.

قلت محاولًا التظاهر بأنني ممتن له، وسعيد لسماع هذا الخبر: - يا إلهي! طبعًا طبعًا.

أخذ السيد "أسعد" يحملق:

- ماذا؟! ألم يعجبك؟

- كلًا، دهشت فقط، شكرًا جزيلًا.

قال مسندًا ظهره إلى الوراء:

- اممم، لا عليك، شيء بسيط، لأنك تستحق ذلك.

- نعم.

كنت قد توترت بلا سبب هكذا فجأة، وللأسف، لدي طبع سيئ، فعندما أتوتر أخرف وأقول أشياء كالأبله: - رأيت "شكران" قبل قليل في الأسفل، كانت تجهش بالبكاء.

تنهد السيد "أسعد" آخذًا نفسًا عميقًا، ضيق عينيه، ثم لوى شفتيه، وضرب يدًا بيد، وأخيرًا قال: - الافتراء، إنه جريمة كبرى.

من الواضح أن "شكران" لم تروِ لي بقية الحكاية، وفي الواقع، لا يهمني كثيرًا ما حدث بينهما ولا أبالي به، فقلت: - لا تؤاخذني، هذا لا يخصني بكل تأكيد.

- والابتزاز جريمة أكبر، يمكن أن يرقد المرء في السجن بسببها لسنوات.

في تلك الأثناء، دخلت سيدة ووضعت أمامنا فنجانَيْ قهوة وبجانبهما كوبين من الماء. أخذت شربة من الماء متنحنحًا، وكنت قد ندمت على ما تفوه به لساني وما سيتفوه به؛ لم أرد سوى أن أتسلم الكتاب الجديد، والرحيل من معقل المكائد والمؤامرات هذا في أسرع وقت.

وقفت قائلًا:

- لا شك في ذلك. دعني لا أشغل سيادتك أكثر من ذلك، لدي اختبار بعد نصف ساعة، عليَّ الذهاب بعد إذنك.

قال مبتسمًا:

- كما يحلو لك.

وأخرج كتابًا جديدًا للترجمة من درج المكتب، وناوله لي: - أوصل سلامي إلى "نرجس".

- بالطبع.

بعدما خرجت من المكتب، نزلت السُلَّم بخطوات سريعة دون انتظار المصعد الكهربائي، وعلى الفور، قمت بصرف شيك النقود من فرع "سيتي بنك"، وعدت بعدها إلى منزل "صفوت" من حيث أتيت.

ولأن حب المال وبغية الحصول عليه قد شغلني، أو لأنني لم أجد شيئًا جديدًا لأفعله، جلست عاكفًا على ترجمتي الجديدة حتى الساعة الثامنة، ولم يكن "صفوت" قد عاد بعد؛ على أغلب الظن كان سيذهب من الجامعة إلى منزل "سنان" مباشرة. أغلقت الكمبيوتر، وخرجت من المنزل لآخذ دوري اللامع في عالم المسرح المشرق، متوجهًا إلى أقرب محطة أوتوبيس.

عندما وصلت إلى منزل "سنان"، وجدت الفريق كله جالسًا أمام التليفزيون يتابع الأخبار. جاءت عيني في عين "عبدُل"، لكن لم أسلم عليه، وهو كذلك، فقد أدار وجهه نحو شاشة التليفزيون مرة أخرى. سألتهم قائلًا: - خير؟ ماذا يحدث؟

رد "قدير":

- اعتقلوا الأعضاء الأكراد من مجلس النواب.

إنها حادثة ستدور على الألسنة كثيرًا على مدار السنوات القادمة، فتلك الأيام كانت أيام صراع مع تلك الجبهة في بلدنا، التي "حُبِسَ قَدَرُها ما بين العسكر والجامع"، كما قال أحد أشهر كتابنا ومفكرينا بتعبيره البليغ قبل سنوات. بدأت الأحداث باستهداف رئيس أركان الجيش للحزب الكردستاني معتبرًا إيّاه حزبًا إرهابيًا، بعدها على الفور، رُفعت الحصانة من على بعض الأعضاء الأكراد بمجلس النواب، واعتُقل اثنين منهم من أمام باب المجلس، أمَّا البقية

الذين احتموا في المجلس، فسلموا أنفسهم بعدها بيومين. مشهد القبض عليهم واقتيادهم، سيُذكر بشكل خاص كواحد من أكثر صفحات التاريخ السياسي التركي سوداوية، لكنَّ الوضع لم يكن هكذا في تلك الأيام؛ حيث إن الحكومة قيَّمت الواقعة باعتبارها نتيجة طبيعية وتنفيذًا لأحكام القضاء، كما أن الإعلام نقل هذا المشهد على أنه تطور إيجابي؛ ذلك بتوجه "عبادة القوة" كعادته، ورؤيته المتفائلة للأحداث، وبتعليقاته "الحيادية" بحيث لا تدع مجالًا للفهم الخاطئ من قِبل القوات المسلحة.

عندما انتهت النشرة قالت "جوركان":

- ماذا يظنون أنفسهم فاعلين؟

أجابها "عبدُل":

- يعني ماذا سيفعلون؟ إنهم يغنون: إلى الجبال تعال إلى الجباال...

قالت "جوركان" بأسلوب حاد:

- ماذا يعني هذا الآن؟ ومن وماذا يغني؟

- من سيكون؟ الدولة طبعًا، تغني وتقول: لا محل لك بالمجلس، لنحل مسألتنا في مكان آخر، تعال إلى الجبال تعال!

احتدت "جوركان" مجددًا:

- هذه غوغائية!

لم يكن ربطُ الأغنية المشهورة لفرقة "جروب يوروم" الأسطورية الثورية بالحديث عن الدولة، لقمةً مستساغة بالنسبة لـ"جوركان". من ناحية أخرى، ضاع مسار حديث "عبدُل" وانقطع حبله تمامًا... أمر طبيعي، فعندما تصبح السياسة موضوع النقاش في بلادنا، فلا يختلف الناس عن بعضهم كثيرًا.

دخلت "سيلدا" في الحوار بكل ثقة، معربة عن قناعتها المبنية على كلام مرسل: - هذا توجه متعنت بعض الشيء في رأيي أيضًا؛ لكل الشعوب المستعمرة الحق في تقرير مصيرها.

لم يأبه "عبدُل" بتعليقها إطلاقًا، وقال:

- إنكِ تحولين القضايا السياسية التي لا تستطيعين حلها إلى قضايا أمنية؛ كل الدول تفعل هذا.

بادر "بولنت" بالتدخل ليعدل على كلامه: - تقصد الدول الفاشية؟

رد "عبدُل" عليه قائلًا:

- كلا، أقصد كل الدول. أساسًا الدول كلها تأخذ منحى الفاشية، وكلها دول متطفلة في أفضل حالاتها، وقصة "الملك العاري والخياط المحتال" هي ملخص للتاريخ السياسي لكل الحكومات!

قالت "جوركان" وهي تمد ذراعها لتأخذ الجيتار المعلق على الحائط: - لا يحق لك أن تضع الدول التي تلبي احتياجات شعوبها مع الدول البرجوازية في كفة واحدة.

كانت هي التي تعزف موسيقى المسرحيات التي نمثلها، لكن على ما أظن أنها هذه المرة أمسكت بالجيتار لكي تحطمه على رأس "عبدُل"، لا لكي تعزف عليه.

وضع "عبدُل" قدمًا على قدم، وفكر مليًا، ثم قال:

- الشعوب (ثم لعق شفتيه) لا تستطيع أن تحدد احتياجاتها، لكن ومع ذلك، تكون راضية وقانعة فوق الوصف، فأعظم التحولات والإنجازات والاكتشافات لم تتحقق بفضل الشعوب، حتى إن العكس صحيح في غالب الأمر، فلا يوجد أحد يكره التجديد والحداثة بقدر الشعوب، كما أنهم كثيرًا ما يلقون بالأناس الذين يناضلون من أجلهم في النار عن طيب خاطر وبنفس راضية.

دخلت "تولاي" في الحوار كالعادة بأسلوبها اللطيف المخادع: - هناك شيء يشغل بالي؛ شخصٌ يفكر تفكيرًا كهذا، ما عمله في فرقة مسرح ثورية؟

بدا "عبدُل" وكأنما تهللت أساريره بمشاركة زوجة زعيم المسرح في الحوار، فأخرج سيجارة من علبة "فوليه" وأشعلها، ثم أجابها قائلًا: - أرى أن فكرة القيام بثورة أولًا، ثم بعدها نقوم بتهذيب وتثقيف الشعب هذه، فكرةٌ غير ناجحة على الإطلاق، كما أنني لا أرى أي فرق لهذه النظرة عن أي أيدولوجية شمولية استبدادية أخرى، فلا يمكن أن تنتظري خلق مجتمع سليم قويم من أناس لم ينجحوا في تحقيق "فردية" سليمة قويمة، فالثورية في رأيي، تكمن أولًا في إخراج الشعب من كونه شعبًا، والتوجه الذي يليق بالإنسان هو

الاشتراكية بكل تأكيد، ولكن ينبغي على الإنسان أن يصبح هو الآخر لائقًا بالاشتراكية.

سألته "تولاي" بصنعة لطافة مجددًا:

- وتحقيق هذا يتم عن طريق تصغير الشعب والتحقير منه، أليس كذلك؟

نفث "عبدُل" دخان سيجارته في الهواء - غالبًا لأنه لم يكن يستطيع اجتذابه جيدًا إلى رئتيه - ثم قال: - قطعًا لا؛ احتقار الشعب خطأ جسيم، فمعظم الناس ليسوا حمقى أبدًا كما يبدون، وخصوصًا الحمقى بالفعل، فكلٌ له طرقه وأساليبه التي يطورها بنفسه ليواجه العالم من حوله، ولو نظرنا إلى جوهر الأمر، لوجدنا الأناس ذوي العقول المتأخرة، وخاصة إذا كانوا صادقين ولديهم الجرأة التي تجعلهم يعترفون بذلك، فإنهم سيطورون من أنفسهم والميزات التي لديهم؛ حتى يستعملونها ضد الأناس الأذكياء، وبعدها سيصلون إلى مناصب مهمة ورفيعة، ساعتها يصبحون جبناء ويخافون من غيرهم، لدرجة أن هذا الخوف سيجعلهم حريصين متيقظين وفي النهاية خبثاء، فالأحمق الذي كسب سلطة وقوة، بلا شك سيكون شغله الشاغل دائمًا هو إبقاء الوضع الذي أوصله إلى تلك النقطة كما هو عليه بل وتقويته وتعزيزه، فعادات المجتمع تظن الناس أغبياء وحمقى، أما الحداثة فتظنهم كائنات ذكية وصاحبة مسؤولية، ولذا تفوز العادات دائمًا على المدى القصير والمتوسط.

قالت "فوليه":

- إنها وجهة نظر تشاؤمية للغاية في رأيي. في النهاية، نحن نعيش في عالم متقدم مقارنة بما كان عليه قبل مئات السنين؛ يعني أن هناك أشياء تتغير.

رد "عبدُل" الذي تحمس للحوار، وأصبح صعبًا إيقافه قائلًا: - بالتأكيد تتغير، لكن رغمًا عن أنف الشعوب، لنقعد باعوجاج ونتكلم باعتدال؛ الجميع يأخذ ما يقع من نصيبه من هذا التقدم المتنامي قليلًا. لو أخذنا أنفسنا نحن الجالسين هنا كمثال، نحن نسمي أنفسنا ممثلين وممثلات، لكننا لا شيء، فمثلًا نحن لم نعمل في هذا المجال وننتج شيئًا بنسبة واحد بالمائة من ممثلي فيلم لهوليوود رديء الجودة، وهذا الوضع نفسه سارٍ على الكتَّاب والأدباء والأكاديميين والنقاد بالذات، فجميعهم يُعَرِّف نفسه في المقام الأول على أنه ثوري أو قومي أو إسلامي أو مؤيد لهذا أو ذاك، لأن إضافة شيء حقيقي للإنسانية أمر بالصعب، وتعريف نفسك بهويةٍ ما، وتحقيق هيبة منها، ليس بالأمر بالسهل، فهم يستحوذون على العديد من أنظمة الفكر القوية، وبعد ذلك يستعملونها كعصا ضد المعارضين لهم، كما أنهم يشعرون بلذة ومتعة عجيبة من التصارع مع معسكرات المعارضة، وأكثر أشخاص يكرهونهم هم أولئك الذين يفضلون أن يبقوا مستقلين، فشاكلة هؤلاء من الأوغاد - أيًّا ما كان أصلهم - لديهم رسالة يودون نقلها إلى جميعِ مَنْ ساء حظه مع "الفردية" ووقعوا في تعاستها: "أنت أيضًا.. أنت أيضًا سيئ تعيس مثلنا!"، هكذا تدور عجلات المجتمعات الأقل نموًا وتقدمًا.

كان حبيب "سيلدا" يكتفي بالاستماع إلى تلك المناقشة في صمت حتى تلك اللحظة، لكنه دخل في الحوار قائلًا: - بدون المساواة كيف سنتغلب على تلك المشكلات التي تحدثت عنها؟ حتى أتمكن من صنع أفكار إبداعية، وإنتاج

أشياء نافعة ذات جودة وكفاءة مثلُ أي فرد في الدول المتقدمة، ينبغي القضاء أولًا على التفاوت وعدم المساواة القائمة بين المجتمعات، ولكي يتحقق ذلك، ينبغي أيضًا القضاء على عدم المساواة الموجودة في مجتمعي وبين أفراده.

تلك المداخلة الديمقراطية المعارضة، وإن بدت أنها أخمدت - ولو للحظة - نار التوتر الذي عمَّ الوسط بسبب كلام "عبدُل" العنيف المتشدد، إلا أن "عبدُل" أطفأ سيجارته بالمطفأة، واستمر على الوتيرة نفسها قائلًا: - سأقول أنا لك ماذا تعني المساواة، المساواة هي الاعتراف باحتمالية أن يكون الشخص الذي أمامك هو أيضًا خطير ومهلك مثلك على الأقل، وأن تتحالف معه في هذا الأمر.

صرخت قائلًا:

- جئت لأقبض أرواحكم! هل أنتم مستعدون؟

التفت الجميع نحوي، وحدقوا بي للحظة.

- أقصد فلنبدأ العمل على المسرحية، فغدًا يتوجب عليَّ الاستيقاظ مبكرًا.

أيدني "قدير" قائلًا:

- "عزيز" معه حق، وما دمت قد بدأت فاقرأ أنت دور عزرائيل، و"عبدُل" دور الرأسمالي.

لم يعترض أحد على هذا الاقتراح.

وبعدما وزعنا الأدوار الثانوية، بدأنا مباشرة في التأليف الدرامي. لم تكن المسرحية طويلة؛ تقريبًا حوالي ثلاثين صفحة. جربنا ممثلين مختلفين في أدوار وتوليفات مختلفة، وبعدها سكت الجميع منتظرًا رأي "قدير" الذي يعد رائد الطلائع من الناحية الفنية بشكل بديهي، وإن لم يكن بصفة رسمية.

قال "قدير" آخذًا نفسًا عميقًا:

- نعم، سيُقام مهرجان مسرح الهواة في مركز "أورطه كوي" للفنون ما بين 1 - 3 أبريل، يعني أمامنا حوالي شهر تقريبًا، مدة قصيرة للغاية، يجب حفظ الأدوار بسرعة والبدء في البروفات.

أضاف "بولنت":

- تواصلت مع دار السينما، حتى هذا التاريخ قطعًا سيتم إزالة الشمع الأحمر الذي وضعته الشرطة على الدار.

حكَّ "قدير" رأسه بطريقة الذي يفكر في شيء، ثم أعطى جوابه الذي ينتظره الجميع بشوق وشغف: - أرى أن إحساسي لا يخونني؛ يعني أنه لو سنقدم هذا العرض أمام الإله أو أية كيان يمثِّلأ العدالة، فلابد أن يمثل "عزيز" دور عزرائيل، و"عبدُل" الرأسمالي.

قال "بولنت":

- أوافقك الرأي. هيا، لنحدد الشخصيات الأخرى، ليأتِ الجميع يوم الأربعاء القادم حافظًا دوره.

بصراحة لم أكن أتوقع هذا إطلاقًا، ولن أظلمهم، فلم يصدر من أحد منهم أي رد فعل سلبي أو اعتراض على اقتراح "قدير"، مع أننا لسنا أكثر الأفراد المرغوب فيهم بين الفرقة، فقط "سنان" الذي يعد ممثلًا لا بأس به، بدا وكأن مزاجه قد تعكر قليلًا.

أنهينا الحديث في التفاصيل ثم سلم كل منا على الآخر، وبينما أنا خارج من الباب مع "صفوت"، أمسكني "عبدُل" من ذراعي: - هل يمكننا التحدث قليلًا؟

- لا يوجد شيء نتحدث فيه، قل لـ"نرجس" إنني سآتي في يومٍ، وآخذ أغراضي من المنزل.

قبض على ذراعي أكثر، وأجبرني على الاستدراة نحوه، ودون أن يعطيني "صفوت" فرصة للتحدث، قال لـ"عبدُل" بأسلوب حاد: - هلَّا تركتنا؟ نحن لسنا متفرغيْن الآن، فهناك أمر يجب علينا حله. أيًّا كان ما تريد التحدث عنه، يمكنك أن تُحَدِّثَهُ في يوم آخر.

أخذ "عبدُل" ينظر إليَّ تارة وإلى "صفوت" تارة أخرى، ثم أرخى أصابعه عن ذراعي مبتسمًا: - كما تريد، سأجدك على أي حال.

خرجنا إلى الشارع.

كان الجو بديعًا، فقررنا العودة إلى المنزل سيرًا. نزلنا إلى طريق الساحل، ومشينا لمدة طويلة في صمت، وفي النهاية، جلسنا على إحدى المقاعد الخشبية المطلة على شاطئ البوسفور، لكي نستريح قليلًا.

وفي تلك الأثناء همهم "صفوت" متذمرًا:

- بلوة وابتلينا بها!

- كان جادًا للغاية اليوم، لَرُبَّمَا كان عليَّ تلبية طلبه.

- يا "عزيز"، لطالما لم نبرح هذا الوغد ضربًا، فسنبقى في حالة القلق هذه، وستظل أعيننا ناظرة إلى الوراء دومًا.

أخذت حجرًا من الأرض قائلًا:

- الضرب ليس حلًا يا "صفوت".

- حسنًا، قل لي ما الحل في رأيك؟

قمت من مكاني، ورجعت بذراعِي إلى الوراء، وبكل ما أوتيت من قوة قذفت حجرًا على سفينة بضائع آتية على بعد: - القتل!

ESPAÑOL

8

حركات متسكعين

Lounge Act

مرت الثلاثة أو الأربعة أيام التالية، وأنا منشغل بترجمة كتابي الجديد وحفظ دوري المسرحي، ولم أخرج من منزل "صفوت" على الإطلاق. في الغالب، كنت أهرب من "نرجس"، أو بالأحرى من مساءلة نفسي عن ما أحسه بداخلي من مشاعر تجاهها؛ من الصعب التعبير عن المشاعر التي أحسها الآن، فليست مشاعر غضب أو انكسار أو خيبة أمل، بل شيء يشبه فقدانك الأمل في الأمل نفسه... أو شيء كهذا؛ كأن تعرف أن الشخص الذي أقمت الحداد عليه لسنوات، هو في الأساس لم يمت أصلًا. وفي خضم هذه الأحاسيس الغامضة المعقدة، كنت أحاول أن أكرس نفسي وأشغلها بالعمل. وعندما أحسست نفسي متهيئًا للخروج ومواجهة الناس، كان يوم الإثنين قد جاء، ولأنني كنت قد مللت قليلًا، ولم أجد شيئًا آخر لأفعله، قررت الذهاب إلى الجامعة، لعلي

أحضر بعض المحاضرات، وأدردش مع أحد الأصدقاء. من ناحية أخرى، كان عليَّ الذهاب إلى منزل "روملي حصار" لأجمع أغراضي من هناك، فقررتُ أن أنجز هذا الأمر في طريقي.

سلكت طريق الساحل، ووصلت إلى منحدر "آشيان" ومنه إلى الجامعة. إن قدرتي على الذهاب سيرًا على الأقدام إلى كل الأماكن دون استصعاب حتى أشد الطلعات انحدارًا كهذه، كان أمرًا يحلو لي كثيرًا، ويعدل مزاجي بطريقة لا توصف، فعلى الإنسان أن يعرف قيمة صحته. أشعلت سيجارة ونزلت إلى كافتيريا "أورطه".

طلبت كوبًا من الشاي، ثم جلست على إحدى الطاولات. أردتُ أن أنظر في جدول المحاضرات وتنظيم حياتي الأكاديمية، فلا أريد أن أصبح مترجم روايات رومانسية رخيصة حتى نهاية العمر، ومن ناحية أخرى، مستقبلي في المسرح مجهول، وكان يجب علي تطوير خطط استقلال وإنقاذ بديلة، كما يفعل كل أبناء العمال والموظفين، إلا أن "نورالدين" جاء فجأة، وأصاب أحلامي بسكتة قلبية.

سألني وعلى وجهه إيماءات خبيثة قائلًا:

- "عزيز"، ما أخبارك؟

الآن ستحدثون أنفسكم "كيف يتصرف إنسان بطريقة كهذه وهو يسأل آخر عن أحواله؟"، أعرف، ولكنها طريقة "نورالدين"، فهو يعبر حتى عن أكثر الأمور العادية بطريقة مستفزة ومقلقة للغاية، لذلك قلت حتى أتجنب الاحتكاك به: - بخير حال يا "نورالدين"، وأنت كيف حالك؟

حكَّ رأسه قائلًا:

- بخير بخير. كنت سأطلب منك المساعدة في موضوع ما؟

- تفضَّل.

- عليَّ تحضير بحث الفصل الدراسي لمادة علم الأحياء الاجتماعية، وأنت لك في تلك الأمور؛ الجينات والميمات (Memes)، وما شابه... هل يمكن أن تشرحها لي؟

في الحقيقة، هذه موضوعات كنت أفهمها جيدًا، وتعبت عليها كثيرًا في فترة من الفترات، جزء كبير منها لم يتبق في عقلي، لكني أصبحت أتذكره الآن.

- ماذا تريد أن تعرف بالضبط في هذا الجزء؟

أخرج "نورالدين" علبتين دواء من جيبه، وتناول حبتين برشام، ثم فسر ما فعله قائلًا: - يبدو أنني أصبت بنزلة برد عافاك الله... انظر، موضوع الجينات هذا أفهمه، لكنَّ الميمات هذه لم أفهمها، ما هي؟

على أية حال، سأل في الجزئية السهلة.

بدأت الشرح:

- يمكننا اعتبار "الميم" كنظير اجتماعي للجينات، وهو أصغر وحدة ثقافية في المجتمع، يمكن أن يكون فكرة أو لحن أغنية أو شعار إعلان.. ومثلما تتضاعف الجينات وتجدد نفسها منتقلة من جسم إلى آخر، فإن الميمات تقوم بالنشاط نفسه منتقلة من ذهن إلى آخر، وهناك الميمات القوية، والميمات

الضعيفة تمامًا مثل الجينات؛ إذا كانت الميم فعالة بما فيه الكفاية، مثل النغمات الأولى من السيمفونية الخامسة لـ"بيتهوفن"، ستنتقل من ذهن إلى ذهن فستعيش لمئات بل آلاف السنين حتى يقل التأثير فيصبح لحنًا ضعيفًا وينتهي. قس على ذلك الميمات بالضبط، فهي كالأحياء، تتطور وتستجيب للضغوط الانتقالية، وتخضع للانتخاب الطبيعي أي لقواعد التطور الوراثي.

قال "نورالدين" ضاحكًا من تحت شاربه باستهزاء:

- يا إلهي، إنه أمر عجيب جدًا!

في تلك اللحظة، انتابني شك في أنه يعرف جيدًا المعلومات التي شرحتها له، وأنه فتح هذا الموضوع فقط حتى يشاكسني. ليكن كذلك، فإني أعرف كيف سألعب هذه اللعبة معه.

قلت:

- إنها فعلًا عجيبة. انظر، الميمات كالجينات بالضبط، يمكنها أن تظهر في حالة تنافس أو تعاون؛ فمثلًا الاشتراكية والرأسمالية هما مجموعتان من الميم في حالة تنافس، ويحاول كلٌ منهما نبذ الآخر وإقصاءه. دعنا نتناول الميم من جانب آخر؛ ميم الإله. إن الإيمان بوجود خالق، يعني فهم الوجود بربط ما لا يُعلم بما لن يُعلم؛ أي ما هو مجهول بما سيكون مجهولًا، وبهذه الطريقة يُسَلَّم به ويلقى قبولًا وانتشارًا. الدار الآخرة أيضًا، فهي علاج لأكبر كابوس يراه الإنسان وهو الخوف من الموت، وعندما تجتمع ميمٌ كميم الإله والآخرة، يشكلان معًا ميمًا آخر أكثر قوة، وفرصة عيشهما وبقائهما معًا تزيد أكثر من بقاء كلٍ منهما على حِدَةٍ؛ مثل فكٍّ قوي مع أنياب حادة قاطعة. وهكذا، تدخل

المعادلة ميماتٌ جديدة خاصة بصفات دار الآخرة، هما آليات الثواب والعقاب كالجنة والنار، وفي النهاية، تظهر آلية أخلاقية تشكل نظام المجتمع، ويطلق عليها الدين، كما تعلمه جيدًا.

سألني "نورالدين" لاعقًا شفتيه بتلذذ واستمتاع:

- وهل رأيت ميمًا قبل ذلك؟

- نعم رأيت، كانوا يلعبون الطاولة مع عزرائيل.

ضحك "نورالدين" متهكمًا، ثم قال:

- يا صديقي، إن الإنسان الذي لا يملك بيده سوى الشاكوش، سيرى كل شيء مسمارًا.

قطع حديثنا صوت يقول:

- هكذا يقول الرجل الذي يؤمن بوجود أجوبة لكل الأسئلة في كتاب كُتب قبل أربعة عشر قرنًا.

لم يكن أحد غير "عبدُل" الذي جاء والقهوة بيده، وجلس على الكرسي المقابل لي، ثم أشار إلى الأدوية التي أمام "نورالدين": - زال البأس عنك يا صديقي! يبدو أننا لا نأخذ أخلاق الغرب، ولكن نأخذ مضاداته الحيوية؟

نظر "نورالدين" إليه من أعلى إلى أسفل بتوتر لم يستطع إخفاءه، وبعدها مباشرة لملم نفسه، وعلق بهذه الجملة التي على لسانه دومًا: - لا، نحن لا نفعل هكذا؛ نحن فقط نطلب العلم ولو في الصين.

- أنت تعلم أن المضادات الحيوية تلك التي تتناولها يتم صنعها وتطويرها في معامل الدواء وفقًا لمبادئ نظرية التطور الوراثي، أليس كذلك؟

- والأسبرين أيضًا يعالج الصداع، فهل سأستنتج أن صداع رأسي سببه نقص الأسبرين بجسمي؟

- لا، ولكن يمكن أن تتوصل إلى نتيجةٍ، وهي أنه لا بد أن نذهب دائمًا إلى أماكن مختلفة حتى نطلب علمَ آلافِ السنين.

وبعدما قال "عبدُل" ذلك الكلام، التفت إليَّ:

- أما آن الأوان أن نتحدث؟

- حسنًا. "نورالدين" هلَّا سمحت لنا قليلًا، وبعدها نكمل، حسنًا؟

سلم علينا "نورالدين" برفق وأدب ثم ذهب، وبقيت وحدي مع عدو الشعب هذا.

قلت:

- تفضل، ما الأمر؟

حك "عبدُل" شحمة أذنه، ثم احتسى رشفة من قهوته وأخيرا عبس وجهه. على أغلب الظن، لم يستطع أن يقرر من أين يبدأ الموضوع الشائك الذي برأسه، وأخيرًا فعلها وبدأ، لكنه قال شيئًا لم أكن أتوقعه على الإطلاق: - لديَّ عرض عمل لك، أو بالأحرى شراكة.

هذا الكلام الغريب، وإن استدعى على عقلي بعض الأفكار غير اللائقة حول "نرجس"، إلا أنني طردتها تمامًا وأبعدتها على الفور.

- ما الذي تريد قوله؟

- أقول لنشكل فرقة مسرح خاصة بنا، ونمثل في مسارح جيدة ذات مستوىً مع ممثلين محترفين.

- هل تمزح معي؟

- بالعكس، أنا جاد للغاية. لا تفكر في مسألة المال، فأنا سأحلها في أقرب وقت.

- هذا هو الموضوع؟ كنت أظنك ستحدثني في موضوع "نرجس"!

سألني بكل برود:

- "نرجس"! ماذا حدث لها؟

كنت أريد خنقه.

تنحنحت محاولًا انتقاء كلامي:

- بالطبع، أنا لا أعرف جيدًا عادات وأعراف المكان الذي قدمت منه، لكن هناك بعض الرجال في بعض مناطق العالم، لا يتقبلون بصدر رحب أن تعيش نساؤهم اللواتي هن على وشك الزواج منهم، علاقة حب مع غيرهم.

ردّ بلا مبالاة وعدم اكتراث مجددًا:

- ها، تقصد تلك المسألة. في الحقيقة، أنا لا أبالي بأمور كهذه، ولا أهتم بها، لأن امتلاك الناس واستئثارهم ببعضهم البعض، لا أراه أمرًا صحيحًا، لكن إذا كنت قد تضايقت من هذا الأمر، فأنا آسف طبعًا.

ها! يعني أن "نرجس" حكت لك ها؟ لم أكن أتوقع إطلاقًا.. على كل حال، ما رأيك في عرضي؟

تجمدت من الصدمة، وبقيت هكذا مفتوح الفم، ثم تمتمت قائلًا: - أنت.. هل تقترح علاقة متعددة الأزواج؟

لم يجاوبني، وسدد نظراته ناحية شيء خلفي.

حولت رأسي لا إراديا إلى تلك الناحية، فوجدت رجلًا جالسًا يقرأ الجريدة على الطاولة المقابلة لنا من الخلف. رجل ذو شوارب، في الأربعينيات من عمره، يرتدي بدلة ونظارة شمس، وشكله لا طالبًا ولا أستاذًا جامعيًا، يشرب اللبن من علبة ضخمة نصف كيلو، على العكس من هيئته المخيفة للغاية.

قال "عبدُل":

- اسمع! عليَّ الذهاب الآن. فكر في العرض، حسنًا؟ اتفقنا؟ بالمناسبة سيكون من الأفضل أن تقابل "نرجس"؛ كانت قلقة عليك كثيرًا.

بعدما قال هذا، قام مسرعًا وخرج من الكافتيريا، وبعد قليل تبعه الرجل ذو الشوارب، وبقيت أنا هكذا كالأبله. حشوت جدول المحاضرات في جيبي

مطلقًا اللعنات على الحياة الأكاديمية والمهنية سواء، ثم خرجت من المكان.

مشيت إلى أن وصلت إلى مبنى برج الساعة، ذلك المبنى حيث بدأ كل شيء، واندلعت النار وقذفتني إلى جهنم التي أعيش فيها الآن. أخذت أتحسسه، لكن لم تكن هناك أي علامة تدل على أن شيئًا من ما يدور في رأسي قد حدث بالفعل في الحقيقة. ستتعجبون، ولكن في تلك اللحظة، تضاءلت للغاية كل ذكرياتي المتعلقة بالمستقبل وانحسرت؛ أحاول التفكير في ابنتي، لا يأتي على ذهني أي شيء متعلق بها: هل حقًا ولدت؟ وهل تزوجت أنا و"نرجس" حقًا؟ وكأن الأشخاص والأماكن والتفاصيل التي أراها مهمة في حياتي، كانت تتداخل وتتحلل مع بعضها شيئًا فشيئًا. حينئذٍ، راودتني فكرة؛ إنه من الممكن أن يكون كل شيء في عقلي مرتبطٌ بالعشرين سنة القادمة، ما هو إلا أحلام وخيالات رأيتها أثناء الغيبوبة التي دخلتها في جلسة قراءة الفنجان المجنونة تلك مع "كآن"، كان لهذه الفكرة جانب مرعب يقشعر بدني ويوقف شعر رأسي، وجانب آخر يطمئنني ويريحني بشكل عجيب.

وبالحالة النفسية العجيبة تلك بدأت السير، وحملتني قدماي إلى "روملي حصار". اشتريت زجاجات بيرة من كشك على الساحل، وجلست أتأمل "البوسفور" والصيادين الذين يعملون على الشاطئ. وبعد بضعة ساعات، كنت قد شربت أربع أو خمس زجاجات، وتثاقل جسمي بشكل عجيب، وفجأةً، قمت من حيث أجلس مقررًا الذهاب إلى منزل "نرجس"، كان مرعبًا أن أتذكر جيدًا المكان الذي كنا نعيش فيه قبل عشرين سنة! عندما وصلت إلى العمارة، أدخلت المفتاح الصحيح في الباب. رائحة الشقة والأثاث وحتى الأكل بالثلاجة، تمامًا كما تركتها قبل أسبوع تقريبًا. والآن، أصبحت على يقين أن

هذين هما المكان والزمان اللذان أنتمي إليهما، وأي شيء خلاف ذلك، كابوس لا يستوعبه أي عقل. ألقيت بنفسي على كنبة الصالون وأغمضت عيني.

عندما استيقظت، كانت الشمس قد غابت. تجولت في المنزل ورأيت أنه لم يبقَ لي سوى بعض خرق ملابس، وفتات أشياء مبعثرة في الأرجاء، فكانت أسرة "نرجس" قد ألقت كل شيء يخصني. قررت أن أترك المكان وأذهب دون أخذ أي شيء معي؛ أريد بدء حياة جديدة، لكنني مضطر لطي صفحة "نرجس" ورميها وراء ظهري، حتى لو كان قلبي ينفطر حزنًا، فموضوعات كتعدد الأزواج هذه لا تناسبني؛ أعرف بعض أشخاص جربوا مثل هذا النوع من العلاقات، ولم تكن نهايتها خير.

وضعت حقيبتي على ظهري وتوجهت نحو الباب، وأنا على وشك الخروج، علق بعيني تليفونٌ أرضي بجوار شماعة مدخل البيت، خطر "يامان" ببالي على الفور، وفكرت؛ لو أن الشيء الذي أعتقد أنه المستقبل هو عبارة عن وهم، فلا بد أن حادثته الأليمة هي أيضًا عبارة عن وهم، ومع ذلك، لم أتحمل وأخرجت النوتة من حقيبتي، وطلبت رقم منزل صديقي القديم.

ردت امرأة:

- آلو؟

- مرحبًا، أنا "عزيز" صديق "يامان"، هل يمكنني التحدث معه؟

- "عزيز" أهلًا، أنا خالتك "نوران" والدة "يامان"، هو ليس في المنزل الآن، سأبلغه ليتصل بك، تمام؟

- خالتي "نورّان"، في الوقت الحالي ليس لدي رقم تليفون ثابت، سأتصل به لاحقًا، لكنني أريد أن أوصل له رسالة لو سمحتِ.

- تفضل يا بني، على عيني ورأسي.

- انظري، ما سأقوله هذا ربما سيبدو غريبًا لك، لكنه في الحقيقة مهم جدًا: عندما يركب أي وسيلة مواصلات فعليه، قطعًا أن يشد حزام الأمان طوال حياته، هل يمكنك إبلاغه هذه الرسالة؟

- لا أفهمك يا ولدي!

وحتى لا تظنّني مجنونًا بمعنى الكلمة، مررتها ملفقًا كذبة: - رأيت "يامان" في منامي، كان يعمل مصورًا في قناة تلفزيونية تعرضت سيارتها لحادث مروع، و"يامان".. على كل حالٍ، سأعاود الاتصال به مجددًا. دمتِ سالمة، مع السلامة.

ثم أغلقت.

وما إن وضعت السماعة مكانها، رنّ التليفون، أجبت في لحظتها: - آلو؟

وبعد صمت لم يدم طويلًا، سمعت صوت امرأة:

- أريد التحدث مع "شكران".

- "شكران"؟

- أعلم أنها عندك، يمكن أن تناديها إذا سمحت؟

- لا يسكن هنا أحد بهذا الاسم، يا تُرى مع من أتحدث؟

كانت المرأة تشهق، وتتنفس بانفعال وعصبية:

- هذا الرقم اتصل بتليفون عمل زوجي لمرات عديدة الشهر الماضي.

- يا سيدتي، كما قلت لكِ، لا يسكن هنا أحد بهذا الاسم، أنا "عزيز"، من حضرتكِ؟ لو أعلم ربما أستطيع مساعدتك.

- اللعنة عليكم جميعًا!

ثم أنهت المكالمة.

من الواضح أنني وقعت مع زعيمة المجانين بعينها. ألقيت أنا أيضًا عليها وابلًا من السباب والشتائم لا يناسب ذكرها هنا، ثم نزلت مباشرة إلى الساحل مرة أخرى؛ هدفي هو القفز إلى الأوتوبيس والذهاب إلى منزل "صفوت"، لكنني لم أستطع مقاومة الرائحة الزكية القادمة من المطعم الذي يقع خلف المحطة مباشرة، فدلفت إلى الدكان.

كانت عصافير بطني قد صاحت من شدة الجوع. طلبت شطيرتين محشوتين باللحم وعلبة لبن رائب، وبينما أنتظر الطلبية، علقت عيني بلوحة مقرفة معلقة على الحائط، مرسومٍ بها سماء وتحتها حقل، وفي الأفق بيت مزرعة، وفي الخلفية أشجار وما شابه. أخذت أتأمل اللوحة، فلاحظت أنها مدقوقة في الحائط بالضبط من منتصفها بمسمار مدهون بالأزرق، مثل لون السماء التي تحتها حتى لا يُلاحظ الفرق، لم أستطع أن أتمالك نفسي وانفجرت بالضحك.

وعندما أحضر النادل الطعام، رآني في هذه الحالة فسألني قائلًا: - خير يا أخي؟ يبدو أن مزاجك عالٍ ما شاء اللّٰه.

حاولت أن أستجمع نفسي لأرد عليه.

في تلك اللحظة، تعالت أنغام موشوشة من الراديو القديم بالمطعم، وأنا لا زلت أضحك حتى دمعت عيناي من شدة الضحك. لحظتها، بدأ أعظم أساتذة الفن مطلع أغنيته: "أنتِ وحبي.. كدماء وورود.. كورود وأشواك. أنا وأنت.. كظهرين متقابلين.. لا أعلم هل أحسنت الوصف؟".

غير معقول! ولكن نعم، أحسنت الوصف!

نزلت من الأوتوبيس في محطة "بشكطاش"، ثم صعدت منحدر "يلديز"، متجهًا إلى حي "تشارشي" حيث يوجد "إسكندر دوغان". والآن، أصبحت أفهم ماذا كان يعني بقوله "إن الدماء هي التي تصبغ الورود بلونها"؛ كان يحاول أن يوصل لي أن الأشياء الجميلة التي في حياتنا، هي نتيجة بعض أشياء أخرى نعتبرها مصائب، لكن عبدكم ذا رأس الأوزة، بليد الفهم، لكن بماذا سيفيد التحسر على الماضي الآن؟ إن بإمكاني الآن أن أصبح شيئًا من اللا شيء.

أدركت أن كل شيء قد بدأ بتعارفي على السيد "إسكندر"، وليس بالحريق الذي حدث في مبنى برج الساعة، فضلًا عن كتاب "آلة الزمن" الذي تعمد رشقه بعيني، فلو أن هناك شخصًا سينقذني من هذه الورطة، فلا أحد غير "إسكندر دوغان". عندما وصلت إلى "مغسلة "دماء وورود"، كانت في استقبالي مفاجأةٌ؛ المغسلة في المكان نفسه، إلا أن اسمها مختلف: "إسكندر

دوغان للغسيل والكي الجاف"، وعندما طلبت مقابلة صاحب المحل من الشاب الذي يقف على الكاشير خلف الكونتر، أخبرني أنه غير موجود الآن، وأنه يمكنه مساعدتي. بالطبع، أتفهمه جيدًا، فليس من السهل أن يُوصِل إلى الأستاذ أي أحد يأتي أمامه.

قلت له:

- انظر، أنا أعرفه شخصيًا، وعليَّ التحدث معه في موضوع مهم للغاية، على الأقل لو أخبرته أنني هنا، سأكون ممتنًا لك. اسمي "عزيز"، أنا متأكد أنه سيتذكرني.

- حضرتك.. من أين تعرف الفنان؟

- اختلط عليك الأمر غالبًا، فالسيد "إسكندر" ليس فنانًا، بل إنه الفن بعينه.

سرعان ما لانت تعابير وجه الشاب بعد هذا الكلام، وقال: - بإمكانك أن تجده في حانة "محيي الدين"، إنها خلف سوق السمك مباشرة.

كانت الحانة على الطراز القديم، ولا تشبه كثيرًا تلك الأماكن التي يفضلها السياح والشباب الطائش المتهور؛ زبائن هذه الحانة هم مجموعة من الأشخاص المتعلمين ذوي الوقار والهيبة؛ أي أن أغلبهم من كبار السن بعض الشيء. دخلت، فوجدت الزبائن جالسين على طاولاتهم يشربون ويتحدثون، وعازف كمان مسن يعزف مقطوعات من كلاسيكيات الموسيقى التركية القديمة؛ حتى يطرب الزبائن ولا تنتفخ رؤوسهم من كثرة الكلام. تفقدت المكان من الداخل، فلمحت السيد "إسكندر" جالسًا على طاولة صغيرة مع

ثلاثة رجال: أحدهم أصلع بعض الشيء، والثاني نحيف للغاية، والثالث بدين وعجوز بالنسبة للبقية. لم يبدُ السيد "إسكندر" مختلفًا كثيرًا عن حاله بعد عشرين سنة، ربما وزنه أقلُّ كِيلُوَيْنِ أو ثلاثًا، ولم تهطل الثلوج على لحيته؛ أي لم تشِب بعد. أمَّا عن موهبته اللامعة وكاريزمته، فكانت تمامًا كأول يوم رأيته فيه.

بعدما سلمت على جماعته وعرفتهم بنفسي، اعتذرت لقطعي حديثهم، ثم التفتُّ إلى السيد "إسكندر": - سيدي، كنت أبحث عنك لأتحدث معك في موضوع مهم. هل يمكنك أن تعطيني القليل من وقتك؟

ابتسم قائلًا:

- على الرحب والسعة. اسحب لك كرسيًا لو سمحت.

بصراحةٍ، كانت نيتي أن آخذه ونجلس على طاولة أخرى، لكن لم أجرؤ على أن أثني كلمته، فشكرته وجلست بجانبهم.

بدأ كل منهم يعرف نفسه: الأقرع اسمه "تاهتاكفا" - (رأس الخشبة) والنحيف "قيز توفيق" – (فتاة توفيق)، أما الكهل فاسمه "عمجه باي" - (عمو بيه). انتابني شعور أن هذه ألقاب وليست أسماءهم الحقيقة.

قال "عمجه باي":

- حسنًا، ماذا ستفعل الآن يا "تاهتاكفا"؟

يبدو أنه عاد فجأة إلى موضوعٍ كانوا يتحدثون فيه قبل مجيئي.

أخذت أفرك في مكاني، وأوشكت أن أقول شيئًا للسيد "إسكندر"، إلا أنه أسكتني ضاربًا على ركبتي بلطف، ثم التفت وأشار للنادل ليحضر كأسين آخرين على الطاولة.

ردَّ "تاهتاكفا" على "عمجه باي" وهو مغموم حزين:

- لا أعلم، لازلت أحبها حتى الآن.

- ما دمت تحبها إذا حلَّ الأمر، تذهب وتتحدث معها، وتعود المياه لمجراها.

شرب "تاهتاكفا" من كأس العرق (الراكي)، ثم لوح برأسه يمينًا ويسارًا: - لا يا أخي العزيز، الأمر ليس كما تظن؛ انتهى، ولا رجعه فيه.

أخرج "قيز توفيق" سيجارة من علبة سجائر "بافرا"، التي ظننت أنها اختفت من الأسواق منذ وقت طويل، وأشعلها، ثم سأله: - هذه الفتاة أصغر منك بخمس وعشرين سنة، أليس كذلك؟

ودون أن ينتظر الجواب، تابع يقول:

- أنت في خريف عمرك، أما هي ففي الربيع، طبعًا لن تسير هذه العلاقة؛ فحتى الطيور على أشكالها تقع.

احتد "تاهتاكفا" عليه:

- أنت لا تعلم أي شيء، الفتاة ناضجة ومثقفة وعاقلة، وكنا متوافقين ومتناغمين في الطباع؛ هي مولعة بالأفلام القديمة مثلي، وتحب الموسيقى

الكلاسيكية، وأحيانًا كنا نجلس ونتحدث لساعات، كما أنها تتدلل عليَّ. ملاكي البريء.. حبيبت قلبي! كنا سنتزوج، حتى إن والدتها وافقت.

- حسنًا، وما الذي حدث حتى تركتك؟

- هي لم تتركني، أنا من تركها.

صرخ "عمجه باي":

- هوببااا! بنيَّ، هل أنت مجنون؟ ما دمت تحب المسكينة إلى هذا الحد، فلماذا انفصلت عنها؟

تأوه "تاهتاكفا" من أعماقه:

- طلبت مني شيئًا لن أستطيع فعله.

كسر "قيز توفيق" الصمت الذي خيم على الطاولة قائلًا: - هاااا! تقصد تلك المسألة؟ معروف، الأخت شابة!

صرخ "تاهتاكفا":

- تبًا لك يا "قيز توفيق"! المسألة ليست هكذا، فلو استوجب الأمر لأخرج عشرة أولاد من جيبي بعون اللّه، ماذا ظننت؟!

استمر "عمجه باي" في استجوابه قائلًا:

- أم أنها مسألة ماديات؟

- لا، لو طلبت لأعطيتها كل ما أملك؛ يرخص الغالي لها.

- حسنًا يا بني، ماذا طلبت هذه المرأة منك حتى دمرت كل شيء هكذا؟

شرب "تاهتاكفا" ما تبقى من كأسه مرة واحدة ومسح دمعته، ثم حك قفاه، وأخيرًا أفصح عن الحقيقة المخيفة: - طلبت مني أن نخرج أمام الناس متشابكيْ الأيدي!

- ها؟

- لم أتحمل يا أخي أن أخرج أمام الناس مع فتاة في عمر ابنتي؛ كثيرٌ علي، كان فؤادي يرتعد خوفًا من أن يرانا أحد، ويسخر مني.

وبينما يتحاور الأصدقاء الثلاثة فيما بينهم قاتلين الحكاية المأساوية بحثًا، إذ التفت السيد "إسكندر" نحوي، وبدأ يصب مشروب العرق بالكؤوس التي أحضرها النادل: - احكِ يا سيد "عزيز"، لماذا كنت تبحث عني؟

شكرته، وأخذت رشفة من كأس العرق وأنا أفكر من أين أبدأ حكايتي؛ حتى لا يظنني هاربًا من مستشفى المجانين.

في الحقيقة، لم يكن أمرًا سهلًا، لكني فعلتها في النهاية، وسردت له سلسلة الأحداث العجيبة بدءًا من يوم تعارفنا، محاولًا إقناعه قدر المستطاع. استمع "إسكندر دوغان" لكلامي منصتًا حتى نهايته دون أن يقاطعني على الإطلاق، وبعدها توقف مدة، وأخذ يفكر شاردًا، ثم سألني: - حسنًا، وهل نُظِّفَ جيدًا؟

- عفوًا، لم أفهمك؟

- أقصد الجاكيت، هل نظف جيدًا؟

في الواقع، استغربت قليلًا أنه ترك كل هذه الأحداث المجنونة، وعلق على هذا الأمر.

جاوبته قائلًا:

- نعم، نُظِّف وكوي جيدًا.

- امتنان الزبون أمر مهم للغاية بالنسبة لنا، واحترام المهنة أكثر أهمية.

قلت وأنا أعض على شفتيَّ:

- بكل تأكيد، هل ستساعدني؟

- ماذا تريد مني بالضبط؟

- لا أعلم، ربما تدلني على الطريق الصحيح، أو على الأقل تقول لي شيئًا يوضح لي كل ما جرى معي.

- الناس يقضون حياتهم دائمًا في البحث عن إجابة، مع أن معظمهم ليس لديه أي فكرة عمَّا يكون السؤال.

قلت فجأة:

- أخشى ما أخشاه أن أصبح قاتلًا. رأيت في المستقبل... أو في منامي أني سأقتل هذا الوغد المدعو "عبدُل"، فالشخص الذى حكى لي حكايته، قال إنه

سيذهب ضحية جريمة، والآن، أنا شغوف لأعرف: يا تُرى، هل أنا القاتل؟

- لكنك لم تقتل أحدًا حتى الآن، أليس كذلك؟

- لا، ولكن ماذا لو قتلت؟

- إذًا، ساعتها ستكون قد عرفت من القاتل.

ثم سألني أغرب سؤال في العالم:

- حسنًا، وماذا لو لم تقتله؟

قلت وأنا آخذ رشفة من كأسي:

- لم أفهمك؟

- إذًا، لن تستطيع أن تعرف من القاتل؟

تشوش عقلي، فسألته قائلًا:

- وهل هذا مهم كثيرًا؟

- ألست شغوفًا لتعرف: هل أنت القاتل أم لا؟

لا بد أن أعطيه حقه، فلقد كان لديه براعة في المحاورة، وطريقة عجيبة في الإقناع.

قلت:

- لطالما أنا لستُ القاتل، ألا يكفي هذا؟

قلب تفكيري رأسًا على عقب مرة أخرى قائلًا:

- وماذا لو قتلت؟ يعني؛ لنقل إنك لم تقتل اليوم، ولن تقتل الغد... فمن أين نعرف أنك لن تقتل بعد غد؟

- أظن أنك على حق، لكنني أحتاجك أن توضح لي ما تقصده أكثر.

التفت إليَّ، ووضع يده على كتفي، ثم حدق عينه بعيني: - يا بنيَّ، تعقب الدماء، وستجد الورود هناك.

وفي تلك اللحظة، رفع الأصدقاء الثلاثة كؤوسهم وقرعوها، هل كان هذا احتفال بنصيحة السيد "إسكندر" التاريخية، أم متعلق بموضوع آخر؟ لا أعلم، لكنني ابتسمت وشاركتهم. رفعت ما تبقى من كأسي، وشربته مرة واحدة، ثم قدمت شكري للسيد "إسكندر"، واحترامي للآخرين ونهضت.

أردت المساهمة في دفع الحساب، إلا أنهم رفضوا بشدة، وتمنوا لي ليلة سعيدة، وقبل أن أرحل قلت: - سيد "إسكندر"، هل يمكنني أنا أيضًا أن اقترح عليك اقتراحًا؟

ابتسم قائلًا:

- بكل تأكيد.

- ما رأيك في تغيير اسم المغسلة؟

- ولم لا؟ هل يوجد برأسك شيء معين؟

- يوجد؛ دماء وورود.

9

السيد ذو الشوارب

Mr. Moustache

على الرغم أن نصائح السيد "إسكندر" الحكيمة قد استثارت حماسي كثيرًا في البداية، فإنني عندما جلست مع نفسي أفكر ماذا سأفعل، أدركت أن الأمر ما زال معلقًا ولم يُحسم بعد، ولكي أستطيع فهم ما يدور حولي، كان يتوجب عليَّ حل لغز موت "عبدُل"، ولكن، كيف يمكنني حل لغز جريمة لم تحدث بعد؟ ما زال في ذاكرتي تاريخ موت "عبدُل" الذي أعطته "فوليه" لي: 5 إبريل 1994، إنه نفس يوم انتحار "كيرت كوبين"، تبقى أقل من شهر على اليوم

المشهود. وبصراحة، عندما قلت لـ"صفوت" أنه يجب قتل هذا الوغد، لم أقصد الذهاب وتنفيذ الأمر بنفسي، بل انتظار مجيء ذلك اليوم المبارك مع محاولة عدم التدخل في مجرى التاريخ بقدر الإمكان، لكن إذا نظرنا إلى كم الأخطاء التي ارتكبتها، فسنجد أن هذه ليست خطة منطقية كثيرًا، أم أنه على العكس من ذلك تمامًا؟ لابد أن أحاول تشكيل الأحداث بطريقة تؤدي إلى موت "عبدُل"، كل ما عليكم أن تفهموه، أن المسألة كانت شائكة ومعقدة.

أتى يوم الأربعاء، ولم يأتِ لا "صفوت" ولا "عبدُل" إلى المسرح؛ من المحتمل أن "صفوت" لم يأتِ لأنه ليس له دور يمثله في المسرحية، أما "عبدُل" فيا عالم! أيّ مصيبة شيطانية يرتكبها الآن. في الواقع، لم يبدُ على أحد من الطلائع أنه متضرر أو منزعج من هذا الوضع، وخاصة "سنان" الذي تفتحت الورود في وجهه لأنه سيمثل دور الرأسمالي حتى ولو ليوم فقط، لكنني في هذه النقطة، كانت تراودني وساوس؛ كأن عديم الشرف "عبدُل" هذا لم يستطع تشريفنا في البروفة، لأنه كان يصعب عليه أن ينهض من السرير الذي ينام فيه مع "نرجس"، أفكر في ذلك وأصاب بالجنون؛ قطعًا، كان لا بد أن أصبح أنا القاتل. على كلٍ، انصرفنا بعد بروفة مرت بهدوء، ولن تصدقوا لكنها كانت مثمرة للغاية.

كان الجو باردًا كالثلج، وكنت أود أن ألقي بنفسي في منزل "صفوت" في أسرع وقت ممكن، ومن ناحية أخرى، عليَّ أن أحل مسألة البيت على الفور؛ حيث إن والدة "صفوت" ستعود نهاية هذا الأسبوع، وعليَّ أن أجد مكانًا جديدًا أقيم فيه؛ فمثلًا بإمكاني أن ألقي نظرة على اللوحات المعلقة بالجامعة لأرى هل يوجد أحد يبحث عن مرافق في المنزل. وبينما أفكر في هذا كله،

انتابني فجأة شعور مخيف وكأن أحدهم يتعقبني، فتوقفت على الفور ونظرت خلفي، فلم تلحظ عيني أي حركة تؤكد صحة شكوكي، فاستدرت مجددًا لأتابع السير إلى المحطة، وفي تلك اللحظة، اصطدمت بـ"نرجس".

- مرحبًا يا "عزيز".

- مرحبًا.

عانقتني، وضمتني إليها قائلة:

- قلقت عليك كثيرًا، لمدة وأنت مختفي.

تحسست أنا أيضًا على كتفيها بلطف.

قالت:

- هل بإمكاننا التحدث لو سمحت؟

ليس لدي أمل في أن الحديث سيحل أي شيء، ومع ذلك، وجودها هنا معي وليس مع "عبدُل" أراحني، وروح عن قلبي كثيرًا، فقلت: - بكل تأكيد.

- أشعر بالبرد، هل يمكننا أن نجلس في أي مكان؟

- حسنًا، لنجلس.

دخلنا إحدى المقاهي المطلة على الساحل، وعندما جاءت قهوتها، أحاطت الفنجان بكفيها الاثنين لتدفئتهما، ثم سحبت كتفيها للخلف، وابتسمت لي

ابتسامة رقيقة: - كيف حالك؟

كان في نظراتها لطافة وحب حقيقي، ما زالت لم تكرهني بعد.

قلت:

- أنا بخير.

مدت يدها، وأمسكت يدي قائلة:

- اشتقت إليك كثيرًا!

سحبت يدي تلقائيًا، وأشعلت سيجارة:

- كيف حال "عبدُل"؟ لم يأتِ اليوم إلى المسرح، قلقنا عليه.

- لا أعلم، وليس بيني وبينه شيء.

لماذا تكذب وعينها في عيني؟ وما تقوله هذا؟ لماذا يجرفني إلى أمل مستحيل؟ قلت: - أمر عجيب! إنه لم يقل هكذا.

- وماذا قال؟ أم أنه قال لك إننا حبيبان؟

- شيء من هذا القبيل، لا داعي أصلًا لأن يفسر أكثر، أليس كذلك؟ يعني بعدما رأيتك في بيته مساء الأمس.

- وأنا أيضًا كنت أود التحدث في هذا، الأمر كله عبارة عن صدفة عجيبة جدًا.

- صدفة!

في الحقيقة، لم أكن أتوقع من "نرجس" ترهات وكذبًا إلى هذا الحد.

- أعرف، من الصعب تصديقه، لكن هذه هي الحقيقة.

- مادمت تقولين كذلك، إذًا فهو كذلك.

- ذلك اليوم، يوم مجيء "عبدُل" إلى الجامعة ليبحث عنك، جلسنا وتحدثنا لمدة طويلة، حتى إن "صفوت" كان معنا أيضًا، انتظرتك ولم تأتِ، فقمت لأذهب إلى دار النشر كي أسلم ترجمتي. وقتئذ، جاء "عبدُل" من خلفي، وقال "أنا ذاهب إلى تلك الناحية"، وبعدما ركبنا الأوتوبيس، قال لي "أنا لدي المتسع من الوقت، انجزي أنت عملك، وبعدها يمكن أن نتناول الغداء معًا"، لَمْ أعترض على طلبه، وأساسًا لِمَ أعترض؟! على أية حال، رافقني حتى "براديسا"، وبينما أتحدث مع السيد "أسعد" انتظرني على الباب، وأنا أنجزت مهمتي وخرجت، وبعدُ تناولنا الغداء في المطعم المجاور ثم افترقنا.

- فهمت، وطبعًا بعد ذلك تعاقبت الأحداث، ولم تستطيعا السيطرة على مشاعركما، وإلخ...

- لا تهذي! لم يحدث شيء كهذا.

صرخت قائلًا:

- كان الرجل نصفه عاريًا عندما رأيته.

- كان الجو حارًا.

توقف عقلي عن التفكير.

كنت شغوفًا كثيرًا لأعرف إلى أين سيصل هذا الهراء. أمسكتْ "نرجس" بيدي مرة أخرى قائلة: - اسمع، بعد عدة أيام اتصل السيد "أسعد" بي، فذهبت إليه، وأنا في غرفة مكتبه، كان "عبدُل" مستغرقًا في الحوار مع تلك السكرتيرة، ماذا كان اسمها؟ "شكران"؟

- نعم، "شكران".

- وعلى حد علمي، فإنه لم يترك الفتاة وشأنها، وأخذ يتصل بها، بل ويذهب إلى مقر عملها وما شابه.

- وماذا بعد؟

في الواقع، بدأت الأمور تأخذ منحىً عجيبًا.

- وبعد ذلك، حدثت الفتاة السيد "أسعد" عنه، ومن ناحيته، اتصل بي: "اتصلي بصديقك هذا، وحذريه ليترك الفتاة وشأنها". حاولت أن أوضح له أننا لسنا أصدقاء مقربين، وأن هذا الأمر لا يخصني، لكنه أخذ يلح عليَّ، حتى أن نبرة صوته كانت عالية من الغضب. وذات يوم اتصل بي مجددًا، وقال لي "انظري، إن لم تفعلي شيئًا، فسأتدخل أنا وستكون نهايته سيئة للغاية"، لهذا السبب كنت في منزل "عبدُل" في اليوم الذي أتيت فيه أنت إلى هناك.

- لكي تقولي لـ"عبدُل" أن يترك "شكران" وشأنها؟

أومأت "نرجس" برأسها:

- بالضبط هكذا.

كان عقلي قد أصبح مشوشًا تمامًا.

قلت:

- لا أفهم؛ من "شكران" إلى السيد "أسعد"، ومن السيد "أسعد" إليك، وأنتِ إلى "عبدُل"... عجيب!

- ولماذا لم تعترض "شكران"، وتخبر"عبدُل" بنفسها؟

- كأنك لا تعلم هذا المجنون! لربما أخاف الفتاة؛ إنه يربي ثعبان في بيته، شيء لا يعقل.

كنت أود أن تقنعني "نرجس" بكلامها، ولكن الحكاية التي روتها لم تكشف الستار عن بعض الأشياء.

سألتها قائلًا:

- وماذا عن بنات عمك؟ لماذا قلت لي إنهم سيمكثون عندك؟

أخذت نفسًا عميقًا، ثم مالت برأسها، ثم قالت:

- لا علاقة له بهذا المضوع، كنت أحتاج لأبقي وحدي قليلًا.

- ولماذا؟

- لكي أفكر في مستقبل علاقتنا.

- حتى الآن لا يستوعب عقلي شيئًا!

- ستتخرج هذا العام، ومستقبلك ليس واضحًا، فمنذ سنوات ونحن معًا، علينا أن نضع النقاط على الحروف، وحان الوقت لنقرر ماذا سنفعل من الآن فصاعدًا.

- على حد علمي، سنتزوج وننجب طفلة.

ضحكت قائلة:

- أنت هكذا دائمًا، تحب النكت والضحك... لكنني أحبك.

- حينما تحدثت مع "عبدُل" قال لي أشياء غريبة جدًا، وعندما ذكرتكما، تعجب كثيرًا لأنك حكيْتِ لي.. ماذا يعني هذا؟

- الرجل فعل هذا حتى يثير غيظك، إنه يهوى إشعال...

- حسنًا، ماذا قال في موضوع "شكران"؟ هل سيتركها وشأنها؟

هزت كتفها وهي تحتسي الرشفة الأخيرة من فنجان القهوة قائلة: - لا أعلم، شرحت له الوضع، سخر مني قليلًا، لكنه أدرك جدية الأمر، فلا أظنه سيحدث مشكلة.

من الواضح أنها لم تكن تعرف "عبدُل" جيدًا، ربما هذه إشارة خير.

سألتها قائلًا:

- وماذا قررت في أمر علاقتنا؟

قالت مبتسمة:

- أخبرتك، أنا أحبك، وعليك الآن أن تخطط لمستقبلنا.

ثم قامت من مكانها، وقبلتني على خدي، وتابعت:

- مرض والدي قليلًا، سأذهب غدًا إلى "بورصة" لزيارته، لكني سأكون في المنزل هذا المساء، سأسعد كثيرًا إن أتيت.

بعدما خرجت من المقهى، ظللت أنظر وراءها وأنا عاجز عن التفكير، ومحاولًا بطريقة ما ربط الأحداث التي بدت منقطعة الصلة عن بعضها، فإلى أي حدٍ هي منطقية؟ لم أكن متأكدًا. من جانب آخر، كانت "نرجس" قد فتحت موضوع الزواج بشكل صريح، أم أن الحياة رجعت إلى مجراها الطبيعي؟ لا أعرف، ولا أستطيع أن أعرف؛ عقلي في حاجة إلى استراحة.

قمت من الطاولة وجلست على إحدى كراسي البار العالية، ألقيت نظرة سريعة على المشروبات، وبعدها طلبت من عامل البار كأسيْ ويسكي. وما إن شربت القليل، حتى جاء أحدهم، وجلس على الكرسي المجاور لي بالضبط، وطلب مشروبه: - اعطني كوب لبن بارد يا بن العم.

بدلة رخيصة غير أنيقة، نظرات ذات عدسات ملونة، شوارب طويلة ملفوفة حول شفتيه ومتدلية حتى ذقنه، أضف إلى ذلك اللبن! إنه بعينه الرجل الذي اشتبهت في أنه يتعقب "عبدُل" قبل بضعة أيام في كافتيريا الجامعة، لكنه هذه المرة جلس بالقرب مني، لذا كنت أستطيع أن أشم رائحة الكولونيا

ممزوجة بدخان السجائر، صانعة خليطًا كرائحة جثة عفنة. كيف يمكن لإنسان أن يضع شيئًا كهذا على جسده ورأسه من أجل النظافة والانتعاش؟! عندما جاءت عيني بعينه، سلمت عليه برأسي، رد هو الآخر السلام بابتسامة بغيضة من وراء قلبه.

أخذ شربة كبيرة من اللبن متلذذًا، ثم مسح شواربه ملتفتًا إليَّ: - احكِ يا جدع!

جلت النظر سريعًا على المقهي دون أن أجعله يلاحظ؛ كان مزدحمًا للغاية، فقلت بكل هدوء: - ماذا سأحكي لك يا خال؟

- ما أحوالك؟ كيف تسير الأمور؟ احكِ.

رفعت كأس الويسكي إلى فمي وشربت نصفه مرة واحدة، ثم قلت: - الحمد لله.

- بما أنك تدفع بالويسكي هكذا إلى فمك، فيا عالِم كيف تدفع بالنساء!

إن أسلوبه مقزز بقدر الابتسامة التي على وجهه.

- من تلك المرأة التي رحلت قبل قليل؟

- إنها خطيبتي.

قلت ذلك لكي أغلق عليه الطريق حتى لا يعلق تعليقًا آخر غير لائق بحق "نرجس".

- خطيبتك! ماشاء الله فتاة حسناء.

ثم أخذ يشرب مجددًا من كوب اللبن ويلحس شفتيه، وبعدها على الفور، أخرج صورة من جيبه، وخبطها على مسطح البار: - حسنًا، وهذه؟ ماذا تكون بالنسبة إليك؟

بمجرد أن رأيت الصورة، توقف شعر يدي من الصدمة؛ "شكران"! هذه الفتاة بدأت تعترض طريقي أكثر من اللازم، لا بد أن هذا الاستجواب له علاقة بما حكته "نرجس" قبل قليل. خطرت على بالي فجأة تلك المكالمة التي تلقيتها في منزل "روملي حصار"، حيث إن السيدة المتصلة طلبت التحدث مع امرأة تُدعى "شكران"، في ذلك الحين، لم تأتِ "شكران" التي أعرفها على ذهني إطلاقًا، لكن تلك السيدة ربما كانت تقصد السكرتيرة "شكران" بعينها.

قلت:

- أبدًا، نحن نعمل في دار النشر نفسها.

أصدر صوتًا منحرفًا بلسانه إعجابًا بها وقال: - إنها امرأة فاتنة الجمال! يعني؛ تقول إنك تصطحبها إلى المنزل في غياب خطيبتك.

بدأ هذا الوغد يثير أعصابي.

قلت له بلهجة حادة:

- من أنت؟ وماذا تريد مني؟

ضربني الحقير على كتفي بخفة قائلًا:

- اهدأ يا بن العم! اسمي "خضر"، نحن نتحدث رجلًا لرجل، أنت شاب فتي تفعلها بالتأكيد.

- لا أفهم ما تعنيه، لكن ليكن بعلمك، إنني لا أحب الحديث القبيح ذا الإيماءات هذا.

التفت هذا الجلف عاشق اللبن نحوي، كانت في نظرات عينيه تعابير تهديدية متوعدة: - حسنًا، سأكلمك باللغة التي تفهمها. انظر، هذه الفتاة اتصلت لمرات عديدة من تليفون منزلك بـ"روملي حصار" برقم معين، كل ما أريد معرفته: ما هي العلاقة التي تربطكما؟

هذا ما كان ينقصني! كانت السيدة المتصلة قد قالت إنه ورد من تليفون منزلنا مكالمات عديدة إلى زوجها. فجأةً، اشتعل مصباح ذهني وأخذت أفكر؛ لا بد أن الرقم الذي يتحدث عنه "خضر" هذا، هو رقم السيد "أسعد"، وكذلك السيدة المتصلة هي زوجته "نورجول". حسنًا، من عدو الشرف المريض النفسي هذا؟ هل هو أحد أقرباء "شكران"؟ محتمل، بالضبط! كما كان من المحتمل أن يسحب الرجل مسدسه الذي لاحظته معلق بخصره، وينهي أمري هنا في هذا المكان. لسبب مجهول، توصلوا إلى أن "شكران" هي الشخص المتصل بالسيد "أسعد"، وفي ظل تلك الظروف، حاولت أن أتصرف بهدوء وسكينة، فقلت الجملة اللطيفة التي على لساني دائمًا: "أظن أنني فهمتك"، ثم ابتعلت ريقي: - نحن من اتصل بالسيد "أسعد"، أنا وخطيبتي، وأيضًا نحن نعمل مع "شكران" في المقر نفسه، وعملنا يستوجب أن نكون دائمًا على اتصال معها.

رد "خضر" الذي بدا أنه لم يسمع ما قلته:

- إلى درجة الاتصال ثمانٍ وعشرين مرة في شهر واحد!

- كلا!

كان هذا رقمًا كبيرًا أكثر مما توقعت، فيمكن أن يكون قد اتصلنا مرتين أو ثلاثًا على أكثر تقدير.

- لا بد أن هناك خطأ في الأمر.

- ليس هناك خطأ يا بن العم.

ثم وضع أمامي ورقمة مطوية أخرجها هذه المرة من جيب البنطلون الخلفي.

ولأعترف لكم، فتحت الورقة ويدي ترتعش قليلًا، كانت رسالة مطبوعة على الكمبيوتر.

بدأت أقرأ:

"انظر أيها الكهل!

لدي علم بكل ما تحيك من أمور، فإذا كنت لا تريد أن تعلم زوجتك والعالم كله بهذا، فجهز 20 ألف دولارٍ، وستتلقى التعليمات اللازمة فيما بعد".

قلت متوترًا:

- لا أعلم إطلاقًا عن ما تتحدث، أقسم لك!

قفز "خضر" من أعلى كرسي البار، ثم قال:

- سأترك الحساب عليك، ادفعه أنت.

وقبيل الذهاب استدار خلفه، وقال:

- سنتقابل مجددًا، إلى اللقاء.

كنت أفكر في الذهاب إلى "نرجس" في البداية، إلا أنني تراجعت، فالأحداث معقدة للغاية، وبصراحةٍ، لم أعد أثق بها كثيرًا؛ كانت ستحكي لي القصص والحواديت، وتزيد الأمور تعقيدًا. بالطبع، لو حدث هذا في أيامنا السابقة، كنت سأطير وأذهب إليها دون أن أبالي بأحد. على كل حال، شعرت أن الصواب هو أن أبقى وحدي قليلًا، وأحاول التفكير بذهن صافٍ. عدت إلى "أرناؤوط كوي" راكبًا تاكسي بدلًا من الأوتوبيس أو السير ماشيًا؛ مخافة أن يمسكني "خضر" ويحاصرني في أية زاوية من الشوارع الجانبية. عندما دخلت المنزل كان "صفوت" يذاكر في حجرته. فكرت لوهلة؛ هل أسأله عن سبب عدم مجيئه البروفة؟ لا، فمن ناحيةٍ لا أود ازعاجه، ومن ناحية أخرى ليس لدي مزاج لفتح حوار والدردشة الآن، فدخلت حجرتي واستلقيت على السرير. وفي تلك الأثناء، حاولت أن أربط عشوائيًا بين المعطيات الناتجة عن كلام "نرجس" و"خضر": "عبدُل" يتعقب "شكران"، و"شكران" تشكيه للسيد "أسعد"، والسيد "أسعد" يطلب من "نرجس" أن تجعله يكف عن هذا الأمر. "عبدُل" لا أتخيله أبدًا الشخص العاشق الولهان المستميت في عشقه، لكن لنفرض أنه كذلك، ومن الواضح أن هناك رابطًا بين الرسالة المرسلة للسيد "أسعد" وبين "خضر"، وفي هذه الحالة، يكون من المنطقي أن شارب اللبن

ذلك، هو بوليس سري استأجره السيد "أسعد" ليعمل لصالحه. وفي تلك اللحظة أتى على بالي ذلك الكلام الغريب الذي قاله السيد "أسعد" عندما ذهبت إلى دار النشر: "الافتراء هو جريمة كبرى، والابتزاز جريمة أكبر"، أضف إلى ذلك راتبي الذي زوده هكذا بلا مقدمات؛ لا بد أنه يشك في أنني المبتز. حسنًا، ما تفسير المكالمات العديدة التي أُجريت من منزلنا إلى السيد "أسعد"؟ يبدو أنني لن أستطيع التوصل لنتيجة منطقية بالمعطيات التي بين يدي، أحتاج إلى المزيد من المعلومات.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت وتركت "صفوت" نائمًا في المنزل، واستفتحت يومي في "براديسا"؛ كانت نيتي أن أقنع السيد "أسعد" بأنه ليست لي أية علاقة بما وقع على رأسه، وأطلب منه أن يوقف رَجُلَهُ عن تتبعي وملاحقتي، وإن أمكن، آخذ منه معلومات فيما يتعلق بأساس المشكلة.

دخلت الدار، واتجهت سريعًا إلى باب مكتبه ثم طرقته، إلا أن الجواب أتى من "شكران" التي كانت تجلس على طاولته: - خيرًا؟ ما هذه الجلبة؟!

- عذرًا، عليّ مقابلة السيد "أسعد" للتحدث في موضوع عاجل.

- مع الأسف عليك الانتظار، لأنه توجه هذا الصباح إلى سويسرا ليشارك في اجتماع رؤساء تحرير الشركة.

اللعنة! يعني هؤلاء الذين يظنون أنفسهم محايدين، تركوا كل الأيام وجاؤوا في ذلك اليوم لكي يطوروا فيه استراتجياتهم في كيفية استغلال مشاعر فتيات العالم، والتلاعب بها برواياتهم الرومانسية القذرة تلك.

- هل لديكِ علم متى سيعود؟

- سيمكث هناك حتى نهاية الأسبوع المقبل، وبعد انتهاء مهامه ستلحق زوجته به، وسيقضيان معًا عطلة لعدة أيام.

كنت قد تعرضت لخيبة أمل أعجز عن وصفها.

فكرت مليًا، وبعدها أدركت أنه يجب ألا أعود من هناك صفر اليدين، فقلت لها:
- حسنًا، هل لديك القليل من الوقت؟ يمكن أن نشرب شيئًا؟

وبعدما رسمت على وجهها تعابير دهشة غامضة، ابتسمت ابتسامة مراوغة قائلة: - بكل تاكيد.. "عائشة"! سأخرج قليلًا، وسأحول المكالمات إليك.

ثم نزلنا إلى المقهى حيث وجدتها وهي تبكي الأسبوع الماضي.

كان المقهى خاليًا؛ حيث إنه في الطبيعي يبدأ الناس يترددون عليها في ساعات الظهيرة وقت تناول طعام الغذاء، وأخيرًا طلبنا كوبيْ شاي من النادل.

قلت لـ"شكران":

- كيف حالك؟

- تحسنت، ولكن إذا أتت زوجته "ظلام جول" سعيدة من العطلة، وتركتني وشأني، سأكون أفضل.

- "شكران" إن لم يكن فيه إزعاج، فإني أود أن أسألك عن بعض الأشياء المتعلقة بشخص تعرفت عليه قبل فترة.

- ومن يكون هذا الشخص؟

- "عبدُل".

ضحكت ببهجة، وقالت:

- نعم، "عبدُل".

ردة الفعل هذه كانت على عكس ما توقعت تمامًا.

- حدثت أشياء غير لطيفة بينكما على حد علمي.

- غير لطيفة؟

قالت ذلك وهي تنظر إليَّ نظرات استنكارية جوفاء.

- على حد علمي، أنكما تعارفتما عندما أتى مع "نرجس" إلى دار النشر.

- نعم، دردشنا قليلًا عندما كانت صديقتك في غرفة السيد "أسعد"، وبعدها تقابلنا مرة أخرى، وخرجنا لتناول الطعام.

- وبعد ذلك؟

- وبعد ذلك لم يحدث أي شيء. كان شابًا ظريفًا مرحًا، لكن لم تحدث كمياء بيننا، وبعدها لم يتصل.

توقف عقلي عن التفكير، ولم أكن أعرف كيف سأخرج من كل هذه العقد والتشابكات.

- يعني لم يفعل شيء يزعجك؟ لا داعي للخجل، يمكنك أن تحكي لي بكل راحة.

قالت في بهجة:

- أي خجل! أنا لا أخجل منك؛ ها أنا حكيت لك، تحدثنا مع بعضنا، أو بالأحرى أنا ظللت أحكي وهو كان مستمعًا.

- يعني لم تشكيه للسيد "أسعد"؟

انفجرت "شكران" بالضحك:

- بالعكس! بل شكوت السيد "أسعد" له.

- وكيف هذا؟

- يا إلهي! الحكاية التي تعرفها، مطاردة النساء وخوفه الشديد من زوجته.

- "شكران" أنا آسف، ولكن سأسألك سؤالًا آخر: هل حدث بينك وبين السيد "أسعد" شيء؟

- عندما يرى شحمة أذنه.

لم تبدُ متأثرة بسؤالي على الإطلاق، وتابعت:

- حاول التقرب مني بكل تأكيد، لكن لم أعطِه فرصة، فأنا لست معتوهة لدرجة أن أدخل في علاقة مع مدير عملي، ومع ذلك، وقعت المصيبة على رأسي! لم يقولوا هباءً إن لكل شيء ثمنًا حتى الجمال.

- حسنًا، ألم تتحدث زوجته معكِ قط؟

- وهل تتعطف وتفعلها؟! إنها تأنف وتنظر إليَّ وكأنها تنظر إلى سلة قمامة، هذا كل ما في الأمر. ستصبح رئيسة البلدية، تلك العاهرة!

- رئيسة البلدية؟!

صدَّقت على كلامي برأسها، ثم قالت:

- لا أعلم تلك المرأة اللعوب مرشحةً عن أي حزب. انظر، من أي حي خرجت وإلى أي نقطة وصلت، فأنا الجميلة لكن لا حظ لي، فالحظ دائمًا يكون من نصيب القبيحات.

- وكيف هذا؟!

بصراحةٍ، عندما رأيت السيدة "نور جول" الأسبوع الماضي خارجة من المبنى في حدة وغضب، كانت امرأة فاتنة الجمال بقدر ما رأت عيناي، لكن في تلك اللحظة، لم أر داعيًا لأقول هذا ردًا على كلامها.

- حسنًا، آخر سؤال: هل تعرفين أحدًا اسمه "خضر"؟

- "خضر"؟! لا.

ثم ضيقت عينيها بطريقة المشتبه في شيء:

- من أين ظهرت كل تلك الأسئلة يا "عزيز"؟ بالله عليك! قل لي ماذا يحدث؟ هل سمعت شيئًا؟ السيد "أسعد" عديم الشرف هذا لن يطردني من العمل، أليس كذلك؟

- كلا، لا، لن يحدث شيء كهذا، فقط هناك سوء فهم. لو سمحت، انسِ حوارنا هذا.

ودون أن تكترث لكلامي صرخت في وجهي قائلة:

- لا يهمني أصلًا! لو سيطردني فليفعل، سئمت منهم جميعًا.

وفجأة امتلأت عيناها بالدموع.

أخذت أشد على ذراعها بلطف:

- صدقيني، ليس هناك شيء يستدعي قلقك.

قالت وهي تمسح أنفها:

- عليَّ الآن الرجوع للمكتب.

- أتوسل إليكَ! لا تحزني نفسك عبثًا.

بعد ذهابها مباشرة، دفعت الحساب وخرجت أنا أيضًا.

كانت توجد كابينة تليفون بالقرب من المقهى، دخلتها واتصلت بمنزل أسرة "نرجس" بـ"بورصة". ردت والدتها وأخبرتني بمرض زوجها وذهاب "نرجس" إليهم؛ يعني كلام "نرجس" صحيح! ومع هذا، فلم يغير عندي شيئًا، فكنت على يقين أن "شكران" صادقة و"نرجس" كاذبة.

شعرت بدوران في رأسي وعدم استقرار في معدتي، أحسستُ وكأن شيئًا انكسر داخلي وانتهى، حتى إن حياتي التعيسة التي تنتظرني في المستقبل تلك، كانت تتراءى أمام عينَيّ كجنةٍ، قياسًا بحياتي الآن. يا ليتني لم أعرف أيًا من هذا كله! من علاقة "نرجس" مع "عبدُل"، إلى الأمور التي يحيكها السيد "أسعد"، والكذب والخداع التي أقيمت حياتي عليه، وكما قال "عُطيل (Othello)": "مادام الإنسان المسروق لا يعرف ماذا سُرق منه، إذًا فهو لم يُسرق"، ويا أسفي! لن يصبح المستقبل كما عشته في الماضي على الإطلاق.

10

غريب الأطوار

Negative Creep

بينما أمشي على أرصفة حي "زنجيرلي قويو" ببطء بسبب الأفكار التي يأكل بعضها بعضًا برأسي، فوجئتُ بأحدهم يشبك ذراعه بذراعي، قلت صديقًا أو أحدًا أعرفه، لكن لا، كانت قبضة شديدة باطشة أبعد ما تكون عن حركة صديق يمازح صديقه.

- أراك مُبْكرًا اليوم يا بن العم!

- "خضر"!

ودون أن يعطيني فرصة لأكمل كلامي، قادني بسرعةٍ وزج بي في سيارة جيب سوداء كانت تقف على جانب الطريق، وفي لمح البصر، أغلق الباب بإحكام، ثم جلس على كرسي السائق وانطلق مسرعًا؛ تم اختطافي علنًا في وضح النهار. حاولت فتح الباب أو زجاج السيارة... لكن عبثًا. وقتئذٍ، لاحظت وجود أحدهم جالسًا على الكرسي الخلفي، إلا أنني لم أنتبه إلى أنها امرأة إلا عندما تحدثت وقالت: - اهدأ!

التفتُ خلفي وأنا أنهج، نظرت إلى صاحب هذا الصوت الوحشي المتسلط: - السيدة "نور جول"!

كانت تحدق فيَّ من تحت نظارتها السوداء:

- لا بد أن حضرتك مترجم الروايات الرومانسية الذي لا يُنسى، تشرفت بمعرفتك.

سألتها خائفًا:

- ماذا يحدث؟

- أنا معجبة كثيرًا برواياتك، وخاصةً بنجاحك البارع في ترجمة المشاهد الجنسية، فمعظم مترجمينا يقومون بترجمة هذه الأجزاء إمَّا بطريقة فجة وخادشة للحياة، أو ترجمة مقتضبة شديدة التحفظ.

كنت أكره كثيرًا تلك الأجزاء التي تتحدث عنها، فبينما كنت في الطبيعي أنهي ترجمة أية صفحة خلال عشر دقائق كأكثر تقدير، كانت تلك المشاهد الرومانسية تستغرق مني الساعات والساعات، ولذلك كنت أتركها لـ"نرجس"

فهي التي تترجم معظمها، لكن في هذا الوضع الذي أنا فيه الآن، لم أجازف بأن أعرضها لخيبة أمل في الموضوع الوحيد الذي هو سبب في إعجابها بي، فقلت: - شكرًا، لا أعرف بمَ تفكرين، لكن صدقيني، أنتِ ترتكبين خطئًا كبيرًا باختطافك لي.

حولت نظراتها نحو النافذة قائلة:

- ربما هو كذلك، لكنها لن تكون المرة الأولى.

وهي تقول هذا الكلام، أحسست في نبرة صوتها أنها راضية كل الرضا عن ما تفعله، ولن تتوانى عن فعل أي شيء.

- ماذا تريدين مني؟

- أظن أنك تعرفت على السيد "خضر"، وفهمت أن لدي خبرًا عن الرسالة القصيرة التي أرسلتها لزوجي.

- رأيت هذه الرسالة لأول مرة في حياتي بالأمس، وأنا متعجب مثلك تمامًا.

ضحكت بصوت عالٍ:

- مثلي! هاهاها. بصراحةٍ، أنا لم أتعجب على الإطلاق، فكان من الواضح أنه سيقع شيء كهذا على رأسه عاجلًا أم آجلًا، فمع الأسف، كفة ذكاء زوجي لا تتعادل مع كفة طموحاته.

- ليس لي أية علاقة بهذا الحادث.

في تلك الأثناء، لاحظت أن "خضر" انحرف فجأة بالسيارة جهة منطقة "ساريير (Sarıyer)"، والتي يقل فيها تكدس السكان وتكثر الغابات.

قالت دون أن تبالي بكلامي:

- ظننت في البداية أن المكالمات التي أُجريت بين منزلك ودار النشر، لها علاقة بزوجي، لكن بعد ذلك علمت الحقيقة، فأنت وعشيقتك كنتما تتصلان ببعضكما كل يوم.

قلت باتسامة مزيفة يعتريها الغضب:

- تقصدين "شكران"؟ هي ليست حبيبتي، فأنا خاطب فتاة أخرى، إنها "نرجس"، ونسكن معًا في ذلك المنزل.

- لا تحكِ لي قصصًا وحواديت، فأنا أعرف أنك انفصلت عن هذا المنزل وعن خطيبتك أيضًا، أنت لا تنتبه لهذا، لكن السيد "خضر" مشكورًا يعلمني بكل خطوة تخطوها منذ وقت طويل، وكذلك بالمكالمات الواردة إلى دار النشر، والتي انقطعت بالتزامن مع تركك هذا المنزل.

قلت بصوت منخفض:

- نحن لم ننفصل، إنه سوء تفاهم تمامًا.

ردت وفي وجهها تعابير استحقار لم تستطع إخفاءها:

- أعلم، ليس ذنبك، فزوجي أيضًا لا يفرق عنك كثيرًا؛ الرجال كلهم هكذا: ضعفاء، جبناء، منافقون ذَوُو وجوه، أيًّا من كان، متعلمًا أو جاهلًا، شابًا أو

كهلًا، لا يفرق، فكلكم بمجرد أن تروا فتاة مثل تلك المنحرفة، على الفور تسيرون خلفها، وتطاردونها وكأنكم مُبَرْمَجُون.

يبدو أنها وضعت برأسها سيناريو معينًا يتعلق بي، وتغييره سيصبح صعبًا للغاية.

حاولت أن أحوِّل تركيزها إلى نقطة أخرى لعلها تلين قليلًا: - نعم أعلم، الأمر لا يخصني، ولكن لا أظن أن السيد "أسعد" على علاقة بها.

كانت مداخلة خاطئة على عكس ما توقعت، فبمجرد سماعها هذا الكلام، صفعتني على وجهي، ثم قالت: - والآن، دعنا نترك تلك الأكاذيب التافهة جانبًا، ونحاول أن نتكلم بصراحة. حتى الآن، لا بد وأن تكون قد أدركت بأنني لست بالإنسانة التي يسهل أن يخفى شيء عنها.

دخل "خضر" في الحوار، وقال:

- والفضل لي طبعًا.

- نصبت فخًا لزوجي بالتعاون مع حبيبتك، وظننتما أنكما ستسلبان منه أموالًا بتهديده أنكم ستُفْشِيان للجميع بأنه يختلس أموالًا لصالحه من حساب شركة النشر التي تتبعها "باراديسا".

- ماذا!

- بخلاف "أسعد"، هناك شخصان بإمكانهما الاطلاع على حسابات الشركة: أحدهما المحاسب والذي يحقق أرباحًا لا بأس بها بالفواتير المزورة، والأخرى

هى تلك الفتاة اللعوب، تأتي وتحكي لك ما يدور في حسابات الشركة، وأنت تعد الخطط الخسيسة معها، لكنكم ارتكبتم خطأً فادحًا بعدم عمل اعتبار لي، ولم تحسبوا حسابي.

يا إلهي، ما هذه المؤامرة التي وقعت فيها! لم أكن أود معرفة المزيد، لأن كل تفصيلة جديدة ستشكل تهديدًا جديًا على ربيع عمري الثاني، ولم يبدُ أن إنكاري لهذه الاتهامات سيجدي أية فائدة، فالصفعة التي أكلتها قبل قليل، لا تزال تهز كبريائي وكرامتي، فرأيت من المنطقي أن أحاول الطعن في التهم الموجهة إليَّ باستخدام مغالطاتها نفسها، فقلت مبتلعًا ريقي: - في تلك الرسالة التي هددوا فيها السيد "أسعد" بإخبارك بكل شيء، لكن من الواضح أن لديك علمًا بكل شيء، وفي هذه الحالة، لن تبقى في يد المبتز ورقة رابحة، أليس كذلك؟

عدلت كلامي قائلة:

- العالم كله هدد زوجي بإفشاء كل شيء لي وللعالم كله، وكون زوجي أحمق بالدرجة التي يظن أنه يستطيع معها أن يدبر أي شيء من ورائي، فهذه ليست مسألة كبيرة، بل بالعكس، ظنه هذا يسهل عملي في أغلب الأحيان، لكن عندما تكون المسألة هي إفشاء فساده للعالم كله، فالموضوع يختلف.

- أفهم أنك تحاولين حماية زوجك، لكن...

- حماية زوجي!

ثم قطعت كلامي بضحكة صاخبة، وتابعت:

- فليذهب زوجي للجحيم! فأنا أريد أن أزجه إلى السجن بيدي.

سألتها بصوت مختنق:

- وبناءً عليه؟

كم يقع حظي مع أناس عجيبة!

- في الواقع، لا أظن أنه يوجد أي دليل يؤكد صحة ادعائك؛ يعني بصريح العبارة، ليست هناك مشكلة من ناحية زوجي - يا ليته يعمى! - لكن الأمر نفسه لا يسري بالنسبة لي، فأي أقاويل ستظهر تتهم زوجي بقضايا فساد، سوف تدمر مستقبلي السياسي، وأنا لن أسمح بهذا أبدًا.

أقاويل فساد متعلقة بزوجها تدمر مستقبلها السياسي! لو كانت محقة في تخوفاتها، فهذا يعني أنها طردت من عالم السياسة مبكرًا عشرين سنة.

- لا أعرف ماذا أفعل حتى أقنعك!

وأنا أقول هذا، كانت الجيب تلف من منعطف غابة "بلجراد"، فأكملت كلامي:
- لو كنت مكانك، لبحثت عن الشخص الذي يُحتَمَل إرساله رسالة الابتزاز، وأكرر لك، لا علاقة لي بالأمر، لا من قريب ولا من بعيد.

تبرمت السيد "نور جول" وأخذت تنفخ متضايقة.

وقتذاك، أعطت إشارة برأسها لـ"خضر"، فصرخت في هلع:

- ماذا يحدث! ماذا ستفعلون بي؟

قالت بلهجة حادة وأسلوب بارد كالثلج:

- ستدفع نتيجة تصرفاتك أيها الفتى!

وبسرعة البرق، دخلتْ السيارة الجيب ممرًا فرعيًا، يمتد في أدغال الغابة.

توسلت إليهم بأعلى صوت:

- أقسم لكم، ليس لي ذنب في هذا الأمر! كما أنني أستطيع أن أضمن لكِ أنه لن يصيبك مكروه؛ أنا.. قادم من المستقبل، فلو أن هناك شيئًا سيحدث لك، كنت سأعلم، صدقيني!

وبينما كنت أهذي بأشياء كهذه وأنا لا حول لي ولا قوة، لم يفتح أحدهما فمه بكلمة واحدة، والسيارة تتقدم في الغابة وسط ظلام دامس نحو جهة لا تبشر بالخير على الإطلاق.

أخذ "خضر" يسير في أدغال الغابة لمدة عشر دقائق، وفي ساحة خضراء مطوقة بالأشجار الضخمة من كل جانب، ركن السيارة ونزل من ناحية كرسي السائق، وفتح الباب الخلفي: - المحطة الأخيرة يا بن العم، انزل من السيارة!

صرخت قائلًا:

- هل جننتم! تهديد تافه يصيبكم بالذعر إلى هذا الحد، بينما لا تخشون ارتكاب الجريمة أبدًا؟!

مدَّ "خضر" ذراعه الأيمن وتشبث بكتفي، وبقوة لا تقاوم، سحبني ناحيته للخارج.

خطوتُ خطوتين متطوحًا يمينًا ويسارًا، وتوسلي إليهما أو محاولتى الهروب منهما لم يكن ليجديا أية نتيجة، فأسهل شيء أن يخرج "خضر" سلاحه من خصره، ويرفعه عليَّ حتى لا أهرب، وبالفعل فعلها، وحاولت أن أستجمع قوتي محدثًا نفسي: هذا لن يكون موتي الأول. وجَّه فوهة السلاح ناحية رأسي وهو يدفعني حتى اقتادني أسفل شجرة ضخمة، ثم شدني ناحيته، وبينما أحاول العثور على كلمة أخيرة مؤثرة أستلهم بها عاطفتهم لعلهم يشفقون عليَّ، قطع "خضر" علي الفرصة بلكمة مفجعة موجعة إلى بطني، وقعت على إثرها منحنيًا وتكومت على الأرض. غامت الدنيا أمام عينيَّ، ولم أستطع استيعاب ما حدث، وبعد لحظة سمعت صوت زناد السلاح وهو يستعد لإطلاق النار على رأسي. أغمضتُ عينَي، ووجدتُ نفسي فجأة في الماضي وسط حريق هائل، وكأنني انتقلت عبر الدوامات الزمكانية Space – time، التي لايستوعبها عقل.

والآن، أنا في طريقي للجحيم، فعلى الرغم من كل مغامراتي في اللعب مع القدر، إلا أن عزرائيل لم يتأخر في طرق بابي ليحصل الحساب.

أفتح عينَي، "خضر" يثبِّت إصبعه على الزناد لكنه، لا يضغط عليه، وعلى هذه الحالة، توقفنا هناك ما يقرب من دقيقة تقريبًا بالنسبة لمن يشاهد الأمر من الخارج، أمَّا بالنسبة لي فمرت وكأنها قرن من الزمان، وفي النهاية، أبعد السلاح عن رأسي، ثم وضع شيئًا في جيب معطفي. ظللت منحنيًا على ركبتي ولم أفتح فمي بكلمة واحدة، كنت أحس بخفقان قلبي وكأنه سيخرح من فمي.

كانت السيارة مركونة جانبًا على وضع الاستعداد، وفي تلك الأثناء سمعت صوت الموتور وقد تم تحريكه بطريقة عنيفة، لدرجة أنه مزق الغطاء الذي غشى عقلي، وبدأت أراقب السيارة وهي تختفي مبتعدة في طريق الغابة الملتوي.

وهكذا بعدما رحلوا، أخذت أحاول تنظيم وتيرة تنفسي لكي أهدأ قليلًا، لكنني مع الأسف، لم أستطع حتى أن آخذ نفسي، وفجأة شعرت بمغص في بطني، على إثره استفرغت كل ما بمعدتي تحت الشجرة؛ إن هذا بسبب الخوف من الموت، كما أن اللكمة القوية التي أكلتها من "خضر" كان لها تأثير أيضًا. تمددت فوق الحشائش، وعندما عدت إلى وعيي، ألقيت بيدي في جيبي؛ ظرف وبداخله ألفا دولارٍ أمريكي بالتمام والكمال! لا بد أنهم أعطوني هذه الأموال كضريبة لأصمت، إنها فكرة رائعة، حيث كان بإمكاني أن أبتزهم وأطلب منهم المزيد، فبصراحةٍ، هذه الرسالة كافية بالنسبة لي، لكن هناك مشكلة صغيرة؛ أنا لست بالمبتز.

أخذت أتجول في الغابة لمدة ساعتين تائهًا، فأنا شخص ضعيف الحس الجغرافي، وفاشل في الخرائط والمساحات، وفي النهاية، وجدت مخرجًا، فرميت نفسي على الطريق الذي تمر منه وسائل المواصلات العامة. وبعد رحلة طويلة من باص إلى ميني باص، عدت إلى "أرناؤوط كوي"، حيث شقة "صفوت".

كنت مصدومًا من كل ما حدث وأشعر بالتخبط والارتباك.

دخلت الحمام وملأت البانيو، ثم وجدت جيل استحمام ذا رائحة عطرة منعشة، أظن أنه جيل والدة "صفوت"، أخذته وفرغت منه بكثرة في البانيو، ثم نزلت به؛ إن هذه الرفاهية التي أعيش فيها الآن، ليست كثيرة بعد كل المصائب التي حلت برأسي. أغلقت عينَي، وغصت متمددًا بالبانيو، كان ملمسي ناعمًا لدرجة أنني ظننتُ أنني سأنافس "بريجيت باردو".

في اليوم التالي، جمعت كل أغراضي، وانتقلت إلى فندق بالقرب من ميدان "تقسيم"؛ حيث إن والدة "صفوت" كانت ستعود آخر الأسبوع، وأخاف كثيرًا أن أبقى وحدي بمنزل "روملي حصار"، لذلك فضلت حجز غرفة في الفندق.

قضيت يوم الجمعة في التفكير، ولم أخرج من غرفة الفندق إلا لتناول الطعام.

اتصلت بـ"نرجس" وأخبرتها بمكاني، وهي الأخرى قالت لي إن والدها في حالة حرجة أكثر مما كانت تتوقع، لذا ستطيل مدة بقائها في "بورصة" قليلًا. كنت أعلم أن حماي سيعيش في كامل صحته، ويشهد سعادة ابنته وزواجها، كما سيرى حفيدته أيضًا، لذا مررت الموضوع، ولم أوضح لها السبب الحقيقي لبقائي في الفندق، وأظن أنها أخذتها على أني لا زلت غاضبًا، وآخذًا على خاطري منها. تركتها تظن هكذا، لأني إن كنت سأستطيع التوصل إلى بعض الأجوبة المنطقية بعد كل هذه الأحداث المجنونة، فهذا لن يكون بفضلها بل رغمًا عنها.

وبعد ليلة مضطربة، استيقظت ظهر يوم السبت.

كان لدي مسرح في الخامسة مساءً، وفي الطبيعي، تُعقد اجتماعاتنا يومي الأربعاء والجمعة، لكن ذلك الأسبوع اختاروا السبت؛ حتى نتمكن من العمل لمدة أطول بعض الشيء. أمَّا بالنسبة لي، فكانت تدور في رأسي موضوعات أهم وذات أولوية عن المسرح، فتناولت الغداء سريعًا في الفندق، ثم انطلقت في حوالي الساعة الواحدة.

ركبت الباخرة، وعبرت إلى ناحية "اسطنبول" الأسيوية. صعدت منحدر "يلديرمني"، وبعد ساعة كنت أدق جرس الشقة التي يسكن بها المقتول المحتمل.

نادى "عبدُل" من الداخل قائلاً:

- الباب مفتوح.

قلت:

- إنها عادة خطرة للغاية.

ثم دخلت المنزل.

مع أول خطوة تخطونها، تجدون أنفسكم في الصالون مباشرة، الجو مظلم بعض الشيء لأن الستائر مغلقة، يوجد على اليمين مائدة طعام وعلى اليسار مكتب مذاكرة، وعلى بعد خطوات هناك كنبة ملتصقة بالحائط ومقابلها تليفزيون، وآخر الصالة كرسيا صالون موضوعان مقابل بعضهما، والستائر في الخلفية، و"عبدُل" جالس على أحد هذين الكرسيين - لم أستطع تمييز وجهه بالضبط - كما يوجد منضدة صغيرة تتوسط الصالة، وفوقها حوضٌ زجاجيٌ

يبدو فارغًا في هذا الظلام. دخلت دون أن أخلع حذائي، وجلست على الكرسي الآخر، وعندما اقتربت لاحظت أولًا الثعبان يلف ملتويًا في الحوض المملوء قاعه بالقش، وبعده مباشرة لمحت كدمة زرقاء حول عين "عبدُل" اليمنى، فقلت مشيرًا بإصبعي إلى عينه: - إنه ختم "خضر"، أعرفه أينما رأيته.

ردَّ مبتسمًا:

- غوريللا السيدة "نور جول"! أرى أنك أيضًا تعرفت عليهم؟

- هددوني بالقتل! ماذا يجري يا "عبدُل"؟ ماذا تدبر؟ لو لم توضح كل شيء في أسرع وقت، فالنهاية ستكون سيئة للغاية، صدقني!

- أظن أن هناك سوء فهم في الأمر، لذلك من الصعب أن نحدد من أين يجب أن نبدأ.

- رسالة الابتزاز التي وصلت إلى السيد "أسعد"، يمكننا البدء منها، أنت من كتبها، أليس كذلك؟

- رسالة! قل رسائل.

- كيف؟

- أرسلت بالأمس واحدة أخرى، لكن طبيعي ألا يكون لديك خبر عنها حتى الآن.

صرخت قائلًا:

- هل أنت مجنون يا رجل! أقول لك سيقتلونني! ما الذي تسعى إليه بالظبط؟

- اهدأ! تشرب شيئًا، شايًا، قهوة؟

- لا أريد لا شاي ولا قهوة! ماذا كتبت هذه المرة للسيد "أسعد"؟ هذا فقط ما أريد معرفته.

قال "عبدُل" بفتوره المعتاد الذي يصيب الإنسان بالجنون:

- أرسلت له: "إن كنت تريدني أن ألتزم الصمت، فادفع خمسين ألف دولار على الفور". إن تدخل ذلك المدعو "خضر" في الأمر، حقًا كان في مصلحتنا، أليس كذلك؟

- سأذهب إلى الشرطة يا "عبدُل" وإلا سينهون أمرنا، بل وربما "شكران" أيضًا، أعلم أنني أتحدث مع هواء، فلا فائدة من الكلام معك؛ أنت لا تستوعب.

وما إن قمت لأرحل، حتى مدَّ ذراعه وضغط على كتفي حتى أجلسني على الكرسي مرة أخرى: - هناك نبيذ أيضًا إذا أردت؟

- إذا لديك شيء تريد قوله، بسرعة يا "عبدُل"، وإلا أقسم بالله سأذهب إلى الشرطة!

- انتظر قليلًا.

ذهب إلى المطبخ، وعاد وبيده زجاجة نبيذ أحمر وكأسان:

- هيا، لنشرب على نخب مسرحيتنا الجديدة.

إن عودتي إلى الماضي مع الأسف، لم تقف حائلًا دون إدماني الكحول، فلا زلت أدمنه على الأقل نفسيًا.

أخذت كأسًا ورفعته:

- إذا نظرنا للظروف المحيطة بنا، فمن المنطقي أكثر أن نشرب على نخب صحتنا.

قال "عبدُل" قارعًا كأسه بكأسي بخفة:

- هوِّن عليك! الصحة التي تتكلم عنها هذه شيء يشبه تركيا، مثل أن تجري ناحية الغرب، وأنت على متن سفينة تبحر ناحية الشرق.

قلت وأنا أشرب الخمر الذي كان طعمه حامضًا كالخل:

- كلي آذان صاغية.

بدأ "عبدُل" يشرح قائلًا:

- في الواقع، الأمر أبسط من البساطة؛ علمت من تلك الفتاة السكرتيرة، أن مديركم يدبر أمورًا سرية من خلف زوجته، فقررت الانتفاع من هذا الوضع.

- ماذا علمت؟ هل يختلس الأموال؟

هز "عبدُل" رأسه يمينًا ويسارًا:

- لا، هو فقط يطارد النساء. بصراحةٍ، لم أستطع أن أعرف بالضبط إلى أي حد يخشى معرفة زوجته، لكن قلت لأجرب حظي، وموضوع الأموال هذا عرفته فيما بعد، عندما دخل "خضر" في العملية، فبينما كان يظن أنه يستجوبني، فلتت من لسانه، الأحمق!

- لا أفهمك.

- من الواضح أن المرأة تعلم أن زوجها ليس بالرجل السليم، لهذا السبب سلطت ذلك البوليس السري القديم المدعو "خضر" حتى يتعقبه، ويعلمها بكل خطواته وما يحيك من أمور. و"خضر" من ناحيته، دخل مكتبه وقرأ مراسلاته وغيره، وفي تلك الأثناء، وجد الرسالة التي أرسلتُها، وسلمها للسيدة "نور جول" التي ظنت هي الأخرى أن هذه الرسالة لها علاقة بملف فساد زوجها، وبدأت تتعقب المبتز. وعلى حد علمي، أن السيد "أسعد" ليس لديه علم بهذا؛ يعني لو ابتسم الحظ في وجهنا، فبإمكاننا أن نختلس من زوجته خمسين ألف، ومنه عشرين! رائع! أليس كذلك؟

- يبدو أن عقلك قد اختل! ومن فضلك، انتبه إلى كلامك، ولا تستعمل ضمير المتكلم الجمع وأنت تتحدث عن خططك المريضة، فلا علاقة لي بكل هذا، ولذا لا أستطيع أن أفهم ماذا حدث حتى تشتبه السيدة "نور جول" و"خضر" فيَّ!

- من الواضح أن "خضر" كان يتعقب "شكران"، ومنها وصل إليك.

- ومنك أيضًا إليَّ!

- بكل أسف!

- إياك أن تكون أنت من أخبر "خضر" عني أثناء حديثك معه!

- أبدًا، أنا فقط أنكرت بلهجة قاطعة التهم الموجهة ضدي، أي نعم لا أنكر حدوث مناوشات بسيطة من حين لآخر بيني وبينهم، لكني في النهاية، نجحت في إقناعهم ولم يعودوا يتعقبونني.

- وبدأوا يتعقبونني أنا! أقول لك رفع السلاح على رأسي!

- لكن لم يطلق النار، أليس كذلك؟ لماذا؟ لأنهم ليسوا متأكدين، هم فقط يجربون حظهم، وليس لهم من الأمر شيئًا. أصلًا، لا أعتقد أنهم يجازفون بارتكاب الجريمة تحت أي ظرف من الظروف، أنت تخاف عبثًا.

إحساسي لا يخونني أبدًا، كان لدي حق منذ البداية، فليست هناك أية وسيلة لجعله يتراجع عن خططته المجنونة.

حينها، رأيت أنه من الأفضل الآن أن أجاريه، وبمجرد خروجي أتوجه فورًا إلى الشرطة وأعطيها إفادتي.

ابتسم "عبدُل" بتصنع وكأنه قرأ ما يدور بذهني:

- إذا كانت لا تزال تراودك أفكار غبية من ذهاب للشرطة وخلافه، فإني أحذرك! إذا كنت ستفعل هذه الفعلة، فأنت المتضرر منها.

وبعدما قال ذلك الكلام، أخرج الثعبان المقرف من داخل الحوض، وأخذ يلاطفه ويداعبه.

فقلت له:

- هل تهددني؟

- الإقناع... والتهديد. في رأيي، إنهم يبالغون في الفروق بينهما، فكل منهما بداخله جزء قليل من الآخر، أليس كذلك؟

- مادام الأمر كذلك، إذاً سأسألك سؤالًا: هل تخطط لتخيفني بثعبانك "اليوزجاتي" السام؟

أطلق "عبدُل" ضحكاته العالية مبتهجًا:

- كم كانت خدعة رائعة! أليس كذلك؟ لا يا صديقي، لا داعي لأن تشعر بالخوف؛ عندما تفكر مليًا في الأمر، ستتوصل بنفسك إلى أن الوضع الحالي ضدهم وليس في صالحهم.

قلت له:

- أرجوك وضِّح لي أكثر!

- اسمع، الوضع كالتالي: بعدما تذهب أنت إلى الشرطة وتقدم البلاغ، سأقول أنا في إفادتي أنك تفتري عليَّ، وأنك المتسبب في كل هذه الأمور.. بالطبع، سيضيقون الخناق علينا في البداية، وفي تقديري، أنك لن تبقى مثلي صامدًا تحت تأثير الضغوط، فأنا متأكد من أنني سأقدم إفادة متوازنة أكثر منك بكثير، وإن لم يحدث ذلك، فإنهم سيتحرون ناظرين في الأدلة والأوراق التي تخصنا، وسيثبتون أنك أجريت مكالمات مع "براديسا" خلال الشهر الأخير

أكثر من أي مرة، في حين أنه لا تربطني بها أية علاقة، وبالطبع سيرون من المنطقي للغاية، أن يكون لديك معلومات أكثر مني تخص المكان الذي تعمل به لسنوات، وكذلك كراهيتك لرئيس عملك وحقدك عليه. هل تود سماع المزيد؟

- من أين تعلم بأمر المكالمات التليفونية التي أُجريت بين منزلنا و"باراديسا"؟

قال "عبدُل" متباهيًا بنفسه:

- لنقل إنني أخذتها من فم "خضر" وهو يستجوبني، فصاحبنا فالت اللسان كثيرًا بالنسبة لشرطي.

- إنك تكذب؛ كنت تتقابل في منزلنا مع "نرجس" أثناء غيابي، وفي تلك الأحيان أنت من أجرى المكالمات.

إنه هو من خطط ونظم لكل شيء من البداية، واستعمل "نرجس" كآلة لتنفيذ خططه.

- كم أنت وغد وخسيس يا "عبدُل"! والله مريض نفسي!

- لم أقل إنني سأفعل بك هذا، أحاول فقط أن أعيدك إلى وعيك قليلًا بشرح السيناريو الذي سيحدث إذا ذهبت وأبلغت الشرطة، أعي أنك توترت وخفت، وتمامًا لهذا السبب، لن أسمح لك بأن تدمر كل ما بنيت وتخرب عليَّ خطتي.

- أي قوة هذه؟! تدمر حياة الناس بدم بارد دون أن تشعر بأي ضيق أو ذنب، كيف يمكنك فعل هذا كله؟!

أجابني "عبدُل" وهو ينظر في عيني قائلًا:

- تتساءل "كيف"؟ أساسًا، أنتم كيف يمكنكم فعل هذا؟ كيف تقتنعون بهذه السهولة؟ تعتنقون أفكارًا لا تفهمونها، ثم تتمسكون بها متضرعين للآلهة، تَعِدُون بعضكم بحب أبدي حالفين الأيمان، وبعد ذلك عندما تتساوى كل وعودكم ومعتقداتكم بالأرض، تستمرون في طريقكم وكأن شيئًا لم يكن. ليس هذا فحسب، بل وتسمون هذا تطور الأحداث بلا حياء ولا خجل، ولا تعون الدرس، فلا قيمة لآرائكم ومعتقداتكم حتى في نظركم؛ هذا الطريق أو ذاك، لن يفرق بالنسبة إليكم، فيكفي أن توجد في حياتكم كذبة واحدة تضفي معنىً على وجودكم البائس، فما أكثر كلامكم! وبالأخص الحمقى منكم. إن الشيء الذي يدعى إنسان هذا، هو أبشع أنواع الحيوانات التي خلقتها الطبيعة، حيوان مهووس بالحديث عن نفسه!

- كل ما قلته هذا، ما علاقته بما يحدث، هلا قلت لي؟ ماذا يعني؟ هل تحاول أن تلزمنا جميعًا حدودنا؟

وضع "عبدُل" الثعبان في حوضه بلطف، ثم رجع وأسند ظهره آخذًا شربة من كأسه: - نصيحتي لك: أعد النظر من جديد في الأمور التي تظن أنك تعرفها، فأنت تفكر كثيرًا، لكنك لا تفكر ببساطة.

كانت أحكامه القاطعة ونظرته للأمور من برجه العالي، قد أصابتني بالضيق كثيرًا، فنهضت قائلًا: - "عبدُل"! لم آتِ إلى هنا لآخذ دروسًا في الحياة، وأنا كذلك أوصيك بأن تمشي معتدلًا، فأنت تقحم نفسك بأمور خطرة أكبر منك، ولن أسمح لك بأن تحرقني معك أنا أو غيري، مهما كلفني الأمر.

ناداني وأنا على وشك الخروج من المنزل:

- هاي! مهلًا! انتظر لنخرج معًا، أنت ذاهب إلى المسرح، أليس كذلك؟

- لا تؤاخذني، ليست لدي نية أن أقضي معك حتى دقيقة واحدة أكثر من ذلك، إلى اللقاء في منزل "سنان".

مشيت حتى رصيف ميناء "قاضي كوي"، ومن هناك ركبت الباخرة وعبرت إلى "بشكطاش".

أغواني الشيطان فجلست على إحدى المقاهي المطلة على الساحل، وطلبت كأس نبيذ آخر. كنت أشعر بحالة من التشتت والضبابية وكأن دخان كثيف يملأ رأسي، فكان لدي حلمٌ أن أؤسس حياة جديدة أجمل، وها هو حلمي قد تحطم واختفى، والآن كل ما أستطيع التفكير به: كيف سأتخلص من هذا الوضع العجيب الذي وقعت به؟ ولأكون صريحًا معكم، فإن حياتي المستقبلية التي أضعتها في الشفقة على نفسي، أنا الآن أتشوق ليوم من أيامها، أعي أنه شيء في منتهى الجنون. بدا لي وكأن الطريق الوحيد لبدء كل شيء من جديد، هو إعادته إلى مساره القديم، ولكن كيف سأنجح في هذا؟! ليس لدي أية فكرة. وقتها توصلت إلى اقتناع واحد؛ وهو أن أتمسك بغريزة الحياة وأمرر يومي هكذا، كما أنني أدركت أن أفضل شيء هو الذهاب إلى السيد "أسعد" عندما يعود من خارج الوطن، وإخباره بكل شيء، يمكن أن يكلفني ذلك وظيفتي، لكنه في المقابل سينقذ حياتي، ومن ناحية أخرى، شغلت بالي نصيحة "عبدُل" بأن أعيد النظر مرة أخرى في مسلماتي، فيا تُرى،

هل كانت نصيحته صادقة أم استعراض وخدع كلامية؟ أم أن هناك أشياء حقًا لا أستطيع فهمها؟

وتحت تأثير مفعول الثلاثة كؤوس التي شربتها على التوالي، كانت مَلَكَاتُ التفكير عندي قد ضعفت فوق ما تتخيلون. نظرت في الساعة؛ لا بد أنهم بدؤوا البروفة، وفي لمح البصر كنت في التاكسي، ووصلت إلى منزل "سنان" والساعة تقترب من السادسة، فوجدت الفريق كاملًا مجتمعًا بما فيهم "عبدُل" و"صفوت".

اعتذرت عن تأخري، وجلست في زاوية، فقالت "جوركان":

- لا عليك، لم نبدأ في البروفة بعد؛ كنا نتناقش في موضوع آخر.

- حقًا؟ وما الموضوع يا تُرى؟

فسر "بولنت" قائلًا:

- كنا نفكر في إدخال بعض التغييرات على المسرحية لتعزيز مذهب "بريخت" فيها؛ فمثلًا يمكننا كسر الجدار الرابع، بإضافة بعض الفصول التفاعلية التي تجعل الجمهور يشارك في العمل المسرحي.

وأضافت "فوليه":

- فمثلًا في بعض الأحداث المثيرة أثناء العرض، يمكننا أن نتوقف ونسأل الجمهور: كيف يمكن تكملة هذا الحدث؟ وهكذا يكونوا قد تدخلوا في مجرى الأحداث، وأكملوا المسرحية معنا.

كان هناك ألم خفيف قد بدأ يتسلل ويسري في رأسي، فقلت ماسكًا رأسي بين يديَّ: - إن المسرح هو فن أُقيم على أساس أن يجلس المتفرج ويغلق فمه لمدة ساعتين ممتنعًا عن الكلام، ورأيي أيضًا، ألا تدعوهم يتدخلوا في شيء، والرأي رأيكم طبعًا.

11

غبي

Dumb

لم أذهب لا للشرطة ولا للسيد "أسعد"؛ ربما لأن تهديدات "عبدُل" أصابتني بالخوف، وربما لأنني تربيت منذ الصغر على فكرة أن الفتنة والوشي شيئان مكروهان، وربما أيضًا لأنني لم أستطع المجازفة، وتحمُّل خروج الأحداث عن السيطرة أكثر فأكثر. أمَّا السيدة "نور جول"، فكان همها الوحيد هو التكتم على قضايا فساد زوجها، والتي من الممكن أن تظهر ويتم إفشاؤها بعد خمسة أيام؛ أي قبل الانتخابات المحلية، التي من المقرر إجراؤها يوم 27 مارس 1994.

بدت لي فكرة منطقية للغاية، ولذلك وفي تلك الفترة، لم أخطُ خطوة خارج الفندق إلا للذهاب إلى المسرح أو للتمشية واستنشاق القليل من الهواء، حتى أثناء عودتي من البروفات، كنت أطيل الطريق، وأمشي من أزقة وشوارعَ غير المعتادة؛ مخافة أن يكون أحدهم ينتظرني أمام منزل "صفوت".

كنت أتصل بـ"نرجس" من حين لآخر، وكانت قد عادت إلى "اسطنبول" بعد تحسن حالة والدها. وخلال اتصالاتنا ومحادثاتنا الطويلة، بدأت أشعر بدفء وارتياح نحوها من جديد، فكانت تقلق عليَّ، وتريد أن تعرف أين أقيم، لكني كنت أمرر أسئلتها في هذا الصدد بأجوبة غامضة، وأغير الموضوع، لذا لم تستطع معرفة السبب وراء اختفائي. ضحكنا كثيرًا كأيامنا السعيدة في الماضي، وحتى لو خطر على بالي أكثر من مرة أن أخبرها بمكان وجودي، أو أن أذهب إليها في منتصف الليل، إلا أنني نجحت في التحكم في نفسي والسيطرة عليها.

بالطبع، هذه السياسة الجبانة لم يبدُ أنها ستفيدني كثيرًا في المهمة التي أسداها السيد "إسكندر" لي؛ أي منع حدوث جريمة قتل "عبدُل" المحتملة، أو

كشفها وحلها.

الحل الذي يدور برأسي كالتالي: يوم الجريمة، أدعو "عبدُل" لمكان ما بعيدًا عن الأنظار والخطر، ومن ثم أحاول حمايته من الحادث التعيس الذي يمكن أن يصيبه، ربما لم تكن خطة محبوكة كثيرًا، لكن فلتذهب روحه إلى الجحيم، لا يهمني أساسًا.

لم تصلني أخبار بعد عن نتيجة رسالة الابتزاز الثانية التي أرسلها "عبدُل"، لذا كنت أتصفح الجرائد كل يوم وأتابع أخبار التلفاز، وحتى يوم الجمعة الموافق 25 مارس، لم أصادف خبرًا فاضحًا يتعلق بالأمر، لذا ارتحت كثيرًا، فقد تبقى يومان فقط على الانتخابات، وبعد تجاوز تلك النقطة لا أظن كثيرًا أن الناخب سيغير رأيه تحت أي حال من الأحوال، وإذا نظرنا للحالة التي ستصل إليها بلدنا خلال العشرين سنة المقبلة، فمن الصعب القول أن هذا الوضع بما فيه نتيجة الانتخابات، سيحمل الخير للبلاد، لكن الأكيد أنه سيحمل الخير لمصالحي المادية قصيرة المدى.

البروفات على المسرحية قد انتهت، وبقيت فقط بروفة عامة سنقوم بها يوم الأربعاء، والسبت الذي يليه، سنلتقي بثلاثة أو عشرة متفرجين تقريبًا، وذلك في "مركز أورطه كوي للفنون".

ولأنني اطمأننت إلى أنني تجاوزت الخطر المرتقب، اتصلت بـ"نرجس" وعرضت عليها أن نقضي عطلة الأسبوع في إحدى الفنادق بـ"بيوك أضه" (الجزيرة الكبرى). إنها تعرفني، من يومي وأنا شاب معدم مفلس بلا مال، لذا قابلت عرضي الرومانسي هذا بالدهشة أولًا، لكن سرعان ما رحبت وقبلت

على الفور. تقابلنا في ميناء "إمينونو (Eminönü)"، وركبنا الباخرة المتجهة إلى الجزيرة. جلسنا على سطح الباخرة على الرغم من برودة الجو، شربنا الشاي وأكلنا السميط، دخنا سيجارة، وتبادلنا الحديث والضحكات.

وبعدما رست الباخرة على "بيوك أضه"، ركبنا الحنطور متجهين إلى الفندق الصغير الذي يقع في آخر الجزيرة، وبالفعل، وصلنا هناك وقت طعام العشاء بالضبط، فأشبعنا بطننا ثم أحضرت "نرجس" زجاجة نبيذ أحمر، واقترحت أن ننزل إلى الشاطئ. النزول إلى ساحل البحر في مساء شتوي بارد، بصراحة الفكرة لوحدها جعلتني أرتجف بمجرد سماعها، لكنني وافقت عندما تذكرتُ أنني لم أعد في سن الخمس وأربعين. ارتدينا معاطفنا وخرجنا من الفندق، ثم نزلنا إلى الساحل من السلالم الحجرية، وعلى الشيزلونج جلسنا جنبًا إلى جنب، وملأنا كأسينا.

كان على بعد مائة متر من مكاننا مجموعة من حوالي سبعة أو ثمانية شباب وشابات، جالسين متحلقين حول نار المعسكر يتسامرون. أعجبني منظرهم في البداية وفرحت، لكن فرحتي لم تكتمل، ذلك عندما رأيت أحدهم يحمل جيتارًا كلاسيكيًا؛ هذا يعني أنه لا مفر من سماع أداء مغنِّي الشواطئ الرملية.

وفي تلك الأثناء، قالت "نرجس" ناظرة إلى البحر:

- أتعلم؟ كنت أظن أنني قد فقدتك.

لم أعرف ماذا أقول.

خطر ببالي أن أسألها عن حكاية "عبدُل" و"شكران" التي ألفتها، لكن هل أريد المواجهة حقًا؟ لست على يقين من أمري، فما ارتكبته "نرجس" من خطأ - أيًا ما كان - قد حدث وانتهى، وبقي كله وراء ظهرنا، والآن أريد أن أعيش مستقبلًا سعيدًا مع المرأة التي أحبها، فبالحب فقط تستطيع بناء حياة جديدة أفضل.

أمسكت "نرجس" يدَيَّ وكأنها قرأت أفكاري:

- أقسم لك أنه لم يحدث بيني وبين "عبدُل" شيء!

على أغلب الظن، كانت تقصد علاقة جنسية، لأن الرجال ينزعجون كثيرًا من هذه العلاقات أكثر من المراوغات الرومانسية العادية.

قلقت، فأنا أيضًا من هذا النوع من الرجال.

- حسنًا، لا تحزني نفسك، أصدقك.

شعرت بندم عميق في قلبي ما إن قلت هذا، فهمهمت بصوت منخفض: - أعتذر منك، سامحيني!

- ولماذا تعتذر؟

- لأنني لمحت وجود أشياء خفية بينكما، وتدنيت لدرجة أنني فكرت -ولو للحظة - أن شيئًا منحطًا مثل هذا هو أهم من حبي لك.

قامت من مكانها وضمتني بين ذراعيها بكل قوتها.

امتزجت دموعنا مع بعضها، وبقينا هكذا بلا كلام لمدة طويلة، لا شيء مثير للعجب في تواجدي هنا في ذلك المكان وذلك الزمان، لأنني بالأساس كنت قد قضيت العشرين سنة دون أن أعيشها، أقولها بالفم المليان، لأن قلبي بدأ يخفق الآن مجددًا.

تمدد كل منا على الشيزلونج مشبكيْن أيدينا ببعضها، نتحدى العالم كله. وهكذا بعيدًا عن أضواء المدينة وازدحامها أخذنا نتأمل النجوم المتلألئة في السماء والكون اللامع من حولنا، نسبح في الفضاء بكبرياء وكأن قدرنا مثل نجم مذنب تكون والتحم بالانفجار العظيم قبل مليارات السنوات، نسبح وبداخلنا الماضي والحاضر وما حدث وما سيحدث، وهمنا الوحيد أن نعيش اللحظة بتفاصيلها. إن قلت الموت، فنحن مستعدون، وإن قلت الحياة، فهي بالنسبة لنا لحظة قصيرة كطرفة عين، نبتسم فيها لبعضنا، لأن كلًا منا قد منح الأبدية للآخر.

هكذا ونحن مستلقون، سمعنا أحدهم يقول:

- مساء الخير يا أصدقاء.

أقمت رأسي ونظرت؛ شاب طويل القامة، طويل الشعر واللحية.

- كنت سأسألكم: يا تُرى، هل لديكم سجائر زائدة؟

أخرجت العلبة وناولتها له، فأخذ سيجارتين منها:

- لو ترغبون في الانضمام إلينا، تعالوا تفضلوا، ومنه تتدفؤون على النار.

التفت إلى "نرجس":

- ما رأيك؟

قالت مبتسمة:

- ولم لا؟ الجو حقًا بارد للغاية.

قمنا من أماكننا ومشينا خلف الشاب المتطفل إلى حيث يجلس أصحابه، وبعد فقرة التعارف والسلامات، انضممنا إلى حلقتهم حول النار.

كان جميعهم أبناء العائلات التي تسكن بهذه الجزر (جزر الأميرات)، شخصيات محترمة خفيفة الظل، وواضح عليهم التعليم والثراء. وعلى عكس ما توقعت، فالشخص الذي يعزف على الجيتار، لم يكن أحد الشباب، بل شابة صهباء نمشاء الوجه، كانت تحرك الجزء الذي يربط أوتار الجيتار، فظننت تلقائيًا أنها تحاول أن تعزف عليه، إلا أنها شدت آخر وترين ورمتهما.

لا بد أنها لاحظت نظراتي المتعجبة مما تفعل؛ ذلك أنها قامت بتفسير الأمر قائلة: - إن الأصوات النشاز الرفيعة هذه تثير أعصابي وتقشعرني، لذا فعلت هكذا.

وبعدها بدأت تعزف ألحانًا من موسيقى الأتونال، تلك الموسيقى العشوائية التي تأخذ من الضوضاء والفوضى قاعدة لها.

حينئذ، تذكرت في نشوة وفرح، أننا نعيش مجددًا تلك الأيام التي اكتشفت فيها موسيقى "البوست بانك (Post-punk)". وفي تلك الأثناء، لفت انتباهي

ذلك الشاب المتطفل وهو يلف سيجارة كبيرة سميكة، الآن فهمت؛ إنه طلب التبغ منا لكي يستخدمه كمواد أخرى إضافية تقوي مفعول دخانه. بصراحةٍ، كنت مترددًا: هل أشترك في عملية الشرب أم لا؟ لكن عندما رأيت "نرجس" وهي تشد نفسًا من السيجارة بكل مزاج، ذهب ترددي وفعلت أنا أيضًا مثلها بالضبط، بل وأكثرت من كمية التبغ أثناء لفها. بعدها، دخلت في نوبة كحة مخيفة، حقًا إنه شيء عنيف وحاد بطريقة غير طبيعية، فسألته وأنا لا زلت أكح: - ما هذا الشيء؟

فقال صاحبنا:

- إنه البرعم المجنون.

- وماذا يكون البرعم المجنون؟

وضَّح أستاذ ورئيس قسم المخدرات قائلًا:

- نوع من الحشيش، لكنه شديد التأثير وقوي المفعول للغاية، يُستخرج فقط من أوراق زهور أنثى النبات الهندي "كانابيس ساتيفا" (القنب المزروع)، الجرعة الزائدة منه خطرة.

- الإناث خطرة!

هكذا علق شاب آخر نحيف الجسم كان مستلقيًا ووجهه ناحية البحر.

أخذنا بضعة أشواط نلف حشيش البرعم المجنون على أنغام جيتار الفتاة الصهباء، والتي صارت أنغامًا ترتاح لها الآذان، وإذ فجأة طلعت شابة ذات

شعر مموج، وقالت بصوت عالٍ: - ألم تفكروا قط!

كان صوتها عالٍ لدرجة أننا جميعًا ارتعبنا بمجرد سماعه.

ثم تابعت:

- ما الفرق بين الحَوَل والحور؟

كان هناك رجل يكبرهم سنًا بالنظر لبياض سوالفه ولحيته، بادر بالإجابة على سؤالها العميق في جدية تامة: - إن كل شخص مصاب بالحور في عينه، يستطيع أن يقول بكل ارتياح أنا أحول، مع أن كل أحول يعتقد دائمًا أن لديه حورًا في النظر.

ظلت الشابة ترف بعينيها بحركات سريعة مثبتةً نظراتها على وجه الرجل، وكأنها تريده أن يفسر أكثر، فقامت فتاة أخرى صهباء أيضًا، وقبضت على ذراعها بشدة، وقالت: - رموشك.. يا إلهي، ما أطولها! إنها مثل ريش الطاووس، لا ترمشي كثيرًا وإلا تطيرين، تطيرين وتذهبين.

بدا على ذات الشعر المموج أنها تأثرت كثيرًا بكلام صديقتها التي تفكر بها إلى هذا الحد، فهوت عليها وعانقتها في ود وحب.

وبينما كانت عازفة الجيتار مستمرة في عزفها، فجأة أخذت تئن وتقول: - أنا جاااااائعة!

وعندما قمت لأذهب إلى الفندق وأحضر لها شيئًا تأكله، تابعها بقية أصدقائها بحماس واضح: - أنا جااااائع.. أنا جااااائع.. أنقذوني من أجل الحب!

يبدو أنها كلمات أغنية مفضلة للغاية عندهم.

في تلك الأثناء، لاحظ الشاب المتطفل حركتي المفاجأة التي بلا داعٍ أو مبرر، وأخذ يضحك بملء فيه بسخافة؛ حيث إنه أكثر شخص بيننا لا زال يحافظ على توازنه، فهو مدرب جيدًا في موضوع مواد الكيف. بعد ذلك، علق الشاب الذي حذرنا من خطر الإناث على الأغنية، وقال بصوت بارد كبرود الجو الذي نجلس فيه: - رائعة، رائعة! في رأيي، هذه الأغنية لا بد أن تصبح نشيدنا الوطني.

وما إن سمعت العازفة الموسيقية هذا التعليق على الأغنية التي كانت تعزفها، حتى توقفت عن العزف، وبغضب شديد قذفت بالجيتار فوق الرمال، وتمردت على الشباب قائلة: - أنا لا أقول إن المالينخوليا (حالة من الكآبة) شيء جيد، حسنًا! ولا أرغب أحدًا فيها! فقط أحكي الواقع، ولا بد أن تعلموا أننا نحن الفتيات موجودات، نراقبكم وندفن ما نراه بداخلنا، اعلموا فقط!

انفجرت "نرجس" بالضحك على هذا الكلام الغريب، مستفرغة المشروب من أنفها، وقد سرى مفعوله في رأسها/ ثم سألتهم قائلة: - أنتم! من أنتم بالله عليكم؟ أي عمل تشتغلون؟

قال أول شاب تعرفنا عليه:

- نحن جنونيون غير طبيعيين؛ نأكل ونشرب ونجرب...

- هذا يعني أن أبناء الطبقة المخملية هكذا يعيشون.

كنت أفتخر بها؛ حيث قامت بتحديد طبقتهم الاجتماعية وهي في هذه الدرجة من الكيف؛ ليس بالأمر السهل طبعًا.

رد عليها صاحبنا مدمن المخدرات:

- صحيح ما قلتِه؛ نحن من الطبقة المخملية، لكن ليس كما تظنين سيادتكِ، فنحن "مكرو- مخملية".

- شيء رائع! يمكن أن تأخذونا نحن أيضًا معكم؟ لكن دعني أقول لكم من البداية، إننا لسنا أثرياء أو شيئًا من هذا القبيل.

رد سيدهم ذو اللحية البيضاء، والذي فهمت أنه المنظر الأيديولوجي لهؤلاء الشباب: - إن الثراء الذي تتحدثين عنه، ما هو في الحقيقة إلا وسخ الأيدي، المسألة هي: هل أنتم غير طبيعيين بالدرجة الكافية؟

صدقت "نرجس" برأسها في جدية:

- نعم، نحن غير طبيعيين!

- حسنًا، وهل أنتم الجزء غير الطبيعي لما هو غير طبيعي؟

أخذت "نرجس" تبحلق بعينيها في الرجل، ثم سألته بصيغة مبالغة: - وماذا؟

تابع الرجل كلامه:

- إن الناس في جزء كبير منهم طبيعيون من ناحية الذكاء، نحن نضع جانبًا من هم في الطبيعي وتحت الطبيعي، ونأخذ من هم فوق الطبيعية من غير

الطبيعيين. ونقسمهم كذلك إلى الجزء الطبيعي لما هو غير طبيعي، وما الجزء غير الطبيعي لما هو غير طبيعي.

قالت "نرجس":

- لا بد أننا الجزء غير الطبيعي لما هو غير طبيعي.

- بالتأكيد، إن ما نقصده بالجزء غير الطبيعي لما هو غير طبيعي، هم أولئك الأشخاص ضعيفو الشخصية المنحطون أخلاقيًا، لكنهم متفوقون علمًا وعقلًا؛ إنها طبقة المجتمع المعروفة بـ"الناس الهاي"، وهم المحترفون في كل المجالات، ومحققو الأرباح من رجال الأعمال رفيعي المستوى والسياسيين وغيرهم.

- رائع جدًا! حسنًا، وماذا تفعلون بالضبط؛ يعني بخلاف الأكل والشرب والتجارب؟

دخلت عازفة الجيتار في الحوار:

- نتمسك ونحتمي ببعضنا.

ثم أخذت غصن شجرة من الأرض، وقمسته نصفين:

- وإلا سيهرسوننا جميعًا تحت أقدامهم.

قالت ذات الشعر الأحمر ملقية يدها على كتف صديقتها ذات الشعر المموج: - نحن عبارة عن نادي من لا يسجلون عضويتهم بأي نادٍ.

خطر "عبدُل" على بالي تلقائيًا؛ يا ترى، هل كان سيعجب بهؤلاء الشباب الجنونيين وينسجم معهم، أم كان سيهدم الدنيا على رؤوسهم؟ على أية حال، هو يتغير كل لحظة حسب حالته النفسية والمزاجية.

سألتهم قائلًا:

- حسنًا، وهل يجوز تنفيذ شيء كهذا؟

قال صاحبنا المخدر وهو ينفث بدخان البرعم المجنون في الهواء: - كل شيء جائز، ربما باستثناء "شارلوك هولمز" دون رفيقه "واطسون".

- حسنًا، لنفترض أن ما تقولونه صحيحًا، قبل قليل تحدثتم عن ميزة أخلاقية وما شابه، إن الإنسان عندما يختار جانبًا أخلاقيًا، فإنه يفعل ذلك لا من أجل نفسه فقط، بل من أجل الإنسانية جمعاء، وعندما يسير في حياته بمبدأ مشابه لهذا، فسيضطر لقبول نتيجته أيًا ما كانت؛ فمثلًا، أنتم حتى تستطيعوا أن تدخنوا ذلك الحشيش بكيف وبمزاج، لا بد لأحدهم أن ينتجه، وحتمًا ستقحمونه في "علاقات الإنتاج"؛ أي "علاقات الإنتاج الرأسمالية" تلك التي يجب عليكم أن تدخلوها من أجل البقاء كما تقولون، ومن ناحية أخرى، تجبرون غيركم على التصرف بشكل مختلف عنكم، ويكون مبدؤكم: ليس وعي البشر هو الذي يحدد كينونتهم، بل كينونتهم الاجتماعية هي التي تعيّن وعيهم، بالطبع، إنها وضعية جيدة مزاجيًا، لكن أخلاقيًا فلا.

قال الرجل الأيديولوجي:

- علاقاتنا مع أطياف المجتمع الأخرى، عبارة عن علاقة بيع وشراء بسيطة ليس إلا، فأخلاقهم لهم، وأخلاقنا لنا.

- يعني تقول إن الغاية تبرر الوسيلة، إنه مبدأ الإمبريالية الثقافية، ألم تسمع عنه إطلاقًا؟

قال صاحبنا المخدر:

- الأستاذ على حق؛ نحن نادٍ غير أخلاقي!

بصراحةٍ، لم أستطع في البداية أن أفهم هؤلاء الأصدقاء ومن أي نوع يكونون، لكن مع التفكير بدأت تتبلور في عقلي بعض الرؤى والأفكار حولهم. إنهم أشخاص من ذلك النوع الذي لن تصادفوه بسهولة، خصوصًا عندما يتقدمون في العمر قليلًا؛ هم أفراد مميزون من الناحية المادية والعقلية أيضًا، يفتحون أعينهم على حياة مختلفة عن الأناس الطبيعيين منذ اليوم الأول، ويدركون جيدًا هذا الاختلاف، ربما سينتحر قسم منهم، والقسم الآخر سيصبح من المفكرين والمثقفين المصابين بالبارانويا (جنون الارتياب والعظمة)، لكن ليس جميعهم، فالبقية سيتحولون إلى قوىً مظلمة تنحصر خلف الأبواب المغلقة، وهناك تتخذ قراراتها الحساسة المصيرية التي ترسم مجرى حياتهم. هم قادة العالم! والأبطال المجهولون أصحاب نظريات المؤامرة! وهؤلاء الذين ينشرون أبحاثهم في الجرائد والمجلات، والذين يصنفون التيارات الاجتماعية ويعتمدون المعايير الأخلاقية: هذا صواب وهذا خطأ! وحتى لا ينفر الشعب منهم وتُمحى أسماؤهم، يضطرون للتفكير

في مصالحه ومفاسده، هؤلاء مشاهير لدرجة ألا يستطيع أي شخص عادي أن يتعرف عليهم؛ إنهم عدماء الضمير المضللون المتصنعون!

أخذت أفكاري تدور في هذا الفلك، ولابد أن لهذا علاقة قوية بالبرعم المجنون الذي يسري في دمي، فأفضل شيء هو الذهاب من هذا المكان قبل أن أفقد توازني تمامًا، فالتفت إلى "نرجس": - أما حان الوقت للرحيل؟ هيا ننهض!

وافقت برأسها مبتسمة.

قمنا نحن، وتركنا جماعة الأصدقاء - الذين أصبحوا لا يبالون كثيرًا بوجودنا - وحدهم مع تمثيلياتهم ومسرحياتهم وشتى أنواع جنونهم، ومشينا باتجاه الفندق.

وبينما كنا نصعد السلم متعانقين، أعطتني "نرجس" قبلة على خدي وهمست في أذني قائلة: - حبيبي، لن أسمح لأحد أن يحزنك مرة أخرى، ولا أحد.

كنا سعداء والفرحة لا تسعنا بسبب وصالنا مجددًا، لدرجة أننا أجلنا العودة إلى يوم الأربعاء.

ركبنا الباخرة ظهرًا عائدين إلى "اسطنبول"، ثم توجهنا إلى منزل "روملي حصار" معًا، وبعدما ارتحنا والتقطنا أنفاسنا قليلًا، ذهبنا إلى الجامعة.

دخلت "نرجس" المحاضرة على الرغم من إلحاحي عليها وتحريضي لها بعدم الحضور؛ إنها شخصية ملتزمة من يومها. ذهبت أنا أيضًا إلى كافتيريا

"أورطه" لأقضي ساعة أو ساعتين أدردش مع أحد الأصدقاء إلى أن يأتي موعد البروفة.

وبالقرب من الكافتيريا، لفتت انتباهي حركةٌ كانت أمام "المبنى الأحمر" كما نسميه، ألقيت نظرة؛ إنهم الشباب الإسلاميون يحتفلون بالانتصار الديمقراطي الذي حققوه في الانتخابات المحلية، يهتفون بشعارات حماسية وهم يحرقون علم إسرائيل، أمَّا الطلاب الآخرون فكانوا يشاهدونهم في ذهول، وخاصة الفتيات دائمات التردد على كافتيريا "سوسييته"، فلم يروهم في هذه الحالة من قبل.

نزلت للأسفل وطلبت كوب شاي، ثم أخذته وعدت على الفور إلى موقع الحدث، فرأيت "نورالدين" متسلقًا على سلالم الحريق، ذهبت إلى جانبه، وقلت رافعًا كوب الشاي على شرفه: - مبارك عليكم!

قال وعلى وجهه ابتسامة بها شيء من الوقار:

- يا جماعة! إنهم مجرد أطفال يحتفلون.

- وأنت ألا تحتفل؟

- لا، هم يحاولون التعلم، وأنا أحاول النسيان.

لم يكن لدي شك في إخلاص نيته وصدق كلامه، لكنني لم أعتد على حالته هذه، هل كان يواجه أزمة بالفعل؟ لست متأكدًا، لكنه بدا لي وكأنه قلق من أن تطير آماله الكبيرة التي لطالما سعى خلفها، وتذهب من بين يديه، فقلت له: - لا تقلق، كل شيء بأوانه.

- أعرف، ليس لدي شك في ذلك.

ثم تأوه من أعماقه قائلًا:

- اضطُهدنا كثيرًا يا "عزيز"، لكن علينا أن ننسى كل ما حدث، وساعتها فقط، نستطيع أن نصبح عادلين مثل سيدنا "عمر"، وإلا لن يكون لنا فرق عن الآخرين.

هذا المنهج الإسلامي المثالي غير واقعي في نظري، ولم أرَ له أية قابلية للتطبيق.

وعلى الرغم من كل شيء، فإن إخلاص "نورالدين" في نيته وكونه فتح قلبه وتحدث معي، جعلني أتعاطف معه نوعًا ما، فأمثاله كنا سنبحث عنهم في الكتب بعد ذلك في مستقبل لا يعد بالبعيد كثيرًا، فقلت: - برأيي لا تضايق نفسك كثيرًا، بصراحةٍ، لا أظن أنك ستفكر هكذا بعد عشرين سنة، لكن هذا ليس موضوعنا الآن. أنت الآن متضايق وتقول اضطهدنا وظلمنا، صديقي! إن شخصًا لم يذق طعم القوة في أي وقت من الأوقات، لا تنتظر منه أن يتخلى عن تلك القوة التي حصل عليها عن طريق الصدفة، والقوة بطبعها تطلب المزيد دائمًا.

- ما تقوله هذا يمكن حدوثه إذا انفصلت القوة عن الحق، لكننا نستمد قوتنا من الحق؛ أي قوتنا في حقنا.

- والله يا عزيزي "نورالدين"، لو أمعنا النظر فسنجد في النهاية أن لدى الجميع حقًا في أن يكون بلا حق، المشكلة تظهر عندما تتحول إلى كيان بلا حقوق.

قال بأسلوب ساخر:

- عن أي حقوق تتحدث؟ تلك الحقوق الدفينة داخل إرادتك الضعيفة؟

- بالضبط؛ الحقوق التي تسعى لحل أزمة الإنسان مع العالم عن طريق وضعه في عين الاعتبار.

- حسنًا، انظر هكذا إلى العالم، هل يبدو لك أن أزمته مع الإنسان قد حلت؟ مذهب الإنسانية الذي يتشدق به الغرب، هل جلب السعادة للإنسانية حقًا؟

- ومن قال إنه لا بد أن يجلب السعادة؟ إن القاعدة الأساسية لمذهب الإنسانية، هي جعل الإنسان حرًا، والباقي مسألة الفرد مع نفسه.

- وفقدان الإحساس والشعور أيضًا يمكن أن يجلب الحرية، فلو كانت الحرية هي أهم قيمة، فالمجانين في نعيم!

- هل المجانين يحسون أنفسهم أحرارًا؟ لا أعرف، ولكن ما أعرفه أن أخطر الأمراض النفسية، تصيب أولئك المتيمين بشعور العدالة وهم في الحقيقة يخلطون بين العدالة وبين استحقاقات مريضة اخترعوها لأنفسهم، ويستبيحون كل الوسائل والطرق من أجل الحصول عليها، وتحقيق ما يعتبرونها المثل العليا.

على ما يبدو أن الحمية أخذتني، وانهمكت في الموضوع أكثر من اللازم، فضرب "نورالدين" على ركبتي ضربة خفيفة، ثم ابتسم: - يا أخي أرح بالك، نحن نأخذ ونعطي في الموضوع فحسب، لا أكثر ولا أقل.

قابلت ابتسامته بالمثل قائلًا:

- معك حق، لا تؤاخذني.

في تلك الأثناء، سمعنا صوتًا ينادي من أسفل السلم: "هاااي!". نظرت؛ إنه "صفوت" وقد حلق لحيته التي أطلقها في أسبوع، وساواها بشكل دائري يتلائم مع المظهر الإسلامي البدائي، فهذه عادته؛ من حين لآخر يقوم بطفرات عجيبة كأن يقلد ملابس الثوريين أو القوميين أو الشرطة المدنية أو المترفين أبناء الأثرياء، كلٌ حسب الأحوال والظروف المواتية.

قفز علينا كالمهرج وبيده كوب لبن رائب وساندويتش سوسيس:

- كيف حالكم يا محترمون؟

قلت:

- بخير بخير، هل ستأتي إلى بروفة المساء؟

- ألغيت.

ثم قضم السندويش بشهية، وقال:

- ألم تكن تعلم؟

- كيف هذا، وبعد ثلاثة أيام سنمثل المسرحية؟

لوَّح برأسه يمينًا ويسارًا قائلًا:

- وهذه أيضًا معلومة خاطئة؛ ألغيت المسرحية هي أيضًا، فقد سمعت أنهم شمعوا دار السينما مرة أخرى.

- حسنًا، وماذا سنفعل؟

هزَّ "صفوت" كتفه قائلًا:

- لا شيء، "جوركان" تبحث عن صالة بديلة يمكننا تمثيل المسرحية فيها، ولو وجدوا مكانًا فسيتصلون بنا ويخبروننا.

ولم الكذب! لم أحزن كثيرًا على أننا لن نستطيع تمثيل تلك المسرحية الرديئة، لكن من جانب آخر، كنت أود رؤية "عبدُل" هذا المساء، لكي أنهي معه موضوع "نرجس" موصلًا له فكرة أن ما حدث - أيًّا ما كان - قد حدث وانتهى، كما أريد أن أحذره من موضوع قتله الذي بقي عليه أقل من أسبوع. والآن، بما أن موعد البروفة قد ألغي، فعليَّ أن أجد طريقة أخرى لمقابلته؛ ليس لدي رقم تليفونه، لكن بإمكاني الاتصال بـ"فوليه" وأخذه... الأمر لم يكن عاجلًا، فتركته للمساء.

وبعدما انتهت محاضرات "نرجس"، عدنا معًا إلى "روملي حصار". جلسنا في مقهي "علي بابا" ندردش، ثم تناولنا الطعام في المطعم المجاور له، وبعد ذلك ذهبنا إلى الساحل. وهناك، شربنا البيرة ثم عدنا إلى البيت.

وبينما كنا نشاهد فيلمًا تاريخيًا قديمًا يحكي علاقة حب بين امرأة مغامرة وخيال بحار، راحت "نرجس" في النوم على الكنبة التي كانت تتمدد عليها،

وما إن انتهى الفيلم، رنَّ التليفون، فقفزت من مكاني مسرعًا حتى لا تستيقظ "نرجس"، وأجبته.

سمعت صوتًا من الجهة المقابلة يقول:

- أتمنى ألا أكون قد أزعجتكم!

- "عبدُل"! يعني أنك على قيد الحياة، واللّٰه كنت سأتصل بك!

بدا في مزاج جيد وهو يقول:

- القلوب عند بعضها. قل لي كيف حالكما؟ ماذا تفعلان أيها الحبيبان؟

- نحن بخير حال، وأنت؟

- ما دمتم بخير فأنا بخير، كما أنني سعيد لأنني كنت سببًا في حل الخلافات التي بينكما.

- نعم، لا أعلم لولاك ماذا كنا سنفعل، لك أن تتخيل!

- لا شكر على واجب، وعلى أية حال هذا واجبي في الحياة.

- حقًا؟ كنت أظن أن وظيفتك خنق صغار القطط.

أطلق "عبدُل" القهقهات:

- يا صديقي، أنا فقط عامل مساعد، أتسلل داخل العلاقات، وأقوم بقلبها وتغييرها، ثم أخرج وأتابع طريقي دون أن أتغير.

- أنت إنسان متغطرس ولديك ميول للجريمة، ومن الآن فصاعدًا أريدك أن تبتعد عن "نرجس" وعني.

- لا عجب في خوف الحَمَل من الذئب، لكن العجيب هو حب الحمل للذئب.

- انظر، سأحذرك من شيء، من باب الإنسانية، اختفِ من الوسط لفترة، ولو بالإمكان فللأبد.

- لا أرى هذا التهديد لائقًا بك أبدًا يا "عزيز"، فكلانا يعلم أن هذا ليس أنت.

- لا علاقة لي بهذا، سيحرقونك، أتفهم؟ "خضر" أو "أسعد" أو غيره، لا تسألني كيف عرفت ،وثق بي، ثق بي، واذهب من هنا.

قال بصوت هادئ:

- أساسًا سأذهب لأقضي عطلة الأسبوع في "أنقرة"، لكن عند عودتي أريد مقابلتك عاجلًا. من الممكن أن تكون علاقتك مع "نرجس" جيدة في الوقت الحالي، لكنك تعلم أن هذا لن يدوم طويلًا، فهناك أمور عليك معرفتها.

- عطلة الأسبوع!

أجريت حسابًا سريعًا في عقلي؛ الخامس من الشهر سيوافق يوم الثلاثاء.

- لا، هذه المدة لا تكفي، لا تتواجد بمنزلك على الأقل حتى يوم الأربعاء، ونتحدث عندما تعود.

- سأتصل بك.

وأغلق التليفون.

سألتني "نرجس" بصوت نعسان:

- من المتصل؟

- "عبدُل".

- وماذا يريد؟

قلت بأسلوب فيه تهويل ومبالغة:

- أن يوضح لي بعض الأمور، ذلك المجنون!

- متى؟ وكيف؟

- وما أدراني؟ قال إنه سيذهب إلى "أنقرة"، وعندما يعود سيتصل بي وخلافه.

ذهبت إليها وعانقتها:

- هيا لننام.

رفعت رأسها، وحولت نظراتها الحزينة نحوي، ثم أمسكت بيدي قائلة: - "عزيز"! سأبقى أحبك دائمًا.

شعرت بغصة في حلقي وامتلأت عيناي بالدموع، وقلت لنفسي؛ بالنسبة إليك أمنية، أما بالنسبة لي فعهد وقسم.

12

تمددٌ في الأوعية الدموية

Aneurysm

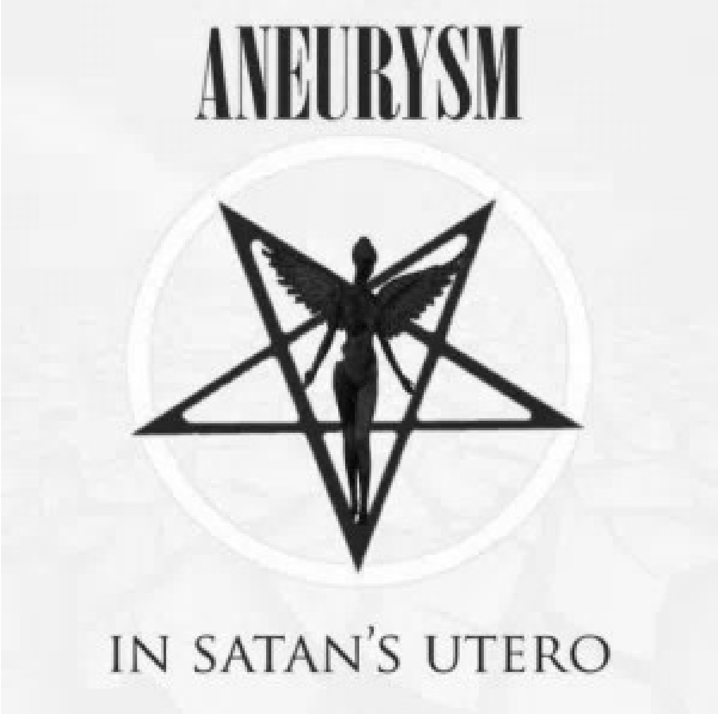

كان الطفل قد كبر، وانتهى الحلم، وأنا الوحيد الذي يعلم ذلك، وفي أقل من أسبوع، كان شباب وشابات الجيل "إكس" الذين لا يملكون قرشًا في جيوبهم، سينهون سنوات اللعب والمرح، وسيبدؤون مرحلة منتصف العمر؛ سيودعون أيام حفلات الروك، ويستقبلون أيام الحياة المهنية والعمل، سيتزاحمون في طوابير فوضوية على كبرى الشركات لتلقي التدريب الميداني؛ حتى يستطيعوا الحصول على فرص عمل جيدة، ستتخافت ضحكاتهم العالية،

ودائمًا ما سيُسمع فيها حزن وهم الدنيا. أما الكبار فسيبلغون سن التقاعد، ومع مرور الأيام سيتحولون إلى أشباح هزيلة أشبه بخيال المآتة.

الاكورات الخماسية ستنتقم من نوتات السلالم الموسيقية الصغرى بأكثر الطرق إيلامًا ا؛ سيموت "تشارلز بوكوفسكي" ويولى عهده، وسيبدأ عهد "إدوارد دي بونو" - طبيب وعالم نفس مالطي - وبعد غد - يعني 5 إبريل 1994 - سيجدون "كيرت كوبين" في منزله بمدينة "سياتل" بواشنطن، وقد فجَّر رأسه ببندقية "ريمنجتون" وانتحر. وهكذا، سيدفن معه جيل "إكس"، ولن يبقى سوى اسمه.

في تلك اللحظة، كنت أنا الشخص الوحيد الذي يعلم كل هذا، وخلال اثنين وسبعين ساعة ستعلم الدنيا كلها. بالنسبة لـ"كيرت" لم يكن بوسعي شيء أفعله لأجله، أما "عبدُل" فكان بإمكاني إنقاذه من المصير نفسه، ولو تجلى القدر - وفقًا لمعلوماتي - فـ"عبدُل" كان لديه موعد مهم مع المصير الأخير بعد غد. لم أسمع منه في عطلة الأسبوع، كما لم يرد على مكالماتي؛ ربما لا يتحدث معي فقط لأن مزاج سيادته لم يسمح له بذلك، وربما أطال مدة بقائه في "أنقرة"، وربما أيضًا لأن جثته قد عثر عليها يوم ٥ من الشهر؛ ظنت الشرطة أنه قتل في اليوم نفسه، وكان هو أصلًا قد رحل منذ وقت طويل، ومع مرور الساعات، بدأ هذا الاحتمال يبدو الأقوى في نظري.

بعدما تناولت طعام العشاء مع "نرجس"، قررت الذهاب إلى "يلديرمني" لأزوره زيارة مفاجئة.

وأنا على وشك الخروج، رنَّ التليفون، والمتصل هو ذلك البلاء الذي تعرفونه.

قلت بصوت متوتر:

- "عبدُل"، لا تقل إنك عدت!

- لا، أنا الآن في محطة الأتوبيسات بـ"أنقرة"، أنتظر الأوتوبيس.

- عد إلى بيتك الآن، وتعال غدًا في المساء.

- لا يمكن؛ غدًا سنمثل المسرحية، أليس لديك خبر؟

- ما هذا الذي تهذي به؟ المسرحية والمهرجان وخلافه، ألغيت كلها.

- المهرجان ألغي، لكن المسرحية سنمثلها في مكان آخر؛ اتصلت "فوليه" وأخبرتني هذا المساء.

- كيف؟! وأين سنمثلها؟

- لا أعلم بالضبط؛ كما سمعت، فإن "جوركان" وجدت مسرحًا في أحد الأماكن بمنطقة "أوكميدان"، ومن ثمّ جمعوا ديكور المسرحية على السريع، وسيأخذوننا بميني باص من أمام رصيف ميناء "بشكطاش" في السابعة صباحًا.

- ولَمَ نتقابل مبكرًا هكذا قبل حتى أن نتناول الإفطار؟!

- لأن المسرحية ستعرض في الساعة التاسعة؛ تعرف، وضع الديكور وضبط الإضاءة إلى آخره.

في الحقيقة، كنت شغوفًا كثيرًا لمعرفة المكان الذي سنمثل فيه المسرحية في التاسعة صباحًا، لكن في تلك اللحظة كانت تشغل بالي موضوعات أخرى أهم عليَّ التفكير فيها، فقلت له: - لا تشغل بالك بالمسرحية أو غيرها، فـ"سنان" حفظ دورك أساسًا، أرجوك لا تعد إلى "اسطنبول".

- لا، ولو قتلوني فلن أفوت أبدًا فرصة الصعود معك على خشبة المسرح، كما أنني أود التحدث معك قليلًا بعد انتهاء المسرحية، كما قلت لك، هناك أشياء مهمة لا بد أن أحكيها لك.

كان على لساني شيء سأقوله، لكنه أغلق التليفون فجأة.

الساعة تقترب من العاشرة، حسبتها سريعًا في عقلي؛ رحلة "أنقرة - اسطنبول" بالحافلة تستغرق ست ساعات على الأقل، ولو فرضنا أن "عبدُل" سيكون في "بشكطاش" الساعة السابعة، فلن يكون لديه متسع من الوقت ليقضيه في المنزل؛ يا تُرى، هل كان القاتل سيبدأ مهمته في الخامسة صباحًا؟ وهل هناك قاتل أصلًا؟ أم أن كل هذا هلوسة تهلوسها دماغي؟ أم أنني رأيت كابوسًا مخيفًا كما قالت "نرجس"؟ إن الأخير أقرب للعقل والمنطق، أم أن القدر يلعب بنا جميعًا بين أصابعه بألاعيب شك وخدع صغيرة كهذه؟

سألتني "نرجس" قائلة:

- هل كان "عبدُل" المتصل؟

أومأت برأسي مؤكدًا.

ثم رنَّ التليفون مرة أخرى؛ إنها "فوليه"، اتصلت لتخبرني بموعد المسرحية غدًا، ولم تستطع هي الأخرى أن تعرف بالضبط المكان الذي سنمثل فيه المسرحية، من الواضح أن كل شيء تطور سريعًا.

على كلٍ، حذرتني مرارًا ألا أتأخر على موعد الصباح، ثم قالت: - تصبح على خير.

أنهت المكالمة.

لابد أن "نرجس" قد رمت أذنها معنا، ذلك أنها سألتني:

- هل ستصعدون على المسرح هكذا في الصباح الباكر؟

- يبدو كذلك. "جوركان" وجدت مسرحًا، على ما يبدو أننا سنمثل ونتفرج على أنفسنا!

- وماذا كان يريد "عبدُل"؟

- لا أعلم، قال إنه في طريقه إلى "اسطنبول"، كما أنه يريد التحدث معي بعد المسرحية؛ سيحكي لي أشياءً "مهمة".

- لو لم آتِ غدًا لن تؤاخذني، أليس كذلك؟

ثم توترت، وقالت:

- صباحًا، لدي اختبار في مادة الاقتصاد، حتى إنني أفكر أن أذهب مبكرًا إلى الجامعة لأراجع قبل الاختبار.

قبلتها قائلًا:

- بالطبع لك ذلك، ولن أتضايق منك، بل إنني أفضل ألا ترين هذه الفضيحة.

تلك الليلة، دخلت للنوم مبكرًا، لكن لم يدخل النوم عيني، وبقيتُ في السرير مستيقظًا حتى دقت الساعة الثانية عشرة.

وجاء اليوم المنتظر، من ناحية ارتفعت أمواج الاضطراب والتوتر بداخلي، ومن ناحية أخرى كنت أحاول أن أسلي نفسي بفكرة أننا وصلنا أخيرًا لنهاية هذا الجنون والعبث... ونمت.

وبينما تقترب الساعة من السادسة، قفزت من السرير قبل أن يرنَّ المنبه، لم أجد "نرجس" بجانبي؛ لا بد أنها استيقظت قبلي وذهبت إلى الجامعة؛ إنها إنسانة مجتهدة وصاحبة مسؤولية، وليست مثلي على كل الأحوال.

تناولت شيئًا على السريع، وخرجت من المنزل في طريقي إلى "بشكطاش".

وعلى الرغم من وصولي إلى رصيف ميناء "بشكطاش" قبل الساعة السابعة، وجدت سيارة "جوركان" الفان البيضاء، أمام إحدى محطات التاكسي المقابلة للميناء.

أخذ أصدقائي الممثلون يستعجلونني ملوحين بأيديهم وذراعهم.

جريت نحوهم، ثم ألقيت نظرة داخل السيارة:

- أين "عبدُل"؟

قالت "جوركان":

- اركب، اركب.

ثم قالت "فوليه":

- "بولنت" و"تولاي" ذهبا قبلنا، و"عبدُل" سيأتي إلى هناك مباشرة.

قلت وأنا أتلفت من حولي لعلي أجد كابينة تليفون قريبة من هناك: - يجب أن أتصل بـ"عبدُل".

مدت "فوليه" يدها قائلة:

- اتصلنا به ونحن ننتظرك، لم تمضِ حتى عشر دقائق، هيا اركب.

شدتني "فوليه" من يدٍ و"سنان" من يدٍ، وأركبوني السيارة، وهكذا جلست محشورًا بينهم وبين أجهزة الإضاءة والديكور المكومة في الجزء الخلفي من السيارة.

لم يظهر "صفوت"، فليس له دور في المسرحية، فلماذا يكلف سيادته ويستيقظ في تلك الساعة المبكرة؟ وما إن أُغلق باب السيارة، حتى داست "جوركان" على البنزين بلا شفقة ولا رحمة بالمسكين الذي يجلس متأرجحًا.

وعلى عجلة أعطاني أحدهم نص المسرحية، وأمرني بأن أراجع دوري.

قلت:

- حفظته جيدًا.

ورميت الأوراق:

- هل يمكنني أن أسأل إلى أين نحن ذاهبون؟

وبعد صمت طويل عن اللازم من أجل إجابة سؤال بسيط كهذا، قالت "جوركان": - إلى دار المسنين.

- ماذا؟ دار المسنين؟! المكان الذي يأوي أولئك المسنين المرضى الذين لا صاحب لهم ولا مسكن!

احتدت "جوركان" بعصبية:

- ماذا؟ ألا يعجبك؟ إن به مسارح جميلة جدًا.

أمسكت "سيلدا" بكتف "جوركان":

- إنها فكرة رائعة يا "جوركان"، وأنا متحمسة كثيرًا لأننا سندخل البهجة على هؤلاء المساكين ونمتعهم بفننا الجميل.

قلت:

- حسنًا، أعلم أن المسنين يبدؤون يومهم مبكرًا عنَّا، لكن أن يشاهدوا عرضًا مسرحيًا في الساعة التاسعة! ويحًا! غير معقول!

قالت "فوليه":

- قالوا إن هناك برنامجًا ترفيهي بعد الظهر، وهذه الساعة فقط التي استطاعوا أن يتيحوها لنا.

بعد نصف ساعة، كنا أمام دار المسنين، فركنا السيارة ودخلنا المبنى التاريخي. استقبلنا السيد المدير بترحاب وحفاوة، ثم رافقنا حتى مكان العرض.

المكان الذي تسميه "جوركان" مسرحًا، كان عبارة عن صالة واسعة بعض الشيء، يتجمع فيها المسنون لتضييع الوقت في مشاهدة التليفزيون وقزقزة اللب؛ يعني كما رأيت، لم يكن هناك خشبة أو ما شابه نستطيع أن نقف عليها ونعرض المسرحية، فقط علقوا ستارة لتفصل بين ساحة العرض ومكان جلوس المتفرجين.

وعلى الفور، بدأ الشباب في نقل الديكور وأجهزة الإضاءة وبقية الأشياء اللازمة، لم أبالِ بهم، ووقفت على باب المبنى أراقب الطريق في توتر وقلق.

لاحظت "فوليه" ما أفعل، فأتت إليَّ:

- هاي! هل أنت بخير؟

- "فوليه"! سوف أسألك سؤالًا، لكن عديني أنك لن تأخذيه بشكل شخصي.

ظهرت على وجهها تعابير الدهشة للحظة، لكنها غطت عليها بابتسامة ذكية: - حسنًا، لن آخذها بشكل شخصي، ما الأمر؟

- هل أنت مغرمة بي؟

- عفوًا؟

- أسألك، هل أنت مغرمة بي؟ يعني ولو قليلًا، ربما إعجاب أو شيء من هذا القبيل.

وضعت يدها علي جبيني لتقيس حرارتي قائلة:

- "عزيز"، هل أنت مريض؟ ماذا تقول بالله عليك؟!

قبضت بشدة على ذراعها:

- الأمر مرتبط بحياة "عبدُل".

عادت "فوليه" إلى الفريق ضاحكة:

- أستغفر اللّه العظيم!

ولم تقتنع إطلاقًا بما قلتُ.

أخذت أتمشى في الحديقة ذهابًا وإيابًا، مدخنًا السيجارة تلو الأخرى.

لم يأتِ "عبدُل" تمامًا كما كنت أخشى، لكن الفرقة لم تبدُ مكترثة كثيرًا بأمر مجيئه من عدمه. وبناء عليه، جاء "سنان" وطلب مني أن أجهز لأنه في خلال عشر دقائق سيرفع الستار، وما كان بوسعي إلا أن أجهز، فليس هناك شيء آخر لأفعله.

ستستغرق المسرحية نصف ساعة، وبعد انتهائها، إذا لم يصدر أي صوت من "عبدُل"، سأتوجه مباشرة إلى "يلديرمني".

دخلت غرفة الزينة، ثم سلمت نفسي لـ"تولاي" حتى تضع المكياج لي؛ خفيف من الأبيض على وجهي، والأسود حول عيني، والأحمر على شفتي، ثم وضعت البرقع ذو الطرطور على ظهري، واستلمت المنجل في يدي، وها أنا النسخة الأخرى من عزرائيل.

وبينما كنت ألقي نظرة أخيرة على نص المسرحية من الأوراق التي وجدتها ملقاة على الأرض، جاء "بولنت" إلى جانبي، وقال: - لدي فكرة؛ ما رأيك أن تدخل المسرح من الجهة الأخرى؟

- لم أفهم.

- سيكون الرأسمالي في فراش الموت على المسرح؛ يعني في المكان الذي ينظر الجميع إليه، أما أنت كعزرائيل فستدخل من الباب الخلفي، وبعدما تقول أول جملة في دورك، ستصعد على المسرح مارًا من بين المتفرجين، أرى أن هذا سيخلق عنصر المفاجأة، وسيكون له تأثيرٌ قويٌ على الجمهور.

فكرة لا بأس بها.

خرجت من غرفة الزينة إلى الحديقة، ودخلت المبنى من الناحية الخلفية.

بدأت أراقب باب صالة العرض، كان حبيب "سيلدا" المهندس واقفًا على عتبة الباب، فناداني إلى عنده حتى آخذ موقعي وأستعد. كان المتفرجون يعطون ظهورهم لي، والصالة ممتلئة عن آخرها، وعندما خرجت "تولاي" لتعلن أن

المسرحية على وشك أن تبدأ، انقطع صوت الهمهمات، وفتحت الستارة، وأضيئت أنوار المسرح.

"سنان" أو الشخص الرأسمالي راقد في الفراش، والمحلول معلق بذراعه، وهو يتوجع ويئن.

انتظرت مدة حتى اقتنعت بأنه توجع بما فيه الكفاية، وبعدها فتحت الباب على مصراعيه وقمت بدخلتي.

قلت جملتي بصوت مرعب:

- جئت لأقبض روحك!

وسريعًا سُلط ضوء الكشاف فوقي.

- هل أنت مستعد؟

تحولت نظرات الجميع نحوي بطبيعة الحال بعد هذه الدخلة المهيبة.

في البداية، كانت نظرات باهتة لا معنى لها، لكن بعد ذلك جاءت عيني بعين سيدة جالسة على أقرب مقعد لي من الخلف، ويبدو أنها شهدت الحربين العالميتين، أخذت تتشنج وتتصبب عرقًا وجسدها النحيل يرتعش مثل ورقة الشجر.

عم الصمت المكان لعدة ثواني، ثم جاءت صرخة من أحد المتفرجين وكسرت هذا الصمت: - أشهد أن لا إله إلا اللّه!

وتبعه الجميع كالقطيع، وأخذوا يتبادلون الصيحات.

قام آخرون على أقدامهم وقلبوا المقاعد، بدأ الجمهور يتدافع ويهرب مني داهسًا بعضهم بعضًا بقوة غير متوقعة من سِيقَانِهم المصابة بالروماتيزم. وهكذا، كان هؤلاء المساكين الذين يشرفون على الموت، قد رأوا الموت أمام أعينهم.

أسرع فريق من الأطباء والممرضات مع أعضاء من فرقتنا أيضًا محاولين أن يهدؤوا من روعهم. من ناحية أخرى، كان "سنان" يتقلب في سريره على المسرح متمسكًا بدوره الدرامي، ويقول: - يجب أن يستمر العرض.

محاولًا بلا جدوى إسكات الأصوات بنداءاته المتوجعة.

قامت تلك الخالة التي كانت تتصبب عرقًا قبل قليل، وانكبت على ركبتيها وأخذت تتوسل إليّ وتطلب مني الرحمة؛ ربما رأت أنها لن تقدر على الجري والفرار مثلما فعل الآخرون لذلك فقد أمسكت بساقيي. وما إن كنت سأنحني إليها وأهدئها، فإذا بها ترفع ساق البنطلون وتعضني بلا شفقة بطقم أسنانها الصناعي، صرخت صرخة خلقت بصيصًا من الأمل لدى هؤلاء العجزة في أن عزرائيل سينهزم، وعلى إثرها خطفت خالة أخرى المنجل من يدي وكسرته على رأسي، ثم انقض علي وطرحني أرضًا رجلٌ ذو شعر فضي وضخم الجسم للغاية، أظنه فاز بعدة مدليات في أولمبياد المصارعة قبل نصف قرن، بعدما طرحني أرضًا أخذ يخنقني، ولم يترك جزءًا بجسمي إلا وبرحه ضربًا، وآخر خلع ساقه الصناعية وأنزلها على رأسي؛ كنت قاب قوسين أن أسلم روحي للمرة الثانية في خلال أربعين يومًا.

بدأ التشنج الذي أصاب حلقي يتراخى شيئًا فشيئًا، واستطعت أخذ نفس عميق. لحقتني بعض الممرضات في الرمق الأخير، وخلصوني بصعوبة بالغة من أيدي القطيع الذي انصرع غضبًا، وعندما خرجت إلى الحديقة، وجدت الفريق واقفًا في الخارج ينتظر ولا يعلم ماذا سيفعل، فقط ينتظر.

هززت "فوليه" من ذراعها وسألتها:

- هل هناك خبر عن "عبدُل"؟

- لم يأتِ. قامت القيامة في الداخل، في رأيك هل نتصل بالشرطة؟

تركتهم وتوجهت جريًا نحو باب الخروج.

ألقيت نفسي أمام أول تاكسي رأيته، توقف بفرملة مفجعة، وبسرعة ركبت في الكرسي الأمامي بجانب السائق، وقلت له: - سنذهب إلي "يلديرمني".

بدأ سائق التاكسي يرطن بتأفف واعتراض، فوضعت الطرطور على رأسي واستدرت نحوه بوجهي الأبيض وعينيَّ السوداوين وفمي الأحمر كالدم: - على وجه السرعة!

اقتنع السائق بأنني لستُ زبونًا متوحشًا كثيرًا! لذلك أخرس صوته، وانطلق بالتاكسي منفذًا أمري.

وفي مدخل جسر "البوسفور"، كان المرور مزدحمًا كالعادة. أخذت أعض على شفتيّ وأقرد أظافري بعصبية وتوتر؛ شعرت أنني منحوس، فحتى الوقت كان ضدي.

عندما وصلت إلى منزل "عبدُل"، كانت الساعة العاشرة والنصف. ضغطت على أعلى جرس وانتظرت، وعندما لم يأتِ ردٌّ، ضغطت بيدي على كل الأجراس مرة واحدة.

فتح أحدهم باب العمارة الأوتوماتيكي، صعدت السلالم مثنى وثلاث، وأخيرًا ووصلت إلى الطابق العلوي. دفعت باب الشقة وأنا أنهج ليس بسبب مجهود السلم، وإنما خوفًا من المنظر الذي سأراه بعد قليل.

خطوت خطوة للداخل:

- "عبدُل"!

ثم تلفت حولي؛ لم يصادف عيني وضعٌ غريبٌ.

دخلت صالة الجلوس، فشعرت لا إراديًا بالحاجة لتفقد الحوض الزجاجي الموضوع فوق المنضدة الصغير؛ كان الثعبان الملعون مكانه. حينئذ، لفت انتباهي شيء ملقىً على الأرض بجانب أحد الكراسي حول المنضدة؛ علبة لبن نصف لتر ممزق عنقها! وفي اللحظة نفسها، سمعت باب الحمام يفتح. نظرت خلفي، إنه "خضر"، وبسرعة سحب البوليس السري سلاحه من خصره، لحظتها، أحسست ببرودة تسري من قفاي إلى جسدي، وقف شعر يدي وانعقد لساني.

بدأ "خضر" يخطو باتجاهي:

- من أنت؟

خلعت البرقع بيدي المرتعشتين، فانفجر ضاحكًا.

- هاااا! هل أنت؟ ما هذه الملابس؟ هل أنت مخنث؟

كانت ملابس عزرائيل قد أخافته كثيرًا، فأرجع سلاحه مكانه، ارتحت قليلًا عندما رأيت هذا.

قام الوغد ودفعني من كتفي قائلًا:

- اجلس لأرى.

فانغرست بالكرسي.

جلس هو أمامي، وبدأ يشرب اللبن:

- ماذا تفعل هنا؟ عما تبحث؟

كنت أود بشدة أن أوبخه وأنهره، لكن لن يكون تصرفًا منطقيًا في ظل هذا الوضع القائم.

قلت له:

- كان لدينا مسرحية اليوم؛ يعني كنا سنصعد معًا على خشبة المسرح معًا، وعندما لم يأتِ، قلقت عليه؛ يعتبر صديقي على كل الأحوال.

قال "خضر" بانبساط:

- وااو! الذين يعيشون بالمسرحيات. أتعلم؟ أنا أيضًا كنت مولعًا بالفن.

- أستطيع أن أخمن ذلك، فهناك من يدعون أن الجريمة فرع من فروع الفن الأصيل.

لحظة خروج هذا الكلام من فمي، قلت لنفسي: "لدغت لسانك عقربة!"، إلا أنه تأثر بهذا الكلام بطريقة لم أكن أتوقعها إطلاقًا، وقال: - لا تحقر من الناس وأنت لا تعلم عنهم شيئًا، حسنًا؟

ولم يكتف بذلك، بل تابع يقول:

- أنا كنت راقص باليه حتى سن السابعة عشر.

كدت أنفجر ضحكًا، لكنني كتمت الضحكة بصعوبة؛ أظن أن رغبتي في الضحك كانت بسبب أعصابي المتوترة لا أكثر، وإلا لم أكن لأتحمل في عدم الضحك على مواقف كتلك.

- عفوًا، ماذا قلت؟!

- والله! ماذا كنت تظن؟ أنا كبرت في ملجأ أيتام، ومعظم الأطفال الذين ينشؤون هناك، دائمًا ما يكون لديهم حلم: عندما أكبر سأصبح شرطيًا، فكانت مديرية الأمن تأخذ الكثير من عندنا، تضمهم إلى فرقهم.

وبعدها، أخرج السلاح ووضعه فوق المنضدة الصغيرة، ثم رجع مسندًا ظهره على الكرسي؛ هل يفعل هذا لكي يرتاح أكثر في جلسته؟ أم لكي يغلق الطرق على أي تعليق متهور قد يصدر مني بلا كياسة؟ لم أستطِع الاستنتاج.

- لا أحد يعلم هذا؛ هناك مؤسسة أخرى تطرق باب الملجأ عندما تضيق بها السبل، إنه: مسرح باليه الأوبرا القومية.

تنحنحت قائلًا:

- عندما تضيق بها السبل؟!

- افهم يا بن العم! لا يستطيعون أن يجدوا راقصي باليه من الذكور، فمعظم الأسر تشجع بناتها ليصبحوا راقصات باليه. لكن انظر، من يشجع أبناءه ليصبحوا راقصي باليه؟ لا يوجد، وفي هذه الحالة يأتون عاجزين إلى الملجأ، وينتقون الأطفال الموهوبين ليسجلوهم في معهد التمثيل والموسيقى.

سألته متظاهرًا بأني مهتم بكلامه:

- يعني أنت ذهبت إلى معهد التمثيل والموسيقى؟

إنها حكاية عجيبة حقًا، لكني كنت أتحدث معه لأجاريه وأعرف إلى أين سينتهي بنا الأمر.

قال "خضر" وقد ظهر عليه حزن وكآبة واضحان:

- وأي ذهاب! خمس سنوات... ذهبت إلى المعهد خمس سنوات، وكنت أمهر راقص باليه شهدته تركيا، ولو استمررت، لوصلت للعالمية اليوم. رقصت في مسرحية باليه "كسارة البندق (The Nutcracker)" لـ"تشايكوفسكي"، لو كنت رأيتني لطار عقلك! يا لها من أيام! كان عندنا معلمة تُدعى السيدة "سيرينات"

- رحمها الله - لو ماتت، كانت تحبني كثيرًا وتناديني يا "نورييف" الصغير - رودولف نيورييف راقص الباليه الفرنسي الشهير.

- واو! مثلت في كسارة البندق؟!

- روميو وجوليت، وبحيرة البجع، والأميرة النائمة، وسندريلا.. وغيرها الكثير، الكثير.

ما أعجب تلك الحياة! انظر، كيف جذبني لحكايته رغمًا عني:

- ما دمت مولعًا بالباليه إلى هذا الحد، فما الذي حدث حتى تركت هذا الفن؟

تأوه "خضر" بوجع:

- إنه القدر! في يوم من الأيام كنت أتدرب على الرقص في الفصل، فشعرت بوجع وثقل في ظهري، على إثره وقعت على الأرض، وحملوني إلى المستشفى على وجه السرعة. قال الطبيب إنه انزلاق غضروفي، انتهت حياتك الفنية، وداعًا للباليه. وها هو...

صمت لمدة فأكملت جملته قائلًا:

- وها هو الحال الآن.

فقال "خضر" متوكلًا ومسلمًا بالقدر:

- ومع ذلك نحمد الله ونشكره، فلسنا بلا طعام ولا مأوى.

- أتفهمك، فقد حدث تحول جذري في مهنتك مع الأسف طبعًا.

احتد عليَّ:

- وما بها مهنتي؟ عندما علمت أنني لن أستطيع أن أكمل في رقص الباليه، التحقت بكلية الشرطة، هل بها عيب؟ المهم أن تؤدي وظيفتك على أكمل وجه. هذه هي مشكلة البلد أصلًا، إن شئت سباكًا إن شئت قاتلًا مأجورًا، لكن كن الأفضل في مجالك!

مع أنني لم أجد مكانًا لمهنة القتل بالإيجار داخل مشروع التنمية القومي هذا، إلا أنني لم أبدِ اعتراضًا، فكنتَ تقرأ في عينه ثقة هؤلاء الناس الذي يعون جيدًا الكلام الذي يقولونه.

سألته خائفًا:

- حسنًا، وماذا سيحدث الآن؟

رفع علبة اللبن إلى فمه، وأخذ يشرب منها، ثم ألقاها على الأرض ومسح شواربه بظهر يده: - الآن، الأمر متعلق بصديقك المجنون.

- سعدت لفهمك أخيرًا أن لا علاقة لي بالأمر.

ردَّ وهو يأخذ سلاحه من فوق المنضدة:

- السيدة "نور جول" تعتقد ذلك، لكنني لست متأكدًا حتى الآن، ولا يهمني أصلًا، فسواءً كنت أنت وحدك أو أنتما الاثنان، سينتهي أمركما.

- هل فازت السيدة "نور جول" بالانتخابات؟

- لا، لم تفز.

ثم أخذ ينظر محدقًا في عينيّ وتابع:

- كما أن الأمر لا يعنيك.

قام، ووضع سلاحه في خصره، ثم ألقى داخل حوض الثعبان ظرفًا أصفر أخرجه من جيب جاكيته: - يوجد خمسة آلاف دولار داخل هذا الظرف، قل لصديقك أن هذا أقصى ما يراه وما سيراه؛ هذا أيضًا من كرم السيدة "نور جول"، فلو أن الأمر يعود إليّ لـ... على أية حال، لو كان ينوي العبث مع السيدة "نور جول" أو زوجها..

ثم توقف عند هذه الكلمة، وأكمل قائلًا:

- فستكون نهايتكما أسوأ من الساحر "روثبارت"! هل فهمت؟

- تقصد ساحر باليه "بحيرة البجع" الشرير؟

- برافو!

ثم اتجه نحو الباب.

ناديته:

- يا سيد "خضر"! كيف دخلت الشقة؟

- كان الباب مفتوحًا.

ثم انحنى تحية مغرورة كراقص باليه حقيقي قائلًا:

- أنا ذاهب!

بعدما رحل ذلك الوغد أخذت ألفظ أنفاسي، فكانت هذه المرة الثانية التي أهرب فيها من الموت في يوم واحد.

فرحت كثيرًا، ورغمًا عني، بدأ عقلي يفكر في مدى أهميه الفن في حياة المجتمع. انظر، حتى السارق والقاتل المثقف، يكونان مختلفان، من الصعب أن يتوقع الإنسان ما الذي ينتظره في هذه الرحلة العجيبة التي تُسمى الحياة، فهي تخبئ لنا الكثير؛ تكون راقص باليه، وبين لحظة وأخرى يشاء القدر فتتحول إلى قاتل مأجور، بالضبط كما حدث معنا؛ ذاهبون لنقدم الفن الجميل في مؤسسة حكومية، بقدرة قادر نتحول إلى مصاصي دماء متوحشين من النوع الذي ترونه في الروايات الأجنبية.

من جانب آخر، كان عليَّ أخذ التدابير اللازمة لكي أجعل "عبدُل" يتراجع عن فكرة الابتزاز هذه؛ حتى أحميه من يد هذا القاتل المأجور. صحيح! يا تُرى، أين هو؟ ربما خرج من المنزل ليأتي للمسرحية ولم يعد بعد، في واقع الأمر لا أظنه فعل ذلك، فليس من طبعه أن يجازف بالخروج وهو يعلم أنه لن يستطيع اللحاق بالشيء في موعده، هذا الاحتمال كبير، ويمكن أيضًا أنه رأى "خضر" ففرَّ هاربًا، حتى لو كان في جهنم الآن، فبما أنه سيُطعن اليوم في هذا المكان، فلا داعي الآن للقلق. حسنًا، هل سيحدث هذا السيناريو فعلًا؟

جاءني هاجس فجأة، فقمت من مكاني وبدأت أجول المنزل بهدوء، لم أجد أحدًا لا في المطبخ ولا في الحجرة الصغير الملتصقة به. حينئذٍ، لفت انتباهي بابٌ مغلقٌ على الجانب الآخر من صالة الجلوس، فذهبت إلى تلك الناحية، وفتحت الباب وتسللت إلى الداخل بهدوء؛ ظلام دامس، وسرير كبير بالوسط، كما يوجد كومودينو وشيفونيرة ودولاب وملابس مبعثرة في الأرجاء؛ يعني أثاث وموبيليا يمكنكم رؤيتها في أي غرفة نوم. عندما لم تستطع يدي إيجاد زر الكهرباء، ذهبت نحو النافذة لأفتح الستائر، وما إن سحبتها، حتى رأيت جثة مكفية على وجهه وسط بركة صغيرة من الدم، في الفراغ ما بين النافذة والسرير، شهقت شهقة عالية، فعلى الرغم من كل ما بذلت من جهود، كان القدر قد نفذ، ولم أستطع إنقاذ "عبدُل".

أول ما جاء على عقلي؛ أن "خضر" سيرجع إلى هنا حتى ينهي أمري أنا أيضًا، ولكن لو كان في نتيه أن يقتلني فلماذا يجلس ويحكي لي قصة حياته المزيفة؟ ربما خاف أن أصرخ مستغيثًا، أو أن يسمع صوت سلاحه، وربما أيضًا فضل أن يحشرني في زاوية لا أستطيع الفرار منها، ويقتلني بدم بارد كما فعل بـ"عبدُل".

خرجت من الغرفة متوترًا، وتفقدت المنزل، وبعدما تأكدت أنه فارغ، أغلقت باب الشقة وضببته بالقفل، ثم أخذت نفسًا عميقًا محاولًا أن أستجمع قواي العقلية. كان علي الاتصال بأي أحد؛ الشرطة، الإسعاف... حسنًا، وكيف سأفسر لهم ما حدث؟ حتى إنهم من الممكن جدًا أن يلصقوا الجناية بي. فكرت في الهروب من هنا على الفور، لكني تذكرت أني موجود هنا لسبب؛ فقد أمرني "إسكندر دوغان" أن أتعقب الدماء، كنت قد نجحت في تحقيق هذا نوعًا ما،

لكن مات "عبدُل"، ولم أستطع منع الجريمة، يا ترى، هل كانت مهمتي هي العثور على القاتل؟ وهل هو "خضر"؟ مع أنه يبدو الاحتمال الأقرب للعقل، إلا أنني لست متيقنًا. ربما تمامًا كما قلت، إنه أتى للتحدث مع "عبدُل"، وجلس ينتظر دون أن يتفقد جيدًا الغرف التي بالداخل. حسنًا، فلماذا ترك ظرف النقود قبل أن يذهب؟ في تلك اللحظة، أضيء مصباح في عقلي! ربما لم يمت "عبدُل"؟ وكان بإمكاني أن أنقله إلى المشفى، أو حتى آخذ اسمَ القاتل من فمه قبل أن يموت.

قلبي يدق ورأسي يدور.

رجعت إلى مكان الجثة وأنا أتطوح يمينًا ويسارًا، انحنيت وهززته من كتفه.

- "عبدُل".. "عبدُل".. هل تسمعني؟ قل شيئًا يا صديقي؟ هيا تحدث أرجوك؟ من فعل بك هذا؟ من؟

سحبت الجثة نحوي... وبهت من الصدمة؛ الجسد لم يكن جسد "عبدُل"، إنه الوجه الذي رأيته عندما نظرت في المرآة آخر مرة قبل أن أموت في الحريق الذي نشب بالجامعة، كان مطعونًا بسكين في صدره ويحدق في وجهي بعينيه الشاخصتين، إنه أنا بشحمي ولحمي! وجهي بعد عشرين سنة.

سابت أعصابي، وشل جسمي، وشعرت بصدمة لم أحسها في حياتي قط، وفجأة رأيت جسمه يتحرك. أولًا، ابتسم لي ببرود، وبعدها أمسك السكين بإحكام وأخرجه من صدره، ثم وجهه نحوي وسحبني إليه، وبينما كانت السكين تنغرز بين عظامي لتدفن في قلبي، سمعته يهمس في أذني: - أنت!

13

تعال كما أنت

Come As You Are

عندما عدت إلى وعيي، تحسست صدري تلقائيًا، لم أرَ أي أثر لطعن السكين، إلا أنني وجدت نفسي راقدًا بالمشفى، وأمي نائمة على الكرسي أمامي.

حاولت أن أرفع رأسي شيئًا فشيئًا؛ كان يؤلمني ألمًا شديدًا وملفوفًا بالضمادة، وكذلك سيقاني: - أمي!

فتحت عينيها، وأخذت تنظر في وجهي لمدة وهي تضحك وتبكي في الوقت نفسه، ثم قالت: - ولدي! حمدًا لله على سلامتك!

قامت من مكانها على مهل، وجاءت إلى جانبي.

عانقتني والدموع في عينيها.

- أمي، ماذا حدث لي؟

- لا شيء يا صغيري بإذن الله.

بالنظر لحالتها، فبالطبع هذا تمني ودعاء أكثر منه إجابة على سؤالي.

وفي تلك الأثناء، رأيت بنتًا صغيرةً واقفة على الباب تنظر إليَّ وفي يدها ساندويتش وكوب عصير. انبعث دفء من قلبي إلى عقلي، وفي تلك اللحظة بدأت أبكي وأضحك في آن واحد.

صرخت قائلًا:

- "زينب"! عدتِ يا "زينب"!

ألقت ما بيدها ثم جرت نحوي، وارتمت بين ذراعي: - أبي، حبيبي!

وقتها شعرت بأن حمل أطنان زال عن قلبي، فأنا مع أحبتي في الزمان والمكان الذي أنتمي إليها، أما وجودي بالمستشفى فليس بسبب أنني قُتلت من قِبل نفسي، بل يبدو أنها الحادثة التي وقعت بالجامعة. تذكرت الحريق فجأة.

سألت ابنتي وأنا أتلمس يديها:

- هل أنتِ بخير؟

- ليس بي شيء، لا تقلق، لكنك أصبت بجروح.

- وهل الجميع بخير؟

- لا تقلق، لم يصب أحدًا مكروهٌ... يعني أحدًا غيرك.

كانت أمي قد خرجت لتعطي الممرضات بشرى عودتي إلى الحياة حتى يخبروا الأطباء على الفور، وبصراحةٍ، كان لجهودها نتائج سريعة؛ حيث دخل الغرفة طبيب بشوش الوجه، وعلى جانبيه ممرضتان، وبعد معاينة سريعة، ابتسم الطبيب: - سلامتك يا سيد "عزيز"! أصبت بصدمة قوية في الدماغ، لكن تجاوزتها على خير.

- منذ متى وأنا هنا؟

- منذ أربع وعشرين ساعة تقريبًا.

- حسنًا، وسيقاني؟

- احترقت قليلًا، لكنها حروق من الدرجة الأولى، لا تقلق شيء بسيط، كما أننا وضعنا لك أكسجين بسبب سم الدخان.

- شكرًا لك، لكن متى سأخرج من هنا؟

- سنضعك تحت الملاحظة ليومين آخرين، وبعد ذلك يمكنك الخروج.

قالت أمي باكية تدعو الدعاء تلو الآخر:

- اخرج أنت فقط، وسأطبخ لك الفاصوليا البيضاء التي تحبها، وكل منها ما تشاء.

مرت مدة طويلة وأنا أحاول أن أجد منطقًا لكلام أمي، لكن الطبيب مشكورًا فسر الأمر قائلًا: - بالأمس عندما استيقظت في العناية المركزة، سألناك عن أكثر طعام تحبه فقلت: الفاصوليا البيضاء.

- أحقًا ذلك؟ لا أتذكر على الإطلاق.

وعندما ذهب الطبيب والممرضات، جاءت "زينب" وأمسكت يدي: - أمي أيضًا كانت موجودة هنا إلى أن خرجتَ من العناية المركزة، وعندما ينتهي عملها ستأتي مجددًا.

ابتسمتُ قائلًا:

- حزنت على حفلتك!

- لا عليك، تحوَّل الأمر إلى مغامرة.

قبلتها على خدها:

- مغامرة، وأي مغامرة!

يبدو أن كل شيء عاد لطبيعته قبل انبعاث الحريق، لكن كان لدي جانب لا يستطيع تصديق أن الأربعين يومًا التي ظننت أني أعيشها بينما كنت في غيبوبة، كلها عبارة عن حلم. بحثت كثيرًا وتحدثت مع أناس كثيرين: "نرجس" و"صفوت" والسيد "أسعد" وحتى "فوليه" وقلت لهم بعض

التفاصيل حول تلك الأربعين يومًا، على أمل أن آخذ من فمهم أية معلومة تساعدني في ربط ما حدث في ذلك العالم بالحقيقة، غير أنني لم آخذ منهم سوى نظرات من الدهشة، فما حكيته لم يستدعِ عند أيٍّ منهم أية ذكرى حقيقية، بالإضافة إلى أن أقوالهم جميعًا كانت تبدو مترابطة وموافقة بعضها بعضًا؛ هذا يعني أن الأربعين يومًا تلك حتى لو كان تأثيرها قويًا في ذهني، إلا أنها كانت نتاجًا عجيبًا وأي عجب، ابتكرتها قوة خيالي الذي فلتت معاييره بسبب الارتجاج في المخ الذي أصابني.

كان "عبدُل" يأتي على بالي باستمرار، بل ويغزو أحلامي. أردت حقًا أن أعرف كيف عاش مثير الشغب ذاك حياته، وإلى أي مدى عكس الـ"أنا" الخاص به الـ"إيجو" الخاص بي والذي تحطم تمامًا. من ناحية أخرى، كنت أحس بالاشتياق إليه، وبالحزن لأنني لم أستطع توديعه بطريقة لائقة، أفعل هذا وأنا مدرك أنني هكذا وصلت إلى حالة مرضية حرجة. وذات يوم، تهورت وتواصلت مع "فوليه" لأسألها عما إن كانت تعلم مكان قبر "عبدُل" أم لا إن لم تخنها الذاكرة، فإن صديقي الذي لم أتعرف عليه قط، يرقد في مقبرة "جبجي" التاريخية.

وهكذا، في الليلة نفسها ركبت الأوتوبيس وشققت طريقي متجهًا إلى العاصمة. وصلت إلى المقبرة في وقت مبكر من الصباح، وبعد طلب زيارة تقدمت به إلى مكتب صغير عند مدخل المقبرة، كنت قد علمت بالضبط مكان مرقده الأخير. وبينما أسير في الطرق الملتوية بين سكان العالم الصامتين، ظهر أمامي فجأة القبر الذي أبحث عنه، وحتى لو لم أرَ اسم "عبدُل" ولقبه وتاريخ ميلاده ووفاته، فكنت سأفهم أنه قبره من الجملة المكتوبة أعلاه:

"صديقي "عزيز"! إن كنت تريد أن ترى، فاخرج من طريقك!". كنت قد ذهبت إلى هناك لأواجه نفسي عنده، لكنه فاجأني كعادته؛ إنه يناديني من العالم الآخر، لا بد أنه سيأتي يومٌ وأفهم ماذا كان يعني بهذا الكلام.

مسحت قبره جيدًا، وملأت وعاء الماء حتى تشرب العصافير ويأخذ ثوابها، ثم ودعت صديقي على أمل اللقاء مجددًا يومًا ما.

إن ما عشته في "الماضيّ البديل" - حقيقة كان أم خيالًا - فإنه قد أثر في حياتي تأثيرًا بالغًا، فأصبحت منظمًا، لا أشرب الكحول كالسابق، ولا أضيع وقتي أمام التليفزيون، حتى إنني بدأت في ترجمة أعمال "سعيد فائق" رويدًا رويدًا، وأهم ما في الأمر، أنني تركت دار "باراديسا" وبدأت العمل كاتبًا في وكالة صغيرة للدعاية والإعلان. كنت ممتنًا لعملي؛ حيث اكتشفت موهبتي في الترويج الإعلاني، ومن حين لآخر، بدأت أشارك في اجتماعات الأفكار الإبداعية.

وذات يوم، دعاني رئيس الوكالة لموقع تصوير إعلان كنت قد ساهمت مساهمة متواضعة في كتابة السيناريو خاصته؛ فكرت أن هذا سيساهم في سطوع نجمي في مهنة كتابة الإعلانات، وبناءً عليه قبلت دعوته الكريمة بكل سرور. وبينما كان طاقم الفيلم يعمل باجتهاد دون انقطاع، انسحبت أنا في زاوية وأخذت أشاهدهم: المخرج والمنتج والممثلون وعمال الإضاءة والمصور، المصور، المصور!

قمت فجأةً، وجريت نحو عاملٍ واقف خلف الكاميرا، يصدر الأوامر يمينًا ويسارًا.

وقفت بجانبه، وضربت كتفه بيدي:

- "يامان"!

التفت وأومأ لي محييًا.

بدا وكأنه لا يتذكرني، فقلت:

- أنا "عزيز" صديقك من الثانوية.

- "عزيز"! لا تؤاخذني لم أعرفك.

ثم عانقني وقبلني قبلتين من خدي:

- ماذا تفعل هنا؟

- أعمل بالوكالة، بدأت حديثًا.

- أراك تبدو بخير حال.

قلت مشيرًا على ساقيه:

- واللّه وأنا أراك في حال أفضل مني عزيزي "يامان"، حزنت كثيرًا عندما سمعت بالحادث.

بدت علامات استفهام على وجه صديقي القديم: - أي حادثٍ؟

- حادث السيارة؛ أما كنتَ تعمل بقناة إخبارية إن لم أكن مخطئًا؟

قال ضاحكًا:

- اختلط عليك الأمر غالبًا؛ أنا لم أعمل في أي قناة إخبارية، ولم أمر بحادث أليم أو ما شابه، ها أنا أمامك مثل الوحش الحمد لله.

- ولكن كيف؟ أتذكر أني تحدثت مع الكثير من الأصدقاء في حفل لقاء دفعة المدرسة، وحكوا لي أنهم رأوك على كرسي متحرك، حتى إن الجميع قال إنك لن تستطيع أبدًا المشي على قدميك مرة أخرى.

حكَّ رأسه قائلًا:

- يا إلهي! عندما قلت ذلك، الآن تذكرت، فعلًا، في وقت ما جاءت لي فرصة عمل في قناة إخبارية اسمها "آخر دقيقة". أتذكر أن فريق عملها قد مرَّ بحادث مروري، إثره لاقى الكثيرون حتفه، تقريبًا، مرت عشر سنوات أو خمس عشرة على هذا الحادث؟

- لكنك لم تعمل هناك؟

لوَّح رأسه بإفادة "لا":

- في الأساس كنت أود كثيرًا، لكن الوالدة عارضت بشدة، ورفضت رفضًا قاطعًا، وأخذت تقول إن قبلت هذا العرض فلن أسامحك طوال حياتي وأشياء من هذا القبيل، وبعدها بدأتُ في العمل بشركات إنتاج الأفلام كما ترى، ومن الجيد أنه حدث ذلك.

بدأ ضغطي يعلو ويفور:

- لماذا لم توافق والدتك على دخولك هذا العمل يا تُرى؟ هل لديك علم؟

- واللّه، حدث شيء عجيب جدًا؛ عندما خرجت والدتي من عملية استئصال المرارة، وبمجرد أن عادت إلى وعيها تحدثت في هذا الأمر. لا أدري، وهي تحت تأثير البنج رأت شيخًا ذا لحية بيضاء اتصل بها، وقال لها يجب على "يامان" ألا يبدأ هذا العمل.

- شيخٌ ذو لحية بيضاء؟

هزَّ كتفيه قائلًا:

- لا أعلم، كنت أريد أكثر العمل في صناعة الأفلام، لكن فكرت؛ أمي ستحزن مني كثيرًا إذا قبلت ذلك العرض، فرفضته وذهب، ويا عالِم! ربما كنت سأكون أنا أيضًا داخل تلك السيارة، أليس كذلك؟ إنه قلب الأم، عجيب حقًا!

- حقًّا!

نادى "يامان" على أحد عمال الإنتاج، وبعدما شرح له بعض الأشياء، التفت إليَّ: - دعنا نتقابل من حين لآخر لنشرب شيئًا؟

- بالطبع.

داخ رأسي وتعكرت معدتي.

بناءً على كلامه هذا، فإن السيدة "نوران" تلقت خبر حادثة ابنها إمَّا مني أو من "الشيخ ذي اللحية البيضاء" وهي غائبة عن الوعي. عندما اتصلت بها، كنت أنا أيضًا في حالة مشابهة لها؛ هذا يعني أن الأشخاص الغائبين عن

الوعي سواء حالة غيبوبة أو غيرها ربما يتلاقى وعيهم في نقطة تمكنهم من التواصل مع بعضهم! وربما أيضًا عندما عدت إلى وعيي بالمستشفى، كنت قد فتحت عينَي ليس على الكون الذي تركته خلفي، وإنما على كون ثالث به كل شيء مختلف أكثر بقليل. إن كان هذا أو ذاك، فإني رأيت ذلك اليوم لأول مرة أثناء تلك الرحلة، وكنت قد لمست الحقيقة بشكل ما. حسنًا، بأي شكل وإلى أي مدى؟ خرجت من موقع التصوير لأشم القليل من الهواء وأستجمع عقلي.

جلست على إحدى المقاعد الخشبية الطويلة وبدأت التفكير بهدوء وتمعن. كنت قد عشت لأول مرة الأربعين يومًا من سنة 1994، وحتى لو كانت طريقة تدخلي في الأحداث أثناء حياتي الثانية قد غيرت ما حدث في حياتي الأولى، إلا أن كل شيء حدث حتى تاريخ 25 فبراير 1994، كان بالضبط كما هو في السيناريوين كليهما؛ ففي حياتي الأولى لم أتعرف على "عبدُل" لأني لم أذهب إلى المسرح من بعد ذلك التاريخ، وبالتالي لم أستطع قط معرفة ما حدث بينه وبين "نرجس" أو السيد "أسعد"؛ أي أن "عبدُل" كان قد تعرف على "نرجس" عندما أتى إلى الجامعة للبحث عني، وذهب إلى "براديسا" معها، وهناك دخل في حوار مع "شكران" واستنتج من كلامها أن السيد "أسعد" يعيش علاقة خارج الزواج، وحاول أن يختلس من الرجل مالًا مستفيدًا من هذا الوضع، وفي تلك المرة فقط، لم أكن أنا موجودًا بالمشهد.

تذكرت فجأة تلك الجملة التي قرأتها على قبره: "إن كنت تريد أن ترى، فاخرج من طريقك"، وفجأة وقف شعر رأسي؛ هذا يعني لو كنت أريد فهم ما حدث في الحياة التي أنا موجود بها الآن، فعليَّ أن أضع نفسي خارج المعادلة، بعبارة أخرى، عليَّ أن انسحب من أمامي.

ما عشته أثناء رحلتي إلى الماضي، قد أعطاني طرف خيط لكي أستطيع رؤية سلسلة الأحداث التي وقعت قبل تلك النقطة وصولًا لموت "عبدُل"، إن وجهة النظر هذه قد أنارت أشياءً كثيرة في عقلي، وكأن كل شيء كان مثل أجزاء مقطعة من لوحة كونية عظيمة رسمها فنان مازح خفيف الدم، بيني وبينكم أشك أن ذلك الفنان هو "إسكندر دوغان".

بعدما تصورت هذه اللوحة في مخيلتي، كان كل شيء قد حُلَّ والباقي لعب عيال: من أول علاقة السيد "أسعد" ورسائل الابتزاز وكلام "عبدُل" وترهات "نرجس"، وحتى الجريمة. كم كان "عبدُل" محقًّا في قوله إنه يجب عليّ أن أفكر ببساطة. أخرجت تليفوني المحمول واتصلت بزوجتي السابقة.

وصلت إلى رصيف ميناء "بشكطاش" القديم، وكانت "نرجس" جالسة فوق صخور الشاطئ تدخن سيجارة.

رميت وردة حمراء في حضنها، ثم جلست فوق الصخرة بجانبها. أخذت الوردة وشمتها: - شكرًا لك، رومانسي جدًا.

- العفو.

ثم أشعلت سيجارة أنا الآخر.

قالت "نرجس":

- الجو بديع، لذا لم أرغب في الجلوس في أماكن مغلقة.

- معكِ حق؛ إنه مساءٌ جميل.

- ما الأخبار؟

- السيد "أسعد"؟ لم أكن أتخيل هذا في حياتي إطلاقًا.

حولت نظراتها إليَّ، وقالت بأسلوب جاد:

- عفوًا؟!

- ظننت أنك على علاقة مع "عبدُل"، لكن في الأساس كان السيد "أسعد"، أليس كذلك؟

سألتني وقد تجمد وجهها من الصدمة:

- أنت، من أين علمت هذا؟

هززت كتفي قائلًا:

- لا يهم، قولي "عبدُل" قولي "صفوت"... يمكن أن أصدقاءك، لكن السيد "أسعد"! الحقيقة عقلي لا يستوعب.

صرخت قائلة:

- لم نكن حبيبين وما شابه، لا تتحدث بحماقة!

- ولكن حدث شيء بينكما، أليس كذلك؟

ابتسمت ابتسامة مؤلمة:

- نعم، أشياء سخيفة.

- لماذا؟ لماذا السيد "أسعد"؟

- لأنه الشخص الذي يستحيل أن أكون حبيبته.

- لم أفهم.

- ألم تكن "جولرو" حبيبتك؟

- "جولرو"؟

ولِمَ أكذب؟ لَمْ يُفد لي هذا الاسم أي معنى عندما سمعته للوهلة الأولى، ففسرت "نرجس": - الفتاة التي خنتني معها، صديقة الثانوية.

- ماذا يعني؟ هل فعلت هذا حتى تنتقمي مني؟

- ليس انتقامًا، ربما مشاكسة أو تصفية حساب.. لا أعلم. كنت أكرهك، وبنفس القدر أحبك، أما ما فعلته أنا لم أستطع نسيانه؛ كانت سخافة وليس لها أي معنى بالنسبة لي، أساسًا لم تستمر كثيرًا، إن كان سيفيد بشيء فإني أعترف لك بأني كنت أموت من عذاب الضمير.

فكرت قائلًا: " النساء!".

ثم توقفت أفكاري عند تلك النقطة كأي رجل بليد الفهم ذي رأس في حجم رأس الإوزة يبدأ بالتفكير هكذا.

سألتها قائلًا:

- حسنًا، ماذا عن "عبدُل"؟ هل قتلتيه لسبب له علاقة بهذا؟

اصفر وجهها فجأة:

- "عزيز"!

- لا تخافي، لن أبلغ عنك، فما بيننا لا يجعلني أفعل ذلك، لكن أريد فقط أن أعرف: لماذا وكيف قتلتِ "عبدُل"؟

حولت نظراتها جهة البحر، ولم تستطع أن تنكر، لأنها تعرف أني أعرفها وأفهمها جيدًا.

سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها ويدها ترتجف، ثم قالت: - حاولت أن أتحدث معه مرارًا، بكيت وتوسلت إليه حتى يلتزم الصمت ويغلق فمه... لم يسمعني.

- هل توسلت إليه حتى يكف عن ابتزاز السيد "أسعد"؟

تعجبت قائلة:

- يعني أنك تعلم هذا أيضًا؟! لا ليس لهذا السبب، فهذا الأمر كان قد انتهى، فبينما كان "عبدُل" يتحدث مع سكرتيرة بدار النشر، خمن أن "أسعد" على علاقة خارج الزواج، وأرسل له رسالة يبتزه فيها، كان جادًا ومازحًا في الوقت نفسه، لأنه لا يعلم من تكون تلك الفتاة. أما "أسعد" فطبيعة الحال ظنَّ أن

كاتب الرسالة قد علم الأمر مني، وأننا نصبنا له فخًّا؛ يعني أنا وأنت، فاتصل بي وأخذ يصرخ ويبكي، وهددني.

- حسنًا، ومن أين فهمت أن الفاعل هو "عبدُل"؟

- اعترف بنفسه: "لعبت لعبة على رئيس عملك". وذات يوم، ذهبت إلى بيته مساءً، وطلبت منه إنهاء هذه السخافة، وطبعًا في ذلك الحين فهم أن...

- أن هناك أشياء بينك وبين السيد "أسعد".

أومأت برأسها، ثم قالت:

- لم تكن هناك أي وسيلة لإقناع "عبدُل"، فذهبت لـ"أسعد" وحكيت له كل شيء.

- وبعد ذلك؟

- جاء أحد الرجال وضربه علقة نظيفة.

- لكن لم تفد بشيء، أليس كذلك؟

- بالعكس، لم يجرؤ على فعلها ثانية، وأخذ يقول "أنا كتبت هذه الرسالة من باب المزاح أصلًا" لكنه خاف كثيرًا، وبالطبع غضب مني لأني أبلغت عنه.

- إذًا، لماذا قتلتِه؟ لا أفهم شيئًا.

- يومًا ما اتصل بي وهددني بأنه سيذهب إلى الجامعة ويحكي لك عن علاقتي مع "أسعد"، كان يشعر أنه واجب أخلاقي عليه! قلت له لا تدخل "عزيز" في الأمر، مسألة "أسعد" قد انتهت، فلا تدمر علاقتنا بلا سبب". أولًا حكايتك مع "جولرو"، وبعدها هذه الحكاية، كانت علاقتنا أساسًا على المحك وكنت أعلم أن كل شيء سينتهي.

عضت شفتيها ومسحت أنفها، ثم تابعت:

- على كل حال، ذات صباح ذهبت إلى منزل "عبدُل" مجددًا لعله بالحديث وجهًا لوجه أستطيع إقناعه، طبعًا غباء ما فعلته؛ بح صوتي وأنا أتكلم في الهواء عبثًا، فلم يسمعني وأخذ يكرر الأشياء نفسها ضاحكًا ككهل أقرع "لا يجوز أن تبنى علاقة صحيحة على كذب، مهمتي في الحياة أن أفضح النفاق والمنافقين، وكل مخطئ يأخذ عقابه"، أصبت بالجنون، وأنا على وشك الخروج من المنزل، رأيت سكينًا على الطاولة، وفجأة وجدتها بيدي و...

ابتلعت ريقها وابتسمت بمرارة:

- تعرف الباقي؛ أعمى الغضب عينَي.

وبصوت صفير باخرة "قاضي كوي" التي وصلت إلى رصيف المرفأ، تفرقت طيور النورس التي كانت على صخور الشاطئ وطارت.

سألتها بصوت مرتعش:

- حسنًا، وهل يعلم أحد بالأمر؟

- حتى الآن لم يظهر من يشك فيَّ سواك، لا أفهم كيف فهمت بعد كل تلك السنين؟

- لنقل أني علمت، سأسألك سؤالًا أخيرًا: هل أنتِ نادمة على ما فعلتِ؟

- الندم لا شيء بجانب ما أشعر به، لو عاد الزمان هل كنت سأفعل الشيء نفسه؟ لا أعلم، ولم يعد لهذا أهمية، لكن ذلك اليوم لم أستطع السماح له بأن يصيبك بالحزن.

قلت مبتلعًا ريقي بصعوبة:

- من أجلي! من أجلنا ارتكبت جريمة قتل؟

- مرة ثانية، قبل أن تتحدث عن حبك الأبدي وتندب، تذكر هذا، حسنًا؟ فأنت المسؤول الوحيد عما فقدته وفقدناه كلانا.

ثم قامت على قدميها، ونفضت الغبار عن ملابسها، وقالت: - عليَّ اللحاق بهذه الباخرة.

شققنا معًا الزحام المتكدس أمام رصيف الميناء.

قلت:

- لا داعي لأن تقلقي؛ سيبقى سرك محفوظًا في قلبي إلى الأبد، أعدك.

قالت "نرجس":

- لا تعطي وعودًا كهذه، فالزمن يغير أشياءً كثيرة.

- عجيب! وكأني لم أعش هذه اللحظة من قبل.

لمست خدي بلطف:

- لا أحبك.

قابلتها بالمثل مبتسمًا:

- وأنا أيضًا، أنا أيضًا لا أحبكِ.

تعانقنا بلهفة واشتياق.

شعرنا بحزنٍ، كهفيف رياحٍ لم تقوَ على فتح شراع السفينة، وبسعادة كحفيف أوراق شجر تهوى في تلك الرياح، وكانت الملائكة ترقص فوقنا.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
جريمة في باريس	صوفي إناف	فرنسا
الأخ الأكبر	ماهير جوفين	فرنسا
المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
اعترافات مؤجلة	ميجيلا بودوين	فنزويلا
النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
أين أنتِ؟	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
حياة على باب الثلاجة	أليس كويبرز	كندا
صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
القزم	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
د. مينجوس.. الأخ الأكبر	خيسوس ريكاردو فيلكس	المكسيك
إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
ف.و.م.و	ألموت تينا شميت	النمسا
دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

أفكار سيئة	لويد ميركام	ويلز
أيتام ذهبيون	جاري ريموند	ويلز

الأثر المقدس	إيسا دي كيروش	البرتغال
الأشياء الماضية	برونو فييرا	البرتغال
أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
أبسنت	أيفر تونش	تركيا
أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
توباز	هاكان جنيد	تركيا
ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
مينتا	سولماز كاموران	تركيا
نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
المزيد	هاكان جنيد	تركيا
الرجل الذي باع العالم	ألبير چانيجوز	تركيا
المدينة ذات العباءة القرمزية	أصيلي إردوغان	تركيا

اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
علاقات دولية	إلبيت إليكا	ألبانيا
قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
أفلام في قصص	مجموعة مؤلفين	أمريكا
الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
امرأة في حقيبة	رافاييل مونتيز	البرازيل
بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
كابوس ساو باولو	أنطونيو شيرشينيسكي	البرازيل
مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال

جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
كافكا	فرانز كافكا	التشيك
المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
احذري يا آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
بال خال	أولجا سلافينكوفا	روسيا
رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
يوغوسلافيا.. أرض أبي	جوراي فوينوفيتش	سلوفينيا
الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
بنات الصين	يي مِاي	الصين
الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين

أحدث إصداراتنا

صدر من كتب عامَّة:

عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
الذكاء الأخضر	ستيفانو مانكوسو	إيطاليا
خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
الجري	ثور جوتاس	النرويج

أحدث إصداراتنا من تركيا:

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

بيلبورت: قصة مدينة	جيفري لويس	أمريكا
سيلفي مع الشيخ	كريستوف بيترز	ألمانيا
لا صديق سوى الجبال	بهروز بوجاني	إيران
شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
طلاق على الطريقة التركية	أسمهان أيكول	تركيا
جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا

لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
أختي فاتلة متسلسلة	أوينكان برايزوايت	نيجيريا
لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا